رواية

هوافي مينا

ليلى عامر

هوافي مينا

تقاسمنا الطّعام، بعض الخبز الّذي فقد طعمه ولونه، حبّات من التّمر الجاف، كلّ واحد فينا أمسك نصيبه بأفكار متباينة يقضمه بسرعة.

نتحدّث عن المعركة الماضية، الجراح الّتي غطّتها طبقات التّعفّن، وهؤلاء الشّهداء الّذين تركناهم خلفنا، محفوظ وعبد الرّحيم، وبوغفّالة، اللّقمة جفّت أكثر، وأبت أن تُبلع، رغم كمّية الماء المرافقة لها.

لا أحد يُظهر دمعاتِه، فالجوّ لا يسمح لنا بالبكاء الآن، علينا أن نغيّر هذه المشاعر، علينا أن نرتدي أثوابا أخرى للأمل، علينا أن ندعم بعضنا، رغم كلّ هذه الجراح، سنكون بخير، هكذا هي نظراتُنا وعيونُنا المبتلّة.

الجوّ غائم جدّا منذ الصّباح، والجبلُ يحضنُ هذه الغيوم الحبلى برفق، وبهدوء عجيبين.

اقترب الضّابط نحو الجنديّين المكلّفين بالحراسة، كان معمّر والضّاوي يتحدّثان ويمزحان، لكنّ الأعين ترقب المنعرجات والطّرق البعيدة هناك.

ISBN 9789931298199

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرانكلين روزفلت، الجزائر
023 48 72 79
moussabaka.hcla@hcla.dz

Des:
Dalila Hasnaoui

حَوَافُ مِينَا

حليمة ليلى عامر

الرّواية الحائزة على:

جائزة المجلس الأعلى للّغة العربيّة للآداب

فئة أفضل عمل أدبي

حَوَافُ مِينَا

الرّواية الحائزة على

جائزة المجلس الأعلى للّغة العربيّة للآداب

فئة أفضل عمل أدبي

قياس الصّفحة: 21/14,8

عدد الصّفحات: 232

الإيداع القانوني: السّداسي الثّاني 2023

ردمك: 978-9931-298-19-9

الإهداء

إلى قرابينِ وادي مينا،

تلك الأرواحُ المرفرفةُ على حوافيه...

تلك القبورُ المبعثرةُ على أراضي النّسيانِ في جبل "غزالة"...

نامُوا بسلامٍ...

فالوطنُ استيقظَ أخيرا على زغاريدَ من وجعٍ...

وأناشيدِ المدافعِ،

الأمّهاتُ لم يبتسمنَ منذ ذاك الرّبيع...

حين زفَّ طيورَ اللّيلِ إلى أعالي السّماء...

هؤلاء شهداءُ معركة جبل "غزالة"

أكثر من مئة وعشرين شهيدا...

ثلاثةُ أيّامٍ اسودّت سماءُ غاباتِ تيارت الغربيّة.

17-18-19-مارس 1959

البداية

بياضٌ يشبهُ الموتَ

أنا لن أحيد لأنّي بكُلِّ احتمالٍ سَعيد:

مَماتي زَفافٌ

وَمَحْيايَ عِيدْ،

سَأُرغِمُ أنفَكَ في كُلِّ حالٍ،

فإمّا عَزيزٌ وإمّا شَهيدْ.

أحمد مطر

تقاسمنا الطّعام، بعض الخبز الّذي فقد طعمه ولونه، حبّات من التّمر الجاف، كلّ واحد فينا أمسك نصيبه بأفكار متباينة، يقضمه بسرعة.

نتحدّث عن المعركة الماضية، الجراح الّتي غطّتها طبقات التّعفّن، وهؤلاء الشّهداء الّذين تركناهم خلفنا، محفوظ وعبد الرّحيم، وبوغفّالة، اللّقمة جفّت أكثر، وأبت أن تُبلع، رغم كمّية الماء المرافقة لها.

لا أحد يُظهر دمعاتِه، فالجوّ لا يسمح لنا بالبكاء الآن، علينا أن نغيّر هذه المشاعر، علينا أن نرتدي أثوابا أخرى للأمل، علينا أن ندعم بعضنا، رغم كلّ هذه الجراح، سنكون بخير، هكذا هي نظراتُنا وعيونُنا المبتلّة.

الجوّ غائم جدّا منذ الصّباح، والجبلُ يحضنُ هذه الغيوم الحبلى برفق وبهدوء عجيبين.

اقترب الضّابط نحو الجنديّين المكلّفين بالحراسة، كان معمّر والضّاوي يتحدّثان ويمزحان، لكنّ الأعين ترقب المنعرجات والطّرق البعيدة هناك.

- خذّ القليل من الماء آ سي جلّول.

سمعت هذه الجملة، أردت أن ألتفت لقائلها، لكنّ الأصوات بعدها تزاحمت وارتفعت، صرخات تنادي أن استعدّوا للمعركة، هناك تمشيط وقوّات كبيرة تتّجه نحونا.

كلّ واحد منّا لزم مكانه، نادانا الضّابط مرّة أخرى:

- اليوم معركتنا الحقيقيّة يا الخاوة، انتبهوا جيّدا واتبعوا تعليماتي.

وأنت يا جلّول تفقّد "الرّوسيّة"

رشّاشي ورفيق دربي في سنوات الكفاح، تلمّسته، وانبطحت مع المنبطحين، نراقب بحماس كبير، همس لي صديقي منصور القوّات كالنّمل أعتقد اليوم سأموت يا سي جلّول، هذا يومي.

- اصمت اصمت، أردت أن أصرخ بوجهه أن يكفّ عن قول هذا، لست مستعدّا أن أفقده هو الآخر.

أخفيت تأثّري وقلت له:

- هههه كلّ مرّة نقول ذلك، أنا أيضا سأموت اليوم هههه.

لكنّه صمتَ فعلا ولم يتكلّم، لم يقل كلمة واحدة، رأيت الحزن على وجهه، فجفّ ريقي كمن يعطش فجأة، ويحتاج للكثير من الماء.

طلبت منه جرعة بسرعة، ارتويت رغم الجوع، وتلك حبّات التّمر لم نجد فرصة لمضغها، ها هي في جيبي مع خرطوش الرّصاص، تتلاعب طيبة التّمر بقساوة الموت، ويمتزجان في صورة غريبة.

اقتربت الدّبّابات أكثر، وصار صوت الطّائرات يمنع عنّا سماع بعضنا البعض.

الدّفعة الأولى من القذائف أشعلت حولنا النّيران كشعلات جهنّم المتلاحقة، تبّا كيف عرفوا أماكننا؟

طلب منّا الضّابط عدم إطلاق النّار وهو يصرخ بصوت أتعبه فتقطّع ليعيدها مرّات ومرّات... لن نفرغ ذخيرتنا في اللّاشيء، المعركة كبيرة وعلينا أن نخوضها للنّهاية.

توالت القذائف ونحن ننبطح تارة ونغيّر المكان أخرى، الأشجار الكثيفة والصّخور تحمينا كحصن الأمّهات.

اشتدّ القصف والضّابط لم يأمر بعد بإطلاق النّار، لديه خطّة محكمة فهمتها، يريد استدراج المظلّيين والمشاة.

منذ أيّام فقط، وقعت معركة مشابهة مع العدوّ، الكتيبة الثّانية خاضتها بشجاعة، وخرجت سالمة منها، بينما تركت طائراتهم تنقل قتلاهم وجرحاهم، لكنّهم يتزايدون وكأنّ السّماء تمطرهم.

وها هي اللّحظة المناسبة قد وصلت، صرخ الضّابط وأطلق من رشّاشه لنطلق جميعنا.

كان المظلّيّون يتساقطون أمامنا كأوراق الشّجر، نرميهم بوابل الرّصاص ثمّ نختفي.

صرخ الضّاوي صرخته المعهودة، وهجم على مجموعة من العساكر فأرداهم قتلى، رمقه الضّابط، فصرخ مناديا:

- عد عد ... تراجع يا الضّاوي...

لكنّ شيئا ما حدث في تلك اللّحظة، تلاشت الرّؤيا، وصمتت الآذان ولا أحد رأى الضّاوي.

ابتلعت ريقي الّذي جفّ مرّة أخرى، سقطت دمعاتي، وضغطتّ على الرّوسيّة أوزّع الطّلقات على أبناء الكلب، لكنّ جسدي اهتزّ أكثر، تفرّقنا ولم أعد أرى الرّفاق، صمت كلّ شيء، وعمّ البياض، البياض الّذي رأيته ذات يوم في مركز التّعذيب...

أقرأ شيئا من القرآن، بلا صوت أو أثر للكلام، تماما كما حفظتُه مع روز بمخارج مختلفة متعثّرة لكنّها مؤثّرة.

أرى تلك الشّرفة البعيدة في ولاد الميمون والكثير من العصافير الّتي أزعجها اللّقلاق العجوز.

أرى بن عمر يجري نحوي بعد مدّة من الغياب، يمسك فردة حذائه البلاستيكيّ بيده اليمنى، وكرته المصنوعة من القماش البالي بيده اليسرى.

ارتمى عليّ وأنا جالس أنتظره، حتّى كاد أن يُسقطني، قبّلته كثيرا واحتضنته بذراعيّ طويلا...

الصّور تتلاحق تباعا، وحياتي تبدأ في ذهني الآن، إنّه الموت، تخميني لم يخيّبني يوما، كما لو أنّني وقعت في بئر عميقة وصدى ضحكات بن عمر يتبعني...

الفصل الأوّل

ما قبل الموت الأوّل

إذا كانت البدايات وحدها جميلة، دعنا نبدأ مجدّدًا، دعنا نبدأ مرارًا وتكرارًا، دعنا لا ننتهي أبدًا، دعنا لا نتوسّط ولا نتعمّق ولا نملّ فننتهي، دعنا نبدأ ثُمّ ننسى أنّنا بدأنا، ونعيد البداية، وننسى إلى اللّا نهاية.

دوستوفيسكي

كلّ شيء كان بسيطا وجميلا، الحياة هنا فقط، والعالم بعد ذلك عدم.

ضحكات الأطفال الصّغار وهم يلتفّون حول "الحضريّ" الّذي وصل اللّحظة دوّار ولاد الميمون...

إنّه يتعمّد جذب الأطفال بحلويّاته المتنوّعة، يعرف في قرارة نفسه أنّ الأطفال سيضغطون على أوليائهم من أجل اقتناء ما يحبّون.

تجمهروا حوله وقد أخرج الحنّاء والخرّوب، الألعاب البلاستيكيّة الصّغيرة، وحتّى الأمشاط والغاسول والصّابون، والعطور الفوّاحة...

كان حصانه أشهبَ ضعيف البنية، بشعر كثيف، يقرب من الحمرة، لكن تبدو عليه القوّة والأنفة، إنّه يبيع كلّ شيء على ظهره...

تقدّم رجل أربعينيّ من هناك، سرواله العريض وجسده المكوّر، ويداه العريضتان تلوّحان:

- يا مرحبا... يا مرحبا...سي غنّام، ما الجديد لديك؟

كانت الأصوات متداخلة مع بعضها، حين وصلت الجموع، كثرت الطّلبات والضّحكات، وحتّى الكلمات المفكّكة من معانيها، لا أحد يفهم الآخر، ماعدا ذاك الطّفل الّذي جلس وحيدا على صخرة هناك.

سعيد، وَلدٌ في الخامسة قمحيُّ الوجه بعينين غائرتين، منذ اختفاء والدته، وهو هكذا هائم على وجهه لا يكلّم أحدا.

الوحيد الواضح بشكل غريب وملفت، لا يكلّم أحدا ما عدا جدّته زينب، يراقب من بعيد ضوضاء الأطفال وهم يتشاورون، يختارون ألوانا معيّنة للحلوى، ويرفضون أخرى.

الحياة مختلفة، يكاد العالم يتوقّف هنا، ومن قال إنّ هؤلاء يعرفون غير هذا المكان، وهذا الرّجل البائع المتجوّل الّذي يحضر كالحلم، كالمطر بين الغيوم، إنّه قدر يهبط فجأة فيسعد الجميع دون استثناء، لذا سُمّيَ "الحضريّ".

سي غنّام، بعمامته الحمراء وعصاه المقوّسة، وأسنانه الّتي نخرها السّوس، يعرف الجميع هنا، حتى الأطفال الصّغار، والّذين يولدون كلّ شهر، حاله كما في القرى الأخرى إنّه ينقل الأخبار من هنا إلى هناك.

لا يعجز في إحصاء السّاكنين جميعهم، إنّه يتعمّد التّدقيق في كلّ شيء، وحتّى هؤلاء المعمّرون الّذين اختاروا ولاد الميمون لبناء منازلهم الفخمة، إنّه يعرفهم، ومن نظرة واحدة يفهم أسرارهم الّتي لا يحسنون إخفاءها

عنه، هو البدويّ الّذي علّمته قساوة العيش، كيف يروّض وحوش الغابات المجاورة، فتألف مروره مرّات ومرّات دون أن تؤذيه، هل هو جنّيّ من عالم آخر؟ لا أحد يدري.

استقرّ المعمّر جاك سنة 1910 في ولاد الميمون، اختار قطعة أرضيّة ترتفع قليلا، ليرى وادي مينا من منبعه، إلى أن يغيب عن القرية الصّغيرة في اتّجاه الغرب، أجمل منظر على الإطلاق، تلك اللّوحة الّتي رسمت حياة النّاس البسطاء في تلوّنها وانسيابها، من منبع بين هضبتين إلى طريق مخضرّ يفتن العقول.

بنى منزلا بحديقة كبيرة، صار مدهشا حقّا، شارك في بنائه الكادحون والفقراء الّذين اختارهم هو، كانوا في الحقول يحصدون سنابل القمح الذّهبية، يمسحون العرق على جباههم ويواصلون العمل، آملين في تغيير ما، في سياسة جديدة تأتي بها الأحزاب وجمعيّات عديدة، كجمعيّة العلماء المسلمين الّتي ذاع صيتها.

اكتمل البناء، وما تبقّى فقط بعض الرّتوش خارجه، يودّ تزيينه ورسم معالم حديقة تليق بجلساته، وتلك الكؤوس الّتي تُقرع على مرأى وادي مينا.

قصد الفلّاحين، اقترب من جلّول:

- بونجوغ ترجمها القايد، يقول صباح الخير

رفع جلّول رأسه وقد غطّاه العرق واحمرّ خدّاه لشدّة الحرّ.

- قل له ماذا يريد.

القايد يحملق فيه:

- نعم يا بوخنونة، هذا حديثك مع سيّدك؟

تابع جلّول عمله وهو يقول سيدي ربّي.

تحدّث جاك مع القايد، لكنّ جلوّل لم يفهم فرنسيّته.

- يريد منك العمل لديه.
- أنا أعمل لدى أخيه كما ترى.
- هو يريد رجلا قويّا مثلك.

غادر جاك والقايد دون أن يتلقّى ردّا من جلّول، لكنّ القايد كان يتوعّد ويسبّ ويشتم، كأنّه هو من تعرّض لهذه الإهانة وهذا الرّفض.

رفع جلّول رأسه يراقبهما وهما يغادران ويمسح العرق بيمناه.

كان يفكّر في أشياء كثيرة حدثت، أشياء غريبة عذّبت تفكيره، هنا أصدقاؤه الّذين قضى معهم طفولته ومراهقته، غادروا إلى غير رجعة، غادروا قسرا، وقد استدعتهم فرنسا للانخراط في الصّفوف الأماميّة أمام الألمان، خاضوا حربا لم يكن لهم فيها لا ناقة ولا جمل.

كأنّ هذه الحرب دقّت نواقيسها الواحد تلو الآخر، لترمي هؤلاء الشّباب بعيدا، وتجعلهم نسيا منسيّا.

- لماذا يختارني جاك لهذه المهمّة؟ أمّ أنّني الوحيد المتبقّي هنا؟ تبّا لهم.

كانت الشّمس قد التهبت أكثر وأكثر، رغم ملابسه البسيطة، لم يستطع التّحمّل فهوى على صخرة هناك، أخرج من "الشّوال" قارورة الماء، وصار يفرغها على رأسه، وهو في حيرة من أمره، وكيف يتصرّف، هذا الفرنسيّ المتعجرف لن يتركني في حالي، سيعود غدا.

صباح آخر من أيّام شهر جويليّة 1940، الشّمس فيه تتسلّل برفق، لتنتشر على هذه القرية الهادئة.

امرأة بحايك "المرمّى" تسير بخطى متعثّرة، تحاول الإفلات من شيء ما، تحاول إخفاء ملامحها، فتغطّي وجهها ويديها وهي تنظر يمينا ويسارا، الأتربة في كلّ مكان، لا طريق تسلكه دون الغوص في كومة من التّراب الأحمر.

اتّجهت يسارا وبعض الفلّاحين يرقبونها بنظراتهم، لكن لا أحد تعرّف عليها.

اختفت عن الأعين ولم يسمع سوى نباح الكلاب الّتي هاجت أكثر في هذه اللّحظات.

جلّول كعادته يحمل "الموزيط" على ظهره يسرع خطاه نحو حقول القمح الّتي يملكها قالا إنّه هناك رآه بقبّعته تبّا له من صباح.

- بونجور موسيو

لم يردّ قالا على تحيّته بل أشار إليه أن يقترب منه.

كان جلّول كمن أدرك لذكائه أنّ المعمّر سيكمل مهمّة أخيه، ربّما سيطرده إن رفض.

أشار قالا لأحد الفلّاحين يريد التّرجمة.

اقترب منهما خالد.

طلب منه ترجمة ما يلي:

- قل له أخي يريدك للعمل معه في بيته.

ردّ جلّول: أنا أحبّ الفلاحة.

ترجم خالد

فاستشاط ڤالا غاضبا، لا داعي للتّرجمة، يكفي هذا المنظر ليعرف جلّول أنّ الأمر قد قضي، من يريد رأيك أيّها المغفّل؟

من ينتظر منك الموافقة على أمر دُبّر بليل كما يقال.

ستعمل هناك وستكون خادما "خمّاسا" للمعمّر، ستضطرّ أن تصبّح وتمسّي على وجهٍ تكرهه، على شخص سرق منك أرضك، والديك، أهلك أصدقاءك...سرق حياتك ستكون مخلصا رغما عنك.

لكنّي أعمل لصالح أخيه لا فرق إذن، فأنا خادم في بلدي ... في قريتي...طأطأ رأسه وصمت...

قال خالد:

وافق هذا أفضل لنا جميعا، أعتقد فهمتني ستكون العين الّتي ... هل فهمت؟

جلّول في العشرين من عمره، إنّه يحيا بروح شيخ تخطّى السّتّين، منذ غادر الأحبّة، دون رجوع فقد كلّ شيء، لم تبق له سوى جدّته زينب، أتعبها الزّمن وأرهقتها المسؤوليّة وجلّول الحفيد، وسعيد ابن الضّاوية الغائبة.

نهار آخر مثقل بهمومه منذ إشراقة شمسه لم يستطع جلّول القيام من فراشه في هذا الرّكن الّذي غمرته الشّمس من كلّ جهة، فتلك التّشقّقات لا ترحم جسده النّحيل لا صيفا ولا شتاءً.

سعيد هناك مازال يتقلّب في فراشه، ربّما هو يحلم بأمّه، إنّه يناديها أثناء نومه، لا يذكر اسمها أبدا خلال النّهار كأنّه يكابر ولا يريد إظهار ضعفه أمام جدّته.

هذا الطّفل بعباءته الّتي تمزّقت أطرافها وشعره الكثيف الّذي غطّى عينيه الواسعتين، كانت سمرته بهاء حبّات القمح، تكوّر على يمينه كمن يبحث عن حضن في عزّ الشّتاء.

الحرارة خانقة هنا...

بينما الجدّة زينب في الغرفة الأخرى الّتي كانت على شكل مطبخ، هناك الكانون الّذي بدأت تشتعل ناره رويدا رويدا، وهي تنفخ عليها، وقد جلست أمامها متربّعة أمام صينيّة قديمة، عليها فناجين قهوة، تشقّقت جنباتها، وإبريق ألمنيوم، كأنّه قطعة أثرية من الزّمن القديم، غير كلّ هذا كانت رائحة القهوة وخبز الطّاجين تفوح منه وتملأ المكان.

- صباح الخير مّا زينب.
- صباح الخير ولدي، اليوم راك روطار-متأخّر-
- نعم استدعاني المعمّر جاك للعمل في بيته.
- ماذا تفعل لديه؟
- قال عمل في البناء أو في الحديقة.

كانت قد وضعت ملعقة من السّكر، وهي تحرّك فنجانه وتنظر إليه نظرات الاستغراب، كأنّها ترفض الأمر كلّه:

- اذهب يا ولدي أنار الله دربك.

قبّل جبينها، حمل "الموزيط" وقد وضعت فيه نصف خبزة من المطلوع والقليل من اللّبن.

- لا تنسي سعيد، لا تتركيه في الخارج، كثيرا من الوقت.

تحرّك النّار والعرق يتصبّب على وجهها:

- أوّاه يا بنيّ ما الفرق بين داخل الكوخ، وخارجه.

الطّريق إلى بيت المعمّر جاك جديد، وقد حاول تسهيله بجرّار جرّ معه كلّ الصّخور والأشواك، ليصير مسلكا سهلا للرّاحلين، وحتّى لمركبته الّتي جلبها إلى هذه القرية الّتي لا تعرف سوى التّنقّل على الحمير والبغال.

هنا كان يلعب إلى جانب محمّد، عليّ، عبد القادر، المهدي، عمر، كلّهم اقتادتهم فرنسا لتجنيد إجباريّ منذ جانفي لم يظهر عنهم أيّ خبر، ما أتعسني وهذه الوحدة الّتي أعيشها.

ليس مرعبا ما أعانيه جسديّا، وهذا العمل المضني الّذي يهدّني، بحصاد سنابل أرض أجدادي لهذا المعمّر القذر قالا، المرعب ما يحدث في عقلي من معارك بين الأفكار الخبيثة والصّالحة، صورهم مازالت تتلاحق تباعا، في ذاكرتي.

خبر وفاة عبد الحميد بن باديس جاء كالصّاعقة، وقد كان أملنا كبيرا في حدوث شيء جديد، الحرب في كلّ مكان، والجوع يهدّدنا والمدارس الحرّة قلّت إن لم نقل انتهت.

وهؤلاء الأنذال يعيشون بيننا، كأنّهم أصحاب أرض، ونحن العبيد، أريد أن أقرأ أريد أن أتعلّم، غير معقول أن أظلّ هكذا، الجهل، الفقر، المرض.

كان والدي يتمنّى أن أتعلّم وأتحدّث العربيّة، والفرنسيّة، وأنفض عنّي أتربة الجهل المتكلّسة في دماغي، لكنّ مصيري اختلف، ولم أنجز شيئا منذ وفاته في ذاك السّدّ اللّعين، والّذي أراه كلّ يوم شاهقا مزهوّا في أعالي الدّوّار، هناك استشهد والدي، غادرنا ولم يكن يريد ذلك، بعد أن سقط من أعلى جدار فيه، يا له من يوم مشؤوم.

كنت في العاشرة من عمري تقريبا، والدتي تعدّ لنا البركوكس في قصعة خشبية، بدا ساخنا والبخار يتطاير على جوانبها، لم أذق شيئا، انتظرته أمام الباب المهترئ.

عاد كلّ العمّال إلاّ هو، لم يعد، تأخّر كثيرا، وانتظرته قلقا، لكن عمّي عبد الرّحمان كان يسرع الخطى من هناك، في اتّجاهنا ووجهه أصفر، لا أنسى كيف نظر إليّ وبكى.

مسح رأسي وقال:

- أين جدّتك؟ أشرت إليه:
- بالدّاخل.
- جدّتي لم تتركه يكمل كلمة واحدة، بل صرخت وتلك الصّرخة مازالت في أذني.
- آ الحاجّة زينب صبّركم الله.
- رحم الله ال...

لم أكن أعي جيّدا أنّ الله يختار أبي ويأخذه إليه دون الجميع، كيف ترك كلّ هؤلاء واختار والدي أنا؟ هل يكرهني الله لهذا الحدّ؟

هل فعلت شيئا محرّما عاقبني عليه؟ هل فعلت جدّتي؟ أمّي...؟

لم تسأله جدّتي، كانت تبكي، وأنا أبكي معها بصوت عالٍ، وأمّي أيضا، وهو يشرح ويشرح، ولا أحد يسمع...

حين الموت، لا شيء يفيد بعد ذلك، ما فائدة أن تخبرنا كيف مات؟

ما فائدة أن تقول أنّه غادر وهو يتألّم، أو يبتسم، إنّه موت بالنّهاية، ورحيل إلى الأبد.

أذكر ذلك اليوم جيّدا 10 فيفري 1930.

الوداع يا جلّول، لا ندري إن كنّا سنلتقي أم لا؟

هذه الحياة التّعيسة الّتي تقاسمناها معا على ضفاف وادي مينا، كانت رغم كلّ ذلك جميلة، نُقاد كالنّعاج إلى ما وراء البحر، سنخرج من مشرع الصّفاء، سنخرج من تيارت، من الجزائر كلّها.

إنّنا ذاهبون لندافع عن أرض ليست لنا، ووطن هو وطن أعدائنا، وسنكون في الصّفوف الأولى يا صديقي، هل عرفت مأساتنا؟

سندافع عن فرنسا الّتي تذلّنا هنا، فرنسا العدوّة، الّتي اغتصبت أراضينا وشرّدتنا.

أجبرونا على الرّحيل، لكن أنت؟

أنت، هناك شيء يُدبّر لك، أنت الوحيد الّذي لم يُستدعَ، هل فكّرت في الأمر؟

عموما اهتمّ بنفسك، وفي الدّوّار، في كلّ شجرة، وحجرة جلسنا عليها يوما، ودخّنا تلك السّجائر اللّعينة، وتحدّثنا عن مراهقتنا، عن بلوغنا قبل الوقت، اهتمّ بأمّهاتنا وآبائنا وإخواننا ....

كون راجل يا جلّول... وحافظ على الدّوّار... كن رجلا...

كانت الجملة الأخيرة ل عليّ تتكرّر في دماغه، كون راجل يا جلّول ... كون راجل يا جلّول.

يا عليّ يا صديق العمر أيّ رجولة بقيت لي، وأنا صرت عاملا هنا، ومزارعا هناك؟

لا أدري لماذا يقرّبني منه هذا المعمّر الماكر؟

أيكون شاذّا مثلا؟

لو فكّر في شيء من هذا، سأذبحه وأوزّع لحمه على كلاب الدّوّار، وليقتلوني إذا شاؤوا.

لم يطل تساؤل جلّول كثيرا، حتّى بدأت الإجابة تلوح من هناك، أجل في اليوم الموالي، وكغير الصّباحات الأخرى المنتكسة، ظهرت له شمس أخرى، شمس بشريّة واقفة في شرفة البيت الّذي بُني حديثا، كانت تمسك بأعمدة الشّرفة المطليّة بلون ذهبيّ لمّاع وتنظر إليه.

لم تُدر رأسها لأيّ جهة، بدت كدمية، أو كجنّية لاحت فجأة،

الشّمس حارّة وهذه الشّمس باردة ومنعشة، توقّف عن حفر ما أمره جاك بحفره، تحضيرا لنقل شُجيرات للزّينة هنا، ونبّهه عدّة مرّات ألّا يفتح البلاستيك على جذورها فالوقت غير مناسب لنقلها دون حماية.

وجلّول يتأفّف من تكراره لهذا التّنبيه، هذا الغبيّ يظنّني مثله، أعرف في هذا المجال أفضل منك ومن أجدادك الأنجاس.

الحفر لم تكتمل، قضى ساعاتٍ ينظر إليها وهي متسمّرة في مكانها، ونسمات تراقص خصلات شعرها الأشقر.

ماذا أصابك يا جلّول؟ هذه ڤاورية وأنت عربيّ مغصوب الأرض، من سيهتمّ لمشاعرك؟ تبّا لها ولوالدها الّذي استدعاني للعمل هنا.

عاد وقد استغفر الله طويلا، يريد أن يحفر ويحفر، يضغط أكثر على الفأس يرفعه عاليّا ويهوي به بكلّ قوّته، لا يريد أن يعيد النّظر إليها...

لكنّ شيئا ما يحفر في قلبه أيضا، شيء يدغدغ مشاعره، يدفعه أن ينظر إليها ولو للمرّة الأخيرة، يرفع بصره عاليّا، ويده على جبينه تمسح العرق، لا شيء، اختفت.

روز rose

استيقظت باكرا، تشعر بحيويّة كبيرة منذ استقرارها في هذه القرية، المنزل منشرح ومفتوح على كلّ الأحلام.

استحمّت بسرعة، تناولت بعض البسكويت، حملت قارورة ماء وخرجت بفستان صيفيّ شفّاف، كانت تصبّ بعض القطرات على يديها، وأمام المنزل الّذي كان يطلّ على الحديقة وجدت والدها جاك:

- بونجور...صباح الخير بابا.
- بونجور أميرتي.
- ماهي مشاريعك اليوم؟
- نظرت إليه بوجه محمّر، وأشعّة الشّمس قد أضفت على شعرها بريقا ساحرا.
- أنت تعرف هههه ليس لديّ غيره.

وجرت نحو الحديقة، كانت الحفر جاهزة لنقل الشّجيرات، لكنّ جلّول تأخّر كثيرا اليوم.

مرّرت يدها على الفأس الموضوع جانبا وهي تدندن ألحانا فرنسيّة.

كان جلّول يسير ببطء وحين رآها توقّف تماما كمن تجمّد فجأة.

أكملت هي أغنيتها.

آه كم أتمنّى أن تتذكّري
الأيامَ السّعيدةَ الّتي كنّا فيها أصدقاء
في ذلك الوقتِ كانت الحياةُ أكثرَ جمالاً
والشّمسُ أكثرَ دفئا من اليوم
إنّهم يجمعون الأوراق الميّتة بالمجرفة
كما ترين لم أنسَ...
إنّهم يجمعون الأوراق الميّتة بالمجرفة
ويجمعون الذّكريات والنّدم...
ثمّ تحملها ريحُ الشّمال
إلى ليلةِ النّسيانِ الباردة

كما ترين لم أنسَ
الأغنية الّتي كنتِ تغنّين لي...

لم يفهمها، لكنّها ظلّت تنظر إليه ولم ترفع بصرها عنه.

وهو العربيّ المحتشم، بسرعة يستدرك الأمر، ويفتعل اللّامبالاة بل هو لا يصدّق ما يحدث أمامه.

هل هذه جنّية خرجت له، أم هي فتاة حقيقيّة؟

- بونجور... قالتها بدلال ورقّة أذابت روحه.
- بونجور مادموزال صباح الخير آنستي.

غير هذه التّحية لا يعرف من الفرنسيّة شيئا، وهي لا تعرف عن العربيّة غير اسمه.

- جلّول، نطقت اسمه أيضا.

ضحكت، نظرت إليه، اقتربت أكثر.

كان هو يتأمّلها لثوانٍ مسروقة، وهي تتصرّف كالملائكة أمامه، خجل من نفسه، من ملابسه، من منظره، من حالته تلك.

كيف له أن يفكّر بشيء كهذا؟ وهل هذه الفتاة تريد الإيقاع به لأجل غرض ما...؟

ربّما هي جاسوسة، وتبادر إلى ذهنه كلام عليّ، (جلّول كون راجل ...كن رجلا...

لماذا أنت فقط لم تستدعَ؟ اهتمّ بنفسك....)

حمل فأسه، طرد كلّ الأوهام من دماغه، غادر هذه المنطقة الملغومة بسحر هذه الفتاة الفرنسيّة، وهوى على آخر حفرة يجهّزها لغصن الياسمين.

زينب

بلباسها البالي، تحزّمت على وسطها لتبدو كامرأة في الأربعين، جسدها النّحيل وعيناها الدّقيقتان تفضحان أحزانها الدّفينة، إنّها وحيدة، فقدت ولدها إثر حادث السّدّ.

ثمّ بعد سنين لحقت به زوجته خديجة، كانت بصحّة جيّدة تعمل يدا بيد معها.

تنقل الماء على ظهر الحمار في براميل بلاستيكيّة، تطهو الطّعام إن وجد، تعجن خبز الكوشة (المخبزة)، تحطب أيضا لأجل الكانون، تطحن القمح في الطّاحونة الحجريّة بلا تأفّف، تديرها بقوّة وصلابة.

تفعل كلّ شيء، ولا تريد من الدّنيا سوى هذه الفرحة في عيون جلّول اليتيم، إلى أن شعرت بالتّعب ذات يوم، تحمّلت لأجل صغيرها، كان في الثّانية عشرة من عمره.

مشت معه في طريق الوادي المخضرّ، إلى النّبع لجلب الماء، كانت تشعر بالدّوخة من حين لآخر، تجلس لترتاح قليلا ثمّ تعود للسّير، طلب منها جلّول الصّعود على ظهر الحمار، لكنّها رفضت، طلبت منه هو الصّعود لمسك البراميل جيّدا.

نبع الماء العذب يتدفّق بسرعة، منه يسقي السّكّان وحتّى المعمّران جاك وڤالا، لم يقنعا بالنّبع الّذي يأتيهما من جنوب القرية، ها هما يستوليان أيضا على النّبع المقابل للوادي.

بصعوبة وصلت خديجة إلى الكوخ، كانت تئنّ لشدّة التّعب، ممّا تطلّب من الجدّة زينب وضع بعض قشور البصل على أنفها.

كانت ترتجف خوفا، فالموت يحوم هذه الأيّام ولا يخجل من بؤس هذه العائلة، والضّاوية هناك قريبة من والدتها، فالكوخ المقابل هو بيتها مع زوجها، وهي الآن لم تنجب رغم مرور سنتين على زواجها، لمحت خديجة متثاقلة في مشيتها فجرت نحو ها.

افترشت خديجة قطعة بالية من الأفرشة الصّوفيّة، وهي تارة تشكو البرد، وأخرى تشكو الحرارة، جلّول يجلس أمامها بقشّابيّته الّتي غزلتها جدّته، وأخاطتها بنفسها، لكنّها تبدو قصيرة نوعا ما.

إنّه يجثو على ركبتيه، يضع يدها في يده ويحضنها، يخاف أن تفعلها هي أيضا وتتركه وحيدا.

- مّا ... مّا أنت باردة جدّا.

راح ينفخ على يدها، لكن تلك النّفخات ليست كافية لتستعيد خديجة عافيتها أو تؤخّر الموت، كانت تحتضر ولا أحد علم بذلك.

جلست الضّاوية إلى جانبها تحاول التّحدّث إليها، لكنّ خديجة ثقلت أكثر، ولم تستطع حتّى التّركيز في الكلام.

اقترب منها أكثر، غاص جلّول في حضنها، ونام سعيدا، لم يكن وقت النّوم، لكنّ خديجة تحمّلت جسده على صدرها، ابتسمت، مسحت رأسه

بيدها الثّقيلة، وراحت تتدلّى، سلّمت الرّوح دون أن تزعج صغيرها أو تربك نومه، بكلّ سهولة رحلت، وتبعت رفيق دربها الّذي قضى هناك.

صرخت الضّاوية وهي ترى وجهها بصفاء شديد، وبرودة لوّنها الموت الغادر.

تذكر زينب ذلك، تذكر حين استفاق جلّول ووجدها باردة لا تتحرّك، كان كالثّور الهائج، يزبد ويضرب جدران الكوخ،

- مّا... مّا... أين أنت؟ أين رحلتِ وتركتِني؟

لا جواب الآن، كلّ شيء سار نحو النّهاية، نعم ستكون وحيدا يا جلّول، وحيدا في دنيا بائسة، تذيقك اليتم مرّة أخرى وهذه المرّة في قالب مختلف، أجل ستترك لك فرصة البكاء، البكاء الكثير.

زينب لم تستطع السّيطرة عليه، فهو المصدوم في والديه تباعا.

كان قد هام أيّاما في مدينة مشرع الصّفا القريبة، ثمّ عاد بعد أسبوع وقد فاحت رائحة العرق منه رغم برودة الجوّ، وجاع حتّى غارت عيناه، وصار بإمكانها عدّ ضلوعه.

زينب اليوم تتذكّر كلّ ذلك وتحمد الله أنّها رعته وربّته، ولو كانت أمّه حيّة ما اعتنت به كما تفعل هي.

إنّها وحيدة هي الأخرى، ثكلى تصارع الأيّام لتحمي اليتيمين، ليكبرا قليلا، ويعتمدا على نفسيهما في قرية مشلولة، مجهولة المستقبل.

تلك الأصص الفخّارية تشهد، أجل، طاجين الطّين والقدور، وحتّى الصّحون الّتي برعت فيها، كانت كافية لتعيلهما بها.

تتسرّب الأواني بين أصابعها، تدور وتدور، إنّها تنهرها أو تأمرها، أو تحدّثها إذا شاءت ذلك، لمسة حنونة منها، تجعلها تتشكّل وتتجسّد فرحا وإيجابية.

لها زبائن من كلّ مكان، يشترون بأثمان معقولة، إلى أن فقدت صحّتها، وصارت لا ترى جيّدا، ولا تسمع إلاّ بصعوبة، فلم يعد الفخّار شغفها كما كان، بل الصّمت فقط وأحاديث عميقة بينها وبين نفسها.

جلّول

توالت الأيّام، وهي تظهر له كالشّمس الباردة الّتي ألفها، تخترق عظامه فتدفئها وتقوّيها، إذا ما أهلكها العمل المضني.

قد أدمن وجودها هناك وزالت كلّ شكوكه حول أنّها جاسوسة، تراقبه لترى إن كان منخرطا في حزب ما.

اقتربت منه ذات يوم، تجرّأت وفعلتها، حاولت معرفة إن كان يحسن الكتابة والقراءة.

لم يفهمها، لكنّها اقتربت أكثر، ودسّت بين يديه ورقة مطويّة، ثمّ تلاشت مرّة أخرى.

تلك الشّجيرات صارت تنمو بسرعة، وتطرح أوراقها الخضراء، إنّها الجهة من الحديقة الّتي تقابل شرفتها تماما، هل استطاعت هذه

الشّجيرات أن تتعايش مع مشاعره؟ أم ذاك بسبب تواجد جلّول بكثرة ليسقيها كلّ حين.

صار متيّما بهذه الفتاة الشّقراء، وعليه في هذا الخريف المتقلّب أن يبحث عن مخرج لأزمته العاطفيّة، إنّها أزمة حقيقيّة، ليته تعلّق بإحدى بنات الدّوّار، كان أهون وأرحم، إنّها ڤاوريّة، فرنسيّة وهذا خطير جدّا.

كون راجل يا جلّول... كن رجلا...إيّاك والغلط!

دسّ الورقة في جيبه المهترئ، وراح يكمل عمله بسرعة البرق، ويفكّر إلى من يتّجه، وكلّ أصدقائه غادروا، إنّهم الآن، يخوضون الحرب مع فرنسا، وأنت هنا تتبادل رسائل الغرام مع الرّومية، فهل هذه هي الرّجولة؟ وماذا أفعل لهذا القلب؟ أيّها الحبّ بماذا تنصحني؟ هل أنا مخطئ بمشاعري؟

من سيقرأ له؟

سيذهب مساء لمدينة مشرع الصّفاء، ربّما يجد من يقرأ ما كتبت روز، لا يعرف إلى الآن هل تبادله هذه المشاعر، أم هي تتسلّى به؟ وتظنّه أحمقَ أو أخرقَ، لتمضي ساعاتٍ تراقبه من شرفتها.

ثمّ كيف لوالدها أن يراها أحيانا ولا يقول شيئا؟

قصد دكّان الحاج المختار، وهناك طلب من ابنه منصور قراءة الرّسالة.

اختليا في مكان هناك، بعيدا عن الأعين:

(صباح الخير جلّول، أريدك أن تتعلّم الفرنسيّة لتعلّمني العربيّة، لديّ رغبة في التّحدّث إليك، وجدّا... روز)

أغلق منصور الورقة وهو يبتسم بخبث.

التفت جلّول إلى يمينه ليتأكّد أنّهما مازالا وحدهما وقال بغضب:

- هذا ما هو مكتوب؟

ردّ منصور بسرعة وكأنّه يتشفّى:

- نعم هذا فقط.

ازداد غضب جلّول:

- أنت تكذب، تستفزّني وتستغلّ أمّيتي.

- وهل تنتظر منها شيئا آخر غير هذا؟ قال منصور مستهزئا

شعر جلّول بالخجل وراح العرق يغطّي كامل وجهه، استدرك الأمر قائلا:

- لا لا فقط هي رسالة قصيرة جدّا ... الجو حارّ هنا.

- كلمات قصيرة ولكنّ معانيها كبيرة، هي تطلب منك تعلّم الفرنسيّة، معناها هي تريدك وأعتقد هذه الفتاة تعشقك... ردّد بصوت خافت لا أدري ماذا عشقت فيك؟

- هات الورق ولا تتدخّل فيما لا يعنيك.

أراد الانصراف لكنّ منصور تحدّث إليه وهو يبتعد بخطواته:

- أنا أساعدك، يمكنني تعليمك الفرنسيّة، مقابل خدمة منك.

استدار جلّول وهو يقول:

- اطلب ما تشاء.

- ستعمل في مكاني في الدّكّان فقط.

- وأنت أين تذهب حينها؟

- لا تسأل. هذا ما أريده.

- موافق.

وجد نفسه يعمل ما يستطيع ليتواصل معها، قد شغلته إذن، إنّها تسكن روحه، ما ظنّ أنّه سيتعلّق بها هكذا؟

وهو العربيّ المسلم وهي المسيحيّة، ابنة العدوّ الّذي استوطن الأرض واغتصب كلّ شيء. أليس بسببهم نحن نعيش هذا البؤس؟

احتار بين عقله وروحه. هو يريدها ويكرهها في نفس الوقت، يريد أن يكون معها ويكره أن يراها ابنة جاك المعمّر القاسي القلب.

ماذا لو كانت تتلاعب بمشاعره؟

ماذا لو كانت تتسلّى، مادامت قد هجرت وطنها واستقرّت هنا لا ترى أحدا غيري وبعض العمّال؟ آه لا أعرف ماذا حصل معي؟

ثلاثة أشهر كانت كافية لتعلّم الفرنسيّة، وبعد جهد مضاعف منه، العمل بحديقة جاك صباحا، ومساءً سمح له بالذّهاب لتعلّم الفرنسيّة.

- يا له من رجل مهذّب متفهّم.

اقتربت منه روز أكثر، وصارت تحدّثه بالتّدريج، وتشرح له الأمور الغامضة، حتّى صار لسانه يتلاعب بالكلمات والألفاظ، ينطقها بطريقة سليمة.

- يتعلّمان معا، هذا ما قاله جاك لمرافقه.

هزّ الرّجل رأسه كأنّه يرفض الوضع، لكنّ جاك كان سعيدا وهو يرى ابنته تتحدّث إلى جلّول، وتمازحه بدلال الأنثى الجذّابة، وما يهمّ الآن غير سعادة وحيدته.

يراها فتشتعل في قلبه الذّكريات، تلك الأيّام الّتي قضاها إلى جانبها يرعاها ويخاف عليها من النّسيم العابر.

اختلى جلّول في كوخه، كان شهر ديسمبر1940 فكّر وفكّر، ربط الأحداث، اكتشف أنّ والدها يسهّل لها هذه العلاقة، ما السّرّ يا ترى؟

- ماذا وراء ذلك؟

وهل سيبقى كالمغفّل أم يبحث بنفسه؟

سهر ليلته يخطّط للإطاحة بهذا الحلم الّذي ارتفع به عاليا، كون راجل يا جلّول كن رجلا...نعم يا صديقي سأحاول ذلك.

مع خيوط الفجر قام من فراشه، توضّأ وصلّى ركعتين، ثمّ خرج والجوّ متجمّد حوله، كان يمشي فقط، يريد أن يرتاح أو يريح ضميره بعبارة ما، بفكرة ما.

لم يتوصّل لشيء، وادي مينا أمامه، يصدر صوتا عذبا رغم الجوّ البارد.

آه... ولمن أشكو همّي والكلّ غادرني؟

لمن أتحدّث، ألهذه الصّخور الباردة؟

إليك أيّها الوادي؟

إليك أتحدّث وأنت حافظ أسراري كلّها؟

بدأت خيوط النّور تظهر، وضباب كثيف غمر الكون.

عاد للكوخ، لم يوقظ جدّته، بل أشعل الحطب في الكانون، كانت العيدان الصّغيرة تلتهب وتأكل بعضها، لتتهاوى رمادا يتلاشى أسفل الكانون، تدفّأ وهو ينبش بعود جمرات البارحة، لعلّها تصحو فتتّقد من

جديد، لكنّها أبت ذلك، كانت أفكاره مشتّتة وتلك الفتاة لا تفارق خياله، قد سلبته تماما.

سعيد

طفل صامت حزين، طفل لا يلعب إلاّ قليلا، ولا يبتسم أبدا، طفل تتحايل جدّته عليه كي يعانقها ولا يفعل.

طفل لا يغادر الحائط الخارجيّ للكوخ المقابل لسدّ بخدّة، يحمل في أعماقه الكثير من التّساؤلات، وأوّلها سؤال كبير يوجّهه للسّماء، لأنّ جدّته نهرته ذات يوم:

- أيّتها السّماء أين يختفي النّاس الّذين نحبّهم؟ أقصد أين يتوجّهون بهذه الطّريقة المريبة؟ أين تختفي الأمّهات؟ أين أمّي؟ أين أبي؟

أسئلة كثيرة مؤلمة تدور في عقله، ولا يعرف الإجابة، الأطفال هنا يكابرون فقط، ويتحايلون على الحياة، ليسرقوا بعض الفرح، فما بالك أنت يا سعيد أدمنت وحدتك؟

أسرار كثيرة تتكاثر في هذه القرية، ولا أحد يعرف عن الآخر شيئا، المعمّر يزرع عيونه بينهم، ولا أمان لأحد، تحوّلات غريبة طرأت منذ غاب شباب القرية، كانوا يلهبون المكان صخبا، لهوا لعبا، كانوا الحياة وقد اختفت بعدهم.

الأطفال الصّغار، لا يعرفون شيئا عن هذه الغيابات المتكرّرة، عائلات في كلّ يوم تفقد فردا منها، ليس موتا وليس سفرا، وليس اختفاءً هكذا فقط، إنّه اختطاف أو ترحيل إجباري إلى أماكن مجهولة لا أحد يعرف عنها شيئا.

أمّ محمود تذرف الدّموع حين تتذكّر حضور جنود العدوّ الفرنسيّ تلك اللّيلة.

كان نائما مع إخوته قد تغطّوا بالحنبل المصنوع من الصّوف، بأيدي نسوة القرية، شتاء بارد في كلّ شيء، أجل أرعبونا وهم يفتحون الباب بأرجلهم ويقتادوه معهم حافيًا.

كان ينظر إليّ وأنا الّتي تجمّدت في مكاني، ودموعي إلى الآن لم تجفّ.

والد سعيد حدث معه نفس الشّيء. نعم اقتادوه في ليلة باردة ومعه زوجته الضّاوية.

الضّاوية لم تهرب يا سعيد، الضّاوية أهينت أمام زوجها، قد فعلوا فعلتهم الشّنعاء واقتادوا زوجها إلى غير رجعة.

الضّاوية اختفت عن الأعين خوفا من الفضيحة.

هنا يا ولدي كلّ شيء يصبّ على رأس المرأة، سيقولون كذا وكذا... لذا اختفت لتُسكت الأفواه النّابحة ولتحميك منهم ومن ألسنتهم، لا تستطيع الآن فهم شيء.

من سيخبر سعيدا بذلك؟ من يُطفئ النّار الّتي تحرق صدره شوقا إليها؟

وهل تلك المرأة الّتي تأتي خفية هي الضّاوية...؟ تراه تكتحل بوجهه ثمّ تعود أدراجها.

نعم يا سعيد، أنت طفل ولن تفهم هذه الأمور جيّدا، لن تفهم أن تكون ملطّخا بعار ما وتظهر لهم هكذا، يستقبلونك أمامهم فقط، لكن بعد مغادرتك بلحظات ستتوالى الطّعنات على ظهرك، لن يرحموا الضّاوية أبدا.

الأمومة فيها تحرقها كلّ يوم، لكنّها تتحمّل لأجلك، لأجل أن تكبر رجلا دون عقد، أو مشاكل معهم، الرّحيل القسري لوالدك، لا أحد يعرف عنه شيئا.

العائلة الصّغيرة تتشتّت فجأة دون إنذار وأنت تدفع ثمن هذا كلّه.

جدّتك تتذكّر يوم ميلادك، ولدت بابتسامة جميلة رغم الفقر والعوز، بسرعة أسموك سعيد، كأنّهم يتوقّعون لك تلك السّعادة الّتي افتقدتها منذ ولدت، الأسماء لا تعني حياة الأشخاص في شيء، فكم من "وحيد" ليس وحيدا وكم من "فرح" حزين إلى الأبد.

أنت لا تعكس السّعادة بل أنت الشّقاء في طفولة أبناء القرية.

اشتعلت نيران الوحدة والأسى والأحزان، قلب هذا الطّفل يتعذّب في الخفاء، إنّه يعاني ويلات الأسئلة المبهمة، لا شيء يرضيه عن جدّته، ولا حتّى محاولاتها الفاشلة في احتضانه.

في صباح بارد قرّر البحث عنهما، ولمَ لا؟

بدأ رحلته من وادي مينا، قطع الوادي أوّلا متّجها شرقا نحو السّدّ، كانت برودة الماء تلسع قدميه وهو يتحمّل في سبيل لقائهما، حنينه لا

يحتمل وقد شعر بالبكاء لكنّه تمالك نفسه، فهو في بداية الطّريق وقد يطول الأمر، الخوف، البرد، هذا الأمل السّاطع أمامه.

تخطّى مياه الوادي بحذاء بلاستيكي أسود ممزّق، سرعان ما خلعه، نفض عنه خيوطا خضراء متعفّنة علقت برجليه الصّغيرتين، ثمّ ارتداهما وواصل السّير.

نحو الشّرق دائما، في اتّجاه الغابة الكثيفة، غابة توزّعت أشجارها العالية بين جهة الجنوب وجهة الشّمال، جهة الجنوب غابات لا تنتهي.

وسوست له أفكاره، أنّها الطّريق لوالدته، لربّما هي تسكن هناك في آخر هذه الغابة، كانت تحبّ الأشجار، تصنع من أغصانها أشكالا جميلة لشجيرات صغيرة، تزيّنها بأوراق بلاستيكيّة خضراء، أمّي تحبّني، لذلك هي تنتظرني بعيدا عن أعين البشر، تنتظرني لنغنّي معا، ونعجن سويّة خبزات صغيرات لي ولها، كما كنّا نفعل دائما، تنتظرني لأساعدها في إشعال الكانون، وجلب أعواد الحطب الهشّة، تقول دوما:

- الهشّة يا سعيد، هل سمعتني؟ الهشّة سريعة الاشتعال، أكثر من التّبن ومن الأوراق اليابسة.

أسرع بخطواتي الصّغيرة، وأجمع لها حتّى بعض قطع الأقمشة الّتي تحلّلت تحت التّربة، تمسكها وتضحك بعد أن تقبّلني على جبيني.

توغّل عميقا بين الأغصان المتشابكة، وكان المساء يجيء تدريجيّا، يغطّي الأضواء، ويحضن الغابة في صمت رهيب.

توقّف قليلا، بدأ الخوف يتسلّل إلى قلبه الصّغير، وفي كلّ مرّة يُطمئن نفسه، هذه اللّيلة سينام في حضن والدته، هي في انتظاره.

أظلم اللّيل واشتدّت حلكته، ومعه برودة تهزّ جسده هزّا، احتار ماذا يفعل، وقميصه ذو الثّقوب المرقّعة لم يعد يدفئُه، رجلاه ترتجفان رغم السّروال الأسود الّذي ربطه بخيط على سرّته، إنّه الآن خائف جدّا، لا يعرف إن كان سيتقدّم إلى الأمام، أو يعود إلى حيث جدّته وابن خاله جلّول.

تسمّر في مكانه، وشرع في بكاء ارتفع عاليّا مسحوبا بشهقات طفوليّة متقطّعة.

كارولين وسعيد

الصّباح الموالي، إنّه يوم 18 ديسمبر 1940

كانت دوريّة جيش المستعمر الفرنسيّ تتفقّد المكان، تسير وفق خطوات محسوبة ومنظّمة تمشّط أطراف الغابة.

لا جديد فيها، غير أنّ أحد الجنود ببزّته العسكرية الّتي تشبه الأشجار، استرعى انتباهه جسم صغير منكمش هناك، نادى بصوت عالٍ:

- سيّدي الضّابط...

وسرعان ما التفّ حوله الجنود، حملوه متجمّدا، إنّه طفل صغير غير معروف، لم يهتمّوا به كثيرا، فهو عربيّ، هكذا يبدو، وضعوه أمام المعمّر قالا، قلّبه فلم يتعرّف عليه، وضع رأسه على صدره ليجسّ نبضه، طلب منهم تركه معه ليسعفه، ويرى ماذا يفعل به.

كانت كارولين ضيفة هناك، فأخواها يعيشان بعيدا عن تيارت المدينة، وهي الّتي استقرّت بالمدينة تحديدا بحي بلاص كارنو مع زوجها مايك، عشر

سنوات من الزّواج، ولم ينجبا طفلا، كلّ الأدوية لم تنفع، تعيش الرّتابة والملل، إنّها ليست بخير.

في تلك الصّالة (القاعة) الواسعة والمؤثّثة بأفضل الدّيكورات لذاك الوقت، صالون من خشب شجر اللّوز الرّفيع، بمقاعد وثيرة، تتوسّطه مائدة نحاسيّة عليها مزهريّة فاخرة.

وأمام الباب طاولة بأرجل خشبية طويلة، وُضع عليها شمعدان عكس أشعّة باهتة من الخارج، لشمس خجولة.

إنّها جالسة هناك تطالع جريدة قديمة، وترمي بعض قطع الخشب في الكانون المزخرف، والّذي توسّط هذه الصّالة الواسعة، عليه لوحات متباينة، لأفراد العائلة ربّما.

جمعت شعرها إلى الخلف، مرتدية قميصا أبيض وتنّورة حمراء عريضة، أبرزت مفاتنها، رغم الكآبة الّتي تبدو على وجهها.

وضع ڤالا الطّفل أمامها، كأنّه يضع كيسا من الخرداوات، ودون أن ينظر إليها قال:

- خذي هو لك.

لم تقل كلمة واحدة، قلّبته وتلمّسته، كانت يداه باردتين ووجهه مزرقّ تعلوه صفرة الموت، تنفّسه بطيء وجسمه منكمش كقطّ خائف.

أرادت حضنه، لكنّها تراجعت:

- إنّه عربيّ؟

أجابها بصوت مرتجف:

- نعم

ردّت بسرعة وبشيء من الحذر:

- سأربّيه، لا يهمّني من يكون.

كان سعيد مغمى عليه، وربّما أهلكه الجوع أيضا، لم يستفق إلاّ وهو أمام الكانون، حرارة اللّهب تنعكس على وجهه حين نطق:

- مّا مّا مّا

أسرعت إليه كارولين، قدّمت له الطّعام وقبّلته.

إنّها القبلة الأولى الّتي تعرّفت من خلالها على رائحته، واستقرّت بأعماقها إلى الأبد.

رغم اندهاشه الشّديد، أقبل على الطّعام يتناوله وينظر إليها مرعوبا.

أكل بسرعة وعاد إلى الكانون كالقطّ الصّغير، حملته فلم يقل شيئا، كانت تربّت على رأسه وضعته في حمّام دافئ، بعد أن نزعت ملابسه وبدأت تفرغ عليه الماء وتقول:

- لا تخف صغيري... ne pleure pas mon bebe قد عدت لبيتك.

جفّفت جسمه وألبسته قميصا وسروالا يبدو أكبر قليلا:

- لويس، أنت في حضن أمّك لا تخف.

كان الطّفل سعيدا بالدّفء، واللّقمة الّتي ملأت بطنه، لم يفكّر في جدّته ولا في ابن خاله جلّول.

فقط قال مّا مّا ... لا أحد فهمه، عاد للنّوم أمام الكانون وكلّه أمل أن يلقى الضّاوية في يوم ما.

زينب

في ذاك المساء عاد جلّول منهكا، إنّه القلب العاشق والجسد الّذي لا يطاوعه، معركة تدور بين عقله وقلبه، كيف لا؟ وقد صار فرنسيّ اللّسان...

دخل الكوخ، ليجد جدّته تنتحب ووجهها أصفر.

- مساء الخير مّا... ماذا هناك؟ أنت مريضة؟
- لا يا ولدي، سعيد لم يعد منذ الصّباح، بحثت عنه في كلّ مكان.

جفّ ريقه، ابتلعه بصعوبة:

- كيف؟ أين ذهب؟
- يا ولدي أين أنت؟

وتتابعت صيحاتها الّتي جمعت حولها الجيران.

هؤلاء بحثوا ولم يجدوا له أثرا.

- ربّما جرفته مياه مينا، قال أحدهم.

ردّ آخر:

- يا له من فأل سيّء.
- ممكن ذهب للسّدّ ولم يعد، ننتظر للصّباح ونعيد البحث.

ارتعد جلّول في مكانه، كيف له أن يرتاح أو ينام، وسعيد ذلك الطّفل الحزين اليتيم لا يعرفون شيئا عنه؟

خرج يبحث، حمل معه "الكانكي" المصباح، واتّجه نحو الوادي، تبعه الجيران في تجمّع ضمّ معه بعض الأطفال، إنّهم يرتجفون خوفا، فوادي مينا يبتلع كلّ عام قربانه، سواء أكان ولدا أم بنتا.

قال أحدهم: رأيته يتّجه نحو الغابة.

- الغابة؟

لا يمكنه الذّهاب إلى هناك هو يخافها جدّا، لكنّ حدس جلّول مخطئ، طفل مثله يفكّر في الأشياء الّتي يخشاها، أكثر من الّتي يحبّها، إنّه يعكس الأمور تماما، ومن أدراكم أنّه بحث في كلّ مكان والغابة هي المكان الوحيد المتبقّي؟

بل كيف يعرفون أنّه يريد أمّه؟ يبحث عنها حتّى خفية عنهم؟

- لم يذهبوا باتّجاه الغابة، وإنّما ساروا باتّجاه الوادي، باتوا ليلتهم يبحثون ولا شيء عنه مطلقا.

لم يستطع جلّول في اليوم الموالي أي صباح 18 ديسمبر 1940 الذّهاب لعمله.

إنّه مرهق جدّا، ولم يطلبه المعمّر جاك، فهو يعامله بلطف بالغ، كأنّه فرد من العائلة، انتهز الفرصة ونام قليلا، ليكمل رحلة بحثه مساءً.

لم تفوّت كارولين في ذاك المساء فرصتها الذّهبيّة، قد استغلّت سيّارتها الخاصّة ورحلت هي وصغيرها إلى مدينة تيارت، أين ستقيم حفلة كبيرة بمناسبة عودة طفلها لويس لبيته، حتّى ولو كان بشعر أسود، ووجه قمحيّ وعينين غائرتين.

آه منك يا سعيد! كيف تغادرنا وتفجع قلب جدّتك فيك؟

ماذا سنقول لوالدتك ووالدك إن عادا؟

هكذا كان يفكّر جلّول وقلبه ويرتعش خوفا عليه.

لم يره أحد وكأنّ الأرض ابتلعته، صحيح أنّ حالات الاختفاء كثيرة، لكنّها بين الأطفال نادرة جدّا، الكبار ربّما خطّطوا لها، أو كانت لهم ظروفهم الخاصّة، أو اختطفتهم أيادي العدوّ، لكنّ الصّغار لا، إنّهم لا يعرفون كيف يتصرّفون، لا يعرفون من أين تبدأ رحلة العذاب وأين تنتهي.

لم تنم الجدّة زينب ليلتها الثّانية، وكيف تنام والطّفل مفقود لا خبر عنه، أعياها التّفكير، وجلّول لم يظهر هو الآخر، هل تراها الضّاوية اختطفته، وهاجرت بعيدا؟

لكنّها لا تفجع قلبي فيه، تعرف كم أحبّه، تعرف أنّني سأموت بدونه.

يوم مشؤوم هو 18 ديسمبر هذا، يوم مقفر حزين، ولا شيء غير الحزن القادم من هناك.

وصل جلّول وقد تبلّلت ملابسه، كان يخفي دمعاته الّتي اختلطت بحبّات المطر، هل عليه أن يبكي أم لا؟

هل عليه أن يتجلّد بالصّبر ويتصنّع بعض القوّة، أم يستسلم أمام هذا الضّعف الّذي سيطر عليه؟ لم يستطع فعل شيء، إنّه اختبار الرّجولة الأوّل، لم يفلح، لم يستطع العثور على الطّفل المسكين الّذي اختفى في ظروف غامضة، كيف تقول يا عليّ أنّني هنا لأجل غرض ما؟

ها أنا أستسلم أمام اختفاء وحيد عمّتي، ها أنا أفشل في مهمّة صعبة هي البحث في الأماكن الوعرة، حتّى الغابة فتّشناها، ارتفع جبل "غزالة" بنا

شاهقا، ولم نتركه حتّى جبناه متعبين، مبلّلين بمطر رفض التّوقّف، دخلنا حتّى تلك الكهوف المخيفة ولا شيء عنه.

جلس أمام الكانون يرتجف، والجدّة خلفه تقول:

- يا ولدي! سعيد في حماية الله، والله سيرعاه، لا تخف، إن كان في العمر بقيّة، سيعيش ويعود إلينا سالما غانما، ما يعذّبني ماذا سنقول لوالدته لو عادت؟

كانت هذه الكلمات وراء ظهر القلب، إنّه الموقف الّذي لابدّ منه، أجل، الجزع عند المصيبة، مصيبة أخرى، ولا سبيل أن تفقد الاثنين معا.

عليها أن تصبر، وتزرع بعض الصّبر في قلب هذا اليتيم، هو بحاجة لهذه الكلمات، فقلبه سينفجر لا محالة.

هكذا هي المرأة الحكيمة الصّابرة، اقتربت منه أكثر وحضنت رأسه المبلّل وهي تبكي.

- يا ولدي خفّف على نفسك، لن نكون له أحنّ من الله عليه، ربّي يحميه إن شاء الله.

التفتت إلى فراشه هناك، كان ينام كأرنب صغير، في فراش يخفي تحته الكثير من الألعاب المصنوعة من القطع الخشبيّة، وأغطية قارورات المشروبات، وحتّى بعض البذور الجافّة لثمرة الخرّوب، مع هذه الأشياء يوجد مشط قديم تآكلت أسنانه، هو للضّاوية أكيد، فلم تفتّشه الجدّة سابقا، بكت وهي تجمع أشياءه وقد أدارت رأسها نحو الجدار الطّينيّ البارد.

مازال هيكل الدّرّاجة الهوائيّة، المصنوعة من أسلاك معدنيّة هناك في الزّاوية.

لم تكن لديه أيّة أحلام، فقط أراد حضن أمّه، ليتنا أخبرناه الحقيقة وأثلجنا صدره.

- هيّا يا ولدي..... التفتت لجلّول قائلة بصوت يائس:
- كل لقمة وغدا عد لعملك، وعلينا العوض فيما فقدنا.

صباح جديد بارد، لا شمس، لا مطر، ولا ضباب ولا أيّ شيء يدلّ على فصل الشّتاء، حتّى الرّياح توقّفت وهدأ الكون، دخّان الأكواخ يتصاعد بالتّدريج، والفلّاحون المتعبون، يتسارعون إلى أراضي المعمّرين، كلّ يحمل فأسه وبعض الزّاد يسدّ حاجة الجوع، في منتصف النّهار.

عاد جلّول لعمله، حزينا كئيبا، يجرّ نفسه جرّا، لا يريد أن يفعل شيئا بعد هذا الفقد المريع، لا يريد أن يسمع كلماتٍ، لا معسولة ولا مرّة، لا يريد أن يرى النّاس فيسألونه نفس السّؤال: هل وجدتَ سعيد؟ يا عيني عليكم عائلة تكاد تنقرض.

أين يكون المسكين؟ لو أنّ والدته معه ما حدث معه هذا؟

استغفر الله عدّة مرّات وحاول التّركيز في عمله، بدأت الشّجيرات تنتعش بهذه الأجواء، كأنّما لا تشعر بما يختلج بفؤاد جلّول، كأنّها خالفت الطّبيعة، يقولون أنّ النّباتات تحسّ بصاحبها، ما لها تنتعش هي وتذوي روحي رويدا رويدا؟

كلّ شيء كئيب، وحتّى روز لم يرها اليوم، لم تأتِ لتلقي تحيّة الصّباح كما كلّ يوم، انتظرها، لربّما تأخّرت في النّوم، لربّما هي غاضبة منّي، لربّما...لربّما...

في هذه الأثناء مرّت به الخادمة يمينة مسرعة، فهمت أنّه يبحث عنها بعينيه، أرادت أن تخبره بشيء ما، ولو بكلمات قصيرة، لكنّها تراجعت، فحالته لا تسمح بتلقّي هذا الخبر، الفواجع تأتيه تباعا، لتجثم على صدره دون سابق إنذار.

- صباح الخير مّا يمينة كيف حالك؟
- الحمد لله آ وليدي.

لم ترفع عينيها إليه، بل واصلت نفض الزّربية وهي تسرع في ذلك، هروبا من سؤاله.

أراد أن يسألها، لكنّه تراجع، ماذا سيقول لها؟ وهل ستصدّق أنّه سؤال بريء؟

ثمّ تراءت له فكرة خبيثة:

- مّا يمينة... أنا بحاجة للسّيد جاك هل هو موجود؟
- لا يا ولدي، البارحة خرج مع ابنته.

وقع هذا الجواب على قلبه ككتلة من الجمر، ابتلع ريقه وسألها مرّة أخرى:

- خيرا؟ ...

كانت هي هناك على الشّرفة أنهت نفض الأفرشة، تعمّدت تجاهل السّؤال الأخير.

- خيرا؟ لماذا سافرا؟

- لا لا لا شيء وأسرعت إلى الدّاخل.

بقي سؤاله الأخير بلا جوابٍ، وهكذا فرغت الأماكن، الوحدة تنهشه، غادر الجميع حتّى سعيد، حتّى روز، نعم لم يبق أحد ماعدا الجدّة وهي ستغادر لا محالة.

أكمل عمله مع المغيب، وعاد كما جاء يجرّ خيباته خلفه، سيقابل جدّته بنفس الوجه، بنفس الألم.

ها هو ديسمبر في أواخره، الفرنسيّون يزيّنون البيوت من أجل الاحتفال، تلك الشّجيرات الصّغيرة الملوّنة، الّتي تضيء قلوب الجميع ماعدا قلبه، ترتسم الكثير من الأحلام، والآمال على وجوه الرّوامة كما يناديهم أهل الدّوّار، وقلبه مقفر حزين وازداد حزنا ووجعا، لمّا رأى المعمّر جاك يعود وحده بدون روز، كان وجهه بلون التّراب، كمن شيّع حبيبا إلى مثواه الأخير.

لم يقل شيئا، كان جلّول ينظر إليه متعطّشا لكلمة واحدة منه، تحْييه أو تميته.

أين شمسي؟ أين شمسي؟

لا أحد يريد إخباره أنّ روز ترقد في المستشفى، لا أحد يجرؤ على ذلك، سوى هي نفسها.

نعم أتته رسالتها محكمة الغلق.

"جلّول يا روح الرّوح.

عليك أن تعرف أنّني أحببتك أوّلا وأخيرا، أحببتك قبل أن تراني أنت، فأنا قد رأيتك ذاك اليوم، كنت نورا وبهجة بالنّسبة إليّ، طلبت من أبي بعدها استخدامك لديه لأراك أمامي دائما، وأستمدّ منك كلّ تلك الطّاقة، وتلك الابتسامة الّتي لا تفارقك.

لا تتصوّر كم كان ذلك مفيدا لي، نعم وجودك أمامي كلّ يوم، يمنحني القوّة للمواجهة وللمحاربة.

والدي غنيّ وأنا لديّ مال كثير، لكنّ المرض هزمني، نعم، سرطان الدّم... جفّف روحي، عجّل بالخريف قبل أوانه، وأنا الّتي حلمت بربيع دائم معك.

أنا في المستشفى، أنا مريضة جدّا" روز

طوى الورقة وقلبه يخفق بشدّة، ماذا يفعل الآن؟

لقد تأكّد من مشاعرها تماما كما نبض قلبه بها، ماذا يفعل الآن وهو العربيّ البدويّ الخمّاس لدى والدها.

كان جاك يراقبه من خلال النّافذة، وهو يدور في مكانه، يحاول فهم الأمر، لم يتدخّل ربّما ينتظر منه الإقبال، وطلب المساعدة.

أسرع إليه:

- بونجوغ موسيو، أريد أن أسألك عن روز...

تهلّل وجه جاك وقد كان ذابلا حزينا، ربّما تغلّبت غريزة الأب، وفهم من لهفة الفتى أنّه عاشق، وهذا سيعجّل من شفائها، كيف لا؟ وهو الّذي يعرف خبايا الحبّ كلّه ومآسيه؟ أو هكذا هُيّئ له، أليس وفاؤه لذكرى زوجته الرّاحلة، دليلا على قوّة الحبّ وصلابته؟ لا يريد أن يغوص أكثر في ذكراها، لربّما لم يكن حبّا حقيقيّا، وإلّا لماذا ...

هل كان مريضا؟ لماذا فعل بها كلّ هذا؟ لماذا وصلا لذاك المصير؟

هذا الذّنب الّذي يلاحقه، ولم يشفَ منه، رغم اعترافه ملايين المرّات أمام القسّ في الكنيسة بتيارت.

جملة تبقى مبهمة، تعكّر مزاجه...

أو لا يفعل الحبّ الأفاعيل؟ ألا يشفي المريض ويداوي الجريح؟ ألا يعطي الكثير من الأحلام والآمال، في حين تكون الحياة دونه مقفرة؟

ليس من عادة جاك أن يحبّ العربيّ أو يقرّبه منه، لكنّ روز أحبّت الفتى وتعلّقت به، وكانت قويّة به طيلة هذه الأشهر.

وها هو ملهوف عليها، وقد تعلّم الفرنسيّة لأجلها.

- وي جلّول روز ستكون بخير لو زرتها.
- وهل يمكنني ذلك؟
- نعم يمكنك.

اتّفقا على موعد زيارتها، وكانت هذه الزّيارة هي الحدث الّذي سيعيش عليه أيّاما، بعد اختفاء سعيد وعدم ظهوره منذ أسبوع أسود.

روز

في المستشفى الكبير لولاية تيارت، ترقد هناك، جسد ممدّد، سيعاند الأيّام، ويتصدّى لكلّ هذه الهجمات المتتاليّة، مجرّد ذكرى صغيرة، كأغنية، أو كلمات هجينة لفرنسيّة جلّول تجعلها تبتسم، تجدّد بعض الخلايا فيها.

كلّ شيء صار بلون أصفر، وجهها، يداها، عيناها غائرتان، وحتّى شفتاها سُحب منهما اللّون الأحمر، كأنّها مومياء، إنّها تستعدّ لمغادرة الحياة.

خرج جاك وتركهما معا، فتحت عينيها، فرأته، كان جلّول مركّزا جدّا على وجهها، يتفحّصه وقد هاله ما يرى، جفّت فعلا في أيّام قليلة، كانت خيوط مثبّتة داخل أنفها وأخرى على ذراعها.

أكياس الدّم الواحد تلو الآخر، كأنّ جسدها يرميها في غياهب جبّ عميق.

حاولت الابتسام، حاولت الكتابة، لكنّه منعها، لم يستطع فعل شيء غير إمساك يدها، وحضنها بيديه الخشنتين، تنظر إليه بلطف بالغ، تحاول شكره على زيارتها.

الصّمت فقط ودقّات قلبه المتسارعة تحاول تفسير شيء ما.

دام الوضع أكثر من ساعة، وهما على هذا الحال، إلى أن ولج الغرفة والدها يريد توديعها.

خرجا معا، كان جلّول صامتا مذهولا لما رآه، يحدّث نفسه عن حظّه السّيّئ، وكيف له أن يتجاوز صدمتين في أسبوع واحد.

بعد أن غادرا المستشفى، كانت كارولين قد خلفتهما ومعها سعيد، أجل إنّها عمّتها ستزورها رفقة ابنها لويس هكذا قدّمته لها، بينما روز غارقة في أحلامها، في اللّحظات الّتي كانت تشبه الجنّة.

إنّه جلّول الحبيب الّذي شغفها منذ أوّل نظرة، يزورها وتكتحل عيناها برؤياه.

كان سعيد، شارد الذّهن وقد تغيّرت ملامحه، وكست وجهه حمرة طفيفة، يرتدي بذلة راقية جدّا، وحذاءً ما كان ليحلم به أبدا.

قد تغيّرت حياته، من فقر مدقع إلى غنى مترف، ولكن من يعرف بماذا يفكّر هذا الصّغير الحزين؟ من يعرف كمّ الأوجاع الّتي بات يكابدها شوقا لحضن أمّه.

- انظري روز هذا طفلي لويس.

كانت روز مندهشة لكلام عمّتها، هل جنّت أم ماذا؟

ومن هو هذا الطّفل المسكين الّذي اتّخذته ولدا لها؟

تصنّعت روز ابتسامة جاملتها بها قائلة بصعوبة:

- عمّتي من هذا الطّفل؟

- هذا بنيّ الضّائع عاد لبيته...ردّت كارولين بنبرة غاضبة

لم تعرها روز أيّ اهتمام، خاصّة وهي مرهقة جدّا وغير قادرة على الكلام، هزّت رأسها ببطء... وأغمضت عينيها لتنام، بينما كان سعيد يتفحّص أحد الزّوار وقد ظهرت جواربه من حذائه الّذي اهترأ ولم يبق منه شيء.

سعيد لويس

رفع خصلات شعره الأسود عن عينيه، كانت النّسائم باردة، ورغم بزوغ شمس ذات ديسمبر، سعيد جدّا بتحقيق حلمه، ها هو يركب الفرس لأوّل مرّة، وأمّه تراقبه بعيون المحبّة، لم يخطر بباله أن تتحقّق أحلامه بهذا الشّكل، وهو الطّفل الضّائع بين غابات مينا وبين قريته الّتي لا يعرف شيئا عنها.

تلك السّلسلة الذّهبية الّتي تزيّن عنقه لا يعرف معناها، لم يحاول ذلك، أو أنّه يتهرّب من معرفته.

إنّه يقرأ ويكتب الفرنسيّة بسلاسة، يقف احتراما لعلم فرنسا، ودائما هناك شيء غامض يحول بين سعادته وبينه، هناك امرأة تُدعى الضّاوية لم يستطع نسيانها، رغم مرور خمس سنوات، تلك كانت أمّه الّتي يهدأ في حضنها، وينام طويلا دون خوف أو قلق، وكارولين هذه أيضا أمّه هي تقول ذلك، وتلقّنه أجوبة لأسئلة مفترضة من هنا وهناك، تلك الأجوبة الّتي لم يقتنع بها، أو هو يختبئ حتّى لا يراها واقفة أمامه.

وجدّته ميمة زينب؟ وابن خاله جلّول؟ ووالده؟

ينهر الفرس برجليه، كأنّه فارس متمكّن، فتسرع به داخل مركز شاوشاوة، إنّها تسرع وقلب كارولين المراقب تزداد دقّاته، تتوتّر أكثر، يقترب منها المدرّب.

- لا تخافي هي فرس هادئة، وابنك شجاع وقويّ. انظري كيف يتمسّك بالحبل، كيف يجلس باحترافيّة، ويضحك...

كانت كارولين متعلّقة جدّا بابنها، كيف لا؟ وهي منذ قدومه تغيّرت حياتها، توهّجت روحها وصار بيتها الجنّة الّتي حلمت بها، عائلة سعيدة، منّ الله عليها بالمال وزادها هذا الطّفل.

لم تفكّر يوما في قلب أمّه، أو عائلته، كيف هم الآن؟ كيف تتعذّب لفراقه؟

لم ترد تذكّر شيء، فهي فقط تكرّر دوما أنّه أفضل من تلك الملابس البالية، والجوع والمرض والبرد، رأته يقبل عليها مسرعا:

- رأيت يا أمّاه؟ رأيت كيف كنت؟
- حضنته وهي تقول برافو.

الجميع يشكّ بل متأكّد أنّ لويس ليس فرنسيّا، شعره الأسود، عيناه العسليّتان، بشرته القمحيّة وطول قامته، كلّها صفات بعيدة عن شكلها، هي الشّقراء بشعرها وعينيها وقصر قامتها، وزوجها أكثر من ذلك، أحمر اللّون بعينين زرقاوين فكيف ينجبان طفلا بهذه الصّفات؟

لم تكن تهتمّ بكلامهم، ولا بشكوكهم، النّاس هكذا ينتقدون دوما، هكذا تجيبه، حينما يسألها.

عادا راجلين، النّاس في المدينة قليلون جدّا وعربات تروح وتجيء، وبعض السّيّارات الّتي تمرّ قربهما، كانت تضع يدها في يده ويسيران ببطء، يستمتعان بمناظر تيارت.

الحديث عن نهاية الحرب العالميّة الثّانية لا ينتهي، لا تنتهي معه هذه المآسي:

- ماما لماذا لا نعود إلى فرنسا؟ أريد رؤيتها.
- وهذه أيضا بلادنا يا ولدي أنا وجدّاي وأنت أيضا.
- جدّتي زينب ولدت هنا؟

امتعض وجهها، كأنّ حيّة لسعتها، انحنت إليه قليلا:

- مونفيس ولدي... زينب هذه في خيالك فقط، هي غير موجودة، هكذا علّمتك والضّاوية وجلّول أيضا.

وضعت يدها على رأسه، أحسّت أنّه لم ينس بعد هذه الأسماء، ومستحيل أن يفعل، لابدّ من اختراع قصّة جديدة، لتشبع هذه التّساؤلات.

- سأخبرك حينما نصل البيت.

مرّت قربهما سيّدة ملتحفة تمسك طفلا يرتدي القشّابية:

- ماما انظري أنا ببدلة جميلة، وأنت بفستانك تشبهين الفراشة، وهذه المرأة مختفية لا نرى منها سوى عينها اليسرى، وهذا الطّفل ملابسه لا تعجبني، إنّهما فقيران جدّا.

هل هما فرنسيّان؟

- لا... هما من دولة أخرى.

- يعملان هنا بفرنسا؟

- .....

جلّول

ربّما قدّر لجلّول أن يحبّ فتاة فرنسيّة، بل يفتن بها، وقدّر له أن يعرف بمرض بهذا الدّاء ولا يعرف مصيرها.

إنّه يأتي لعمله، الشّجيرات تكبر وتنتعش، وقلبه يذبل شيئا فشيئا مع روز، إنّها تصارع لأجل الحياة، ولأجله.

لم يزرها منذ أشهر وها قد حلّ الرّبيع وهي لم تعد، ولا عاد سعيد ولا شيء تغيّر.

غير أنّه هذا الصّباح تفاجأ بوجود امرأة تتبع خطواته، إنّها تلك الّتي تزور القرية من حين لآخر، ماذا تريد منه يا ترى؟

استوقفته بحذر، نزعت العجار عن وجهها، إنّها عمّته الضّاوية، كانت عيناها متورّمتين لشدّة البكاء، ووجهها يبدو ككتلة حمراء موحّدة.

فهم سريعا أنّها متأثّرة باختفاء سعيد.

- وليدي يا جلّول أين هو؟ ماذا حصل له؟

فتحت الجرح من جديد، وقد غلبته الدّموع، وهو يمسحها ولا يعرف الجواب.

- سعيد صغير، لا يستطيع الاعتماد على نفسه، ولدي ضاع ولدي ضاع...

- لا لا لا تخافي... قلبي يقول أنّه بخير.

عانقت جلّول بحرارة وأنفاسها متقطّعة، ثمّ وضعت عجارها وسلكت طريق الواد في اتّجاه الغرب، خطواتها السّريعة تظهر كم هي متوتّرة، كأنّما تهرب من عذاب يلاحقها، عجيب أمرها، أين تعيش؟ ولماذا تختفي؟ وهي البريئة من كلّ ما نعته بها هؤلاء الغجر.

قطعت يمينة عليه خلوته:

- روز حُملت على جناح السّرعة لفرنسا. هي مريضة في حالة حرجة.

يا له من خبر وقع عليه كالصّاعقة.

- فرنسا؟

إذن انتهى كلّ شيء، أخذت قلبي معها ورحلت، هكذا انتهت حكايتنا قبل أن تولد.

ها هي الأيّام تمرّ، ولا خبر عن روز ولا عن سعيد، إنّه يعمل في نفس المكان، قد طالت الشّجيرات، وصارت أكبر وأكبر، كلّ شيء تغيّر هنا، انتهت

الحرب العالميّة الثّانية، هكذا يقولون، يسمع المعمّر جاك يقول ذلك، يتحدّث عن كلّ شيء إلاّ عنها، روز كيف هي؟ ماذا تصنع؟

أمّ كلثوم تصدح بأغنيتها "سلوا قلبي" وهو يسترجع تلك السّنوات، كمن يحفر في الماء، صور تغيب، يستحيل تمييز ألوانها، وصور تبدو من بعيد، تهلّل وتترجّاه أن يخرجها لنور اللّحظة، أمّ كلثوم، وأغنية روز المفضّلة لمطربها جاك بريفر:

إنّهم يجمعون الأوراق الميّتة بالمجرفة
ويجمعون الذّكريات والنّدم...
ثمّ تحملها ريحُ الشّمال
إلى ليلةِ النّسيانِ الباردة
كما ترين لم أنسَ
الأغنية الّتي كنتِ تغنّين لي...

الأوراق كلّها تذكّره بها، هل ستموت هي الأخرى؟ كما أوراق الخريف؟ كما كلّ من أحببتهم وتمنّيت أن يبقيهم الله إلى جانبي؟ مسح دمعاته وأكمل ما كان يقوم به.

الجوّ دافئ يدفعه نحو الفرح دفعا، لكنّ القلب يأبى ذلك إنّه يفكّر بروز.

ربيع 1945

كان صباحا مختلفا، منذ شروق شمسه المتردّدة، تتراقص بين غيمات، تلوّنت بين الرّمادي والأسود، كأنّها ستمطر، كأنّها ستلامس الكون بيد ضبابيّة ساحرة، غير أنّها تتراجع، لتشرق فترات متقاربة، ثمّ تخفيها الغيوم مرّة أخرى.

قرية ولاد الميمون هادئة، الكلاب فيها تروح وتجيئ، تبحث عن رائحة غريب سيمرّ من هنا، لتسرع إليه، تكشّر عن أنيابها، تبرهن على أنّها حارسة أمينة.

منذ اختفاء سعيد لم تعد الضّاوية إلى هنا، غابت تماما عن القرية، وما يعيدها إليها وقلبها يحترق مليون مرّة، العجائز والأطفال، وبعض الفلّاحين الّذين تبدو على وجوههم قسوة العيش وظلم الحياة، ولاد الميمون تغيّرت، تغيّرت كثيرا.

لكنّ اليوم ستحدث المفاجأة الكبرى، من هناك، من ذاك الطّريق الغابي الغربيّ يُشاهدُ جماعة من الغرباء، يسرعون الخطى نحو القرية، إنّهم يرتدون ألبسة الجنود وليسوا فرنسيّين.

اقتربت خطواتهم أكثر وأكثر...

حتّى انقشع الغموض وتوضّحت ملامحهم، إنّهم هؤلاء، الّذين غادروا منذ سنوات، للحرب الّتي لا تعنيهم، لقد عادوا جميعا، يحملون همومهم على وجوههم، أجل إنّهم أصدقاء جلّول...

عليّ، قويدر، لشهب، حمّو، نور الدّين، بخدّة....

كلّهم ماعدا الجيلالي وقويدر، وخفق قلبه وتراجعت الفرحة في أعماقه... الجيلالي قويدر؟

لم يجب أحد منهم، كانت الرّجفة والكآبة الّتي غطّت المكان:

- قد استشهدا... قال عليٌّ
- هذا ما نخشاه، ماذا نقول لخالتي صفيّة وخالتي بختة؟

وخيّم الحزن من جديد على المجموعة الّتي لم تهنأ باللّقاء، كانت ملابسهم ممزّقة وأجسادهم نحيلة حتّى كادت عظام وجوههم تنطق الجوع.

استسمحوا جلّول وتفرّقوا إلى أكواخهم يتهرّبون من أسئلته ومن حزنهم وأساهم.

انتشر الخبر سريعا، فهبّت النساء يزغردن عاليّا، وكلّ أمّ تحضن فلذّة كبدها وتدخله إلى البيت.

إلاّ صفيّة وبختة، بقيتا متسمّرتين هناك، تنظران للوجوه، تتفرّسانها، غاب السّؤال وغابت الكلمات.

لكن، سرعان ما تفطّنت صفيّة أنّ ولدها قويدر قد استشهد حتما، وإلاّ فأين هو؟

زغردت معلنة شهادته، والدّموع تغسل وجهها، والألم يفتّت كبدها.

بختة لم تصدّق أنّ الجيلالي قد استشهد، كانت تصرخ وتطلب من صفيّة أن تصمت، فولدها سيأتي غدا أو بعد غد، أو ربّما سيأتي في يوم ما.

إنّها الأمّ حين يشتدّ وجعها، حين تتعقّد مشاعرها، حين الحبّ الكبير للوطن، وللابن، الولد الّذي استشهد دفاعا عن فرنسا المستعمرة.

لا لم يدافع عنها بل أجبر على ذلك، ولدي شهيد... ولدي شهيد... ولدي شهيد...

وبدأت تشقّ ملابسها، وتنتف شعرها، وتجرح خدّها بأظافرها، في مشهد أبكى الجميع.

قرابين مينا

استقرّ هنري قالا على رأي سديد، ماذا لو بنى مدرسة ولو بسقف من الزّنك، لهؤلاء الأطفال الّذين ركبهم الجهل واستوطن في أجسادهم المرض، ونخرهم الفقر؟

الفكرة تبدو جميلة، وقد وافقه أخوه جاك، وبدأت الأعمال تنجز لاستقبال هؤلاء الأطفال.

بعد أسبوع، هيّئت المدرسة المؤقّتة، وسجّل العديد من الأطفال لتعلّم الفرنسيّة، كان المعلّم "الحركي" بوذراع المعطي، هو أوّل معلّم يقف ملوّحا بعصاه أمام الأطفال الّذين تجمّعوا مبتهجين، في اعتقادهم أنّ هذه المدرسة ستخرّجهم أطبّاء ومهندسين.

دخل الأولاد والبنات، ملابسهم باليّة، وأجسادهم متّسخة، عيونهم السّوداء مركّزة على موسيو المعطي إنّها أوّل حصّة، كتب على السّبورة الّتي تهتزّ كلّما لامسها "الجزائر فرنسيّة"

وراح يشرح لهم تارة بالفرنسيّة وأخرى بالعربيّة، كيف أنّ فرنسا الأمّ توفّر لهم وسائل التّعليم، وربّما قصد هذه الأقسام الّتي بنيت بصفائح الزّنك، وسطحها لا يحمي لا من حرّ الصّيف، ولا من برد الشّتاء.

وأنهى حصّة الصّباح الأولى وكانت كلّها عبارة عن مواعظ وعبر، وحكايات حول حبّ فرنسا وتمجيدها، حصّة المساء كانت مختلفة تماما.

جون ميشال دخل القسم وهو يحمل سلاحه على ظهره ولباسه العسكريّ يضفي على جسده الكثير من الرّهبة، شعر الأطفال بالذّعر، فحاول جون ميشال تهدئتهم بعينيه الخضراوين، وابتسامته الأنيقة قال لهم:

- مساء الخير يا أطفال – بونجور

أنا جون ميشال جئت من فرنسا، لأعلّمكم اللّغة، القراءة والكتابة لا تخافوا هذا السّلاح للدّفاع عن النّفس فقط، خوفا من هجوم ما.

سنبدأ بتعلّم الحروف أوّلا، وكتب لهم الحرف (a) الألفا بي هي بداية الفرنسيّة وإذا تعلّمتم الحروف، ستتكلّمون الفرنسيّة مثلنا، ونستطيع نحن أن نتحدّث العربيّة أيضا.

نظر إليه الأطفال مستغربين ما يقول، هل يتعلّم الرّوميّ العربيّة؟

هم لا يصدّقون ذلك، إنّه يكذب لم يروا أحد الفرنسيّين يتكلّم العربيّة إلاّ قالا، كان يقول بعض الكلمات وكان نطقها يضحكهم الطّعام " الكسكسي" يقول (taam)

(Arwah) يعني تعال...

في هذه الحصّة المسائيّة الأولى حدث ما لم يخطر على بالهم أبدا.

هذا الخريف الّذي دخل جافّا بأتربته، انقلب فجأة، كانت الرّياح تزمجر بقوّة، تحاول اقتلاع ما فوق الأرض.

لم تسلم أشجار الصّنوبر العاليّة من مداعبتها الوقحة، ولا تلك الأكواخ الّتي بنيت بالدّيس والطّوب، هل ستتحمّل هذه الهزّات؟

كانت وجوه الأطفال معلّقة نحو السّطح، وهو يتمايل مُصدرا ضجيجا مخيفا.

لم يتمالك معلّمهم نفسه وألقى نظرة على الخارج، ريّاح وأتربة صحبتها قطرات غليظة من المطر، ثمّ تتالت القطرات، لتسمع لها صوتا على السّقف.

عاد المعلّم ببصره إلى هؤلاء الصّغار، والّذين جلّهم كانوا بلا أحذية، بلا ملابس كافيّة لتسترهم.

طلب منهم الانصراف، أغلق القاعة خلفهم، وقد انطلقوا متفرّقين، هاربين من تلك القطرات، إلى مصير مجهول، في أكواخ قد تسقط في أيّ لحظة.

كان كوخ العجوز العربيّ وزوجته العابدية، آخر الأكواخ في ولاد الميمون، إنّه في منحدر خطير للغاية، هما العجوزان اللّذان حرما من الأولاد، كلّ يوم ترى الشّيخ العربيّ يحمل متاعه على ظهره ويخرج للعمل في حقول المعمّر جاك.

أمّا العابدية بقامتها القصيرة، ولباسها المزركش وخمارها البرتقالي، وتلك الأوشام على جبينها، تقوم بأعمال البيت رغم كبر سنّها، تكنس الكوخ بعد رشّه بالماء، تفتح الباب وتجلس أمامه طيلة اليوم.

تتأمّل وادي مينا، تشكوه همّها، وربّما تحكي له بعض الأسرار الّتي لا تستطيع الإفصاح عنها، إلاّ له.

في تلك اللّيلة، سقطت الأمطار حتّى ارتوت الأرض، وما تبقّى انحدر نحو الوادي، كانت الأكواخ هشّة وضعيفة، أذابت الأمطار جدرانها وعرّت تلك العائلات الّتي لا حول لها ولا قوّة.

خرج الجميع في ذاك الظّلام الدّامس، يجمعون حولهم أولادهم، ويتمسّكون بالأشجار أو بأيّ شيء يحميهم من هذا الطّوفان الّذي غمرهم فجأة.

كلّ شيء يؤدّي إلى مينا، كأنّه غول يجذبهم إليه، يمتصّهم بعذوبة، وهم يلتصقون بالأشجار، وبعض الجدران الصّلبة، إنّها معركة لم تنتهِ، إلى أن بانت خيوط الفجر الأولى، وتفقّد النّاس بعضهم بعضا، وقد خفت صوت الأطفال، بل نقص وصار أنينا موجعا يمزّق الأكباد.

ليلة لا ينساها الأحياء، أمّا من قضوا فقد راحوا إلى جوار ربّهم، منتهين من حياة البؤس والحرمان.

الصّباح الّذي نفخ بعضا من الشّفقة والرّحمة على هؤلاء، عاد متثاقلا، كأنّه يعتذر عمّا بدر من ليل قاسٍ لا يرحم.

بدأت تظهر المآسي جيّدا، وشمس خفيفة سلّطت أشعّتها على الجميع، كلّ شيء تعرّى وكلّ شيء تغيّر.

الأحياء يحصون أمواتهم ومفقوديهم، غالبيّة الضّحايا أطفال، وشيوخ ضعاف الأجسام ونساء حوامل ومريضات.

الأكواخ أذابتها السّيول، وليس لديهم ما يخافون ضياعه غير فلذّات الكبد، وها هو وادي مينا أصبح منتشيا، وقد تغذّى من كلّ تلك الأجساد الّتي ابتلعها البارحة.

أجل لم يرحم صغيرهم ولا كبيرهم، قرابين وصلته تباعا، تصرخ هلعا وقد أدركت أنّه الموت لا محالة.

أطفال في عمر الزّهور، وُلدوا في مكان يشبه المقبرة، بل تعلوه المقبرة هناك، وأسفله الوادي، وشماله مرتفعات مخيفة ترهب النّاظر إليها، وتجعله يصاب بالدّوّار قبل وصولها.

ستدفن ولاد الميمون موتاها، ممّن وجدوهم على حواف وادي مينا، عمّي العربي وتلك العجوز الهادئة العابدية، كانا أوّل من جرفهما السّيل، ولم يُسمع لهما صراخ، كأنّهما استسلما لمصيرهما المحتوم. ماتا بهدوء، وقد وُجدا مزرقّين منتفخين، والجثّتان كأنّهما تعرّضتا للتّعذيب أو الضّرب.

كانت المقبرة هناك في أعلى القرية ممّا صعّب عملية الدّفن، خاصّة وهذا العدد الهائل من الضّحايا، ممّا دفع الأهالي أن يختاروا منطقة قريبة.

وتوالت الجنائز تباعا، من بينهم كانت الجدّة زينب، ها هو جلّول كالمجنون يبكيها، آخر من تبقّى من عائلته، تغادر بطريقة مزرية، ماذا تبقى لك الآن؟ ماذا تبقّى لك يا جلّول في هذه القرية البائسة؟

عاد النّاس والحزن يخيّم على الجميع، يبيتون ليلتهم في العراء أيضا، وربّما سيلجؤون لذلك القسم، فعلى الأقلّ سيحميهم من برد اشتدّ ليلا.

لكنّ القسم لا يسعهم جميعا، وذاك المتعجرف ڤالا وأخوه يعيشان في قصر، لا يشعران بما يحدث حولهما حتّى لو كان الموت.

مرّت شهور أخرى لوّنتها الأحزان، فشحّت الأرض بعد ذلك وقلّت مياه وادي مينا، وبدأت مياه تلك المنابع تجفّ الواحدة تلو الأخرى.

كان جلّول قد تناسى أحزانه قليلا، فتعلّم الكثير عن الفلاحة، ينظر إلى السّماء الّتي تتلوّن ولم تختلط غيومها البيضاء بسوادها، كأنّها تعاقب أشخاصا ما، أو كأنّها في عزوف عن إسعاد هؤلاء الفلّاحين البسطاء، والّذين هم قلّة من حافظوا على أراضيهم ولم يسلبها المستعمر منهم.

رفع رأسه وتراءت له روز مع أشعّة الشّمس الخفيفة، مبتسمة رغم تناقضها، ظهر له سعيد بعباءته البيضاء الباليّة وشعره الأسود الكثيف، ظهرت الجدّة زينب.

تنهّد تنهيدة عميقة، مالها الحياة تأخذ منّي الأغلى؟

جدّتي وسندي في الحياة، تغادر دون أن تكتحل عيناها برؤية سعيد، ولا حتّى بالضّاوية.

روز الّتي لا يعرف عنها شيئا منذ آخر رسالة، وسعيد الّذي اختفى وكأنّ الأرض ابتلعته.

يا لها من مآسٍ!

حتّى الأصدقاء تغيّروا كثيرا بعد عودتهم من تلك الحرب اللّعينة، بدأوا يهيمون خارج ولاد الميمون يبحثون عن مصدر للرّزق.

أنا أقابل هذه الأشجار وهذه الحديقة الّتي فقدت روحها منذ غياب شمسي وروحي.

هناك كانت جلستنا، وتحت هذه الصّفصافة علمتني نطق الكلمات الصّعبة.

أسمع ضحكتها الآن، أسمع همساتها الرّقيقة، وأودّ لو أراها للحظات، خمس سنوات مضت وأنا أدّعي اللّامبالاة، أدّعي القوّة وبداخلي روح مرهفة، تعلّقت بها ولم تستأذن في ذلك.

مسح العرق على وجهه.

كانت أخبار اليوم، في تلك الجريدة الّتي تركها جاك على مقعده الحجري تنبّئ بكوارث قادمة من هناك، المغرب يغرق في المجاعة بعد مشاكل اقتصاديّة، كما تقول الجريدة، لكن أعتقد

أنّ هؤلاء المستعمرين الأوغاد أوصلوهم لهذه المرحلة، وسيأتي دورنا لا محالة، فبوادر الجوع باتت تزحف نحونا.

ليس لي أحد هنا، سأهاجر لأيّ مكان، مادامت روز قد رحلت، فلا قيمة لي في هذه الحديقة؟

وضع الرّفش جانبا وهمّ بالخروج، قبل حتّى أن يتحدّث إلى الخادمة الجديدة.

لكنّ صوت محرّك قادم من بعيد، هزّ مسامعه، أوقفه مكانه، نعم سيّارة جديدة، اقتناها جاك، لم تكن فارغة تماما، كان يضع يده على جبينه ليغطّي أشعّة الشّمس، ويتفحّص القادمين... يا للمفاجأة!

إنّها روز نعم، ها هي تنزل من هناك.

وتسرع إليه كفرس بربريّة، في حضنه لا تقول شيئا، ثمّ تنهال عليه تقبّله بلا خجل.

لم يستطع دفعها أو احتضانها بقوّة، وهو البدويّ المتشبّع بالعادات والتّقاليد، لم يستطع فعل شيء، وقد اختلطت مشاعره بين الفرحة والخجل والجمود، إنّها هي نعم.

أمسك يديها وبدأ يتفحّصهما، قد كبرت قليلا لكنّها مازالت جميلة، بل فاتنة، عيونها وشعرها الأشقر، ابتسامتها الّتي تشعّ بأسنان ناصعة كالجواهر، وجسدها الّذي يتمايل كفراشة ربيع، وضعت قبّعتها جانبا، وراحت تجري بفستانها الملوّن القصير، والمشدود إلى خصرها، كانت تجري، بينما والدها يرقبها وقد غطّى وجهه الابتهاج.

جلسا هناك في تلك الزّاوية، لتتحقّق أحلام جلّول في رؤية روز مرّة أخرى، يتحدّثان وينظران إلى والدها، ثمّ يضحكان، ليعودا للحديث وهما متقاربان جدّا في المكان.

وكأنّ الفرح تسلّل منهما إلى باقي الأمكنة، أشعّة الشّمس برزت أكثر، وصفا الجوّ للعاشقين يرتشفان الحبّ مرّة أخرى بعفويّة غريبة.

من كان يظنّ أنّ جلّول البدويّ الّذي تشبّع بعادات العرب والمسلمين، ينجذب لفتاة مسيحيّة ويتعلّم لغتها بطلاقة، بل أبعد من ذلك إنّه يكتب قصّتهما الّتي ما زالت تحيا وتنمو...

سعدتْ بخربشاته:

- أنت كاتب؟ واو... تكتب أحسن من الفرنسيّين أنفسهم، وتضحك... سأجلب لك كتبا تطالعها.

- لا عليك، أنا أقرأ الجرائد والكتب الّتي تصادفني.

- إيّاك أن تحبّ هذه الكتب وتتركني، الفرنسيّة لغة الرّومانسيّة... وتعانقه.

عاد جلّول إلى ذلك الكوخ، نعم فيه ذكرياته وأحلامه، وبداياته، أحسّ أنّه وحيد، وحيد رغم فرحته اليوم بعودة روز، الوحدة تنخر روحه، كلّ شيء يذكّره بوالديه، بجدّته، بسعيد...يخاطب نفسه:

- لكنّك ابن هذا المكان، إيّاك أن تفكّر في أكثر من ذلك؟

إيّاك أن تتسلّق الأحلام البعيدة، إيّاك يا جلّول، إذا أردت فقط طالع وطالع، تعلّم اللّغة العربيّة وما المانع من ذلك؟

تذكر، قبل فترة قصيرة حين انتهت الحرب العالميّة الثّانية، وقرأت تلك الجريدة، كيف شعرت وهؤلاء يقتلون بني جلدتك بدم بارد؟

هل تظنّ أنّ أحداث 8 ماي كانت أحداث شغب كما قرأتها أنت؟

فرنسا تكتب ما تريد لك أن تعرفه فقط، يا جلّول، إنّه الجوع، المرض، الموت، ضاع الوطن وضاعت الأحلام.

تعكّر مزاجه، كيف أسعد بحبّ فتاة والدها مستعمر، يهين ويذلّ أهل بلدتي؟

الضّاوية

عاد مايك من عمله، كان النّهار قد قارب على الرّحيل، ليفسح المجال لليل بارد على مدينة تيارت.

السّجن يمتلئ أكثر بهؤلاء الّذين يتمرّدون، الّذين يحدثون هزّات قويّة في الشّارع.

لا يسكتون، عائلات معروفة لا تنجب غير المشاغبين، استقبله لويس، عانقه وقبّله.

اليوم مرّ متعبا جدّا.

اقترب من والده وهو يتلاعب بطرف قميصه، جاء السّؤال مفاجئا وغريبا بالنّسبة للأب:

- بابا هل تضرب النّاس في السّجن؟

توقّف الأب عن خلع ملابسه، نظر إليه مرّة أخرى:

- إنّه عملي بنيّ.

بدا الحزن عليه:

- هل يتألّمون؟

ابتسم الأب بآهة دفينة:

- لكنّهم يعرفون أنّهم سيعاقبون، ورغم ذلك يعيدون الأخطاء.

صمت الطّفل ثمّ نظر إليه:

- أيّ خطأ؟

ردّ الأب بحزم وقد تغيّر صوته:

- يتمرّدون على الدّولة الفرنسيّة.

لم يفكّر الطّفل طويلا لأنّه لم يفهم شيئا لكنّه سأل مرّة أخرى:

- من؟ العرب؟

ردّ الأب هذه المرّة بغضب:

- وي... نعم

تراجع للخلف حزينا:

- هل أنا منهم؟

ساد صمت بينهما، حتّى كأنّ الأب نسي السّؤال، فأعاد الولد سؤاله:

- بابا... هل أنا منهم؟

انتبه الأب للسّؤال الصّعب:

- لا... أنت ولدي، أنت فرنسيّ، أنا أبوك. وكارولين أمّك.

كان في عينيّ الطّفل مليون سؤال، لكنّه اختصرها في واحد فقط:

- والضّاوية؟ وزينب؟ وجلّول؟

اصطنع ضحكة فاترة وقال:

- هؤلاء في خيالك فقط، كلّ الأطفال يتخيّلون.

ويقوم الأب بعد هذا السّيل من الأسئلة، إنّها أسئلة لا تتوقّف من طفل في العاشرة من العمر، لا يريد أن ينسى شيئا من ماضيه القريب.

- إنّه لا يبدو سعيدا، ربّما أخطأنا في الاحتفاظ به.

تضغط كارولين على شفتيه:

- أشت لا تقل ذلك، إنّه ولدي ولدي أنا.

عادت الضّاوية ذات ليلة، فلم تجد أثرا لزينب، أو الجارات، ولا حتّى للأطفال الّذين ملأوا الحيّ بصراخهم، باتت الأكواخ فارغة من الحياة محطّمة، فارغة من كلّ شيء، حتّى من الهواء النّقي الّذي اعتادته هنا.

عادت حزينة وقفلت راجعة كما جاءت، تحمل هموم الدّنيا على ظهرها، فلا جلّول ولا سعيد، ولا أيّ أحد تعرفه في هذه القرية البائسة.

قد شاركت في مظاهرات 8 ماي 1945، كانت تهتف تارة، وتبكي تارة أخرى، لم يبق لها سوى الوطن، غاب الزّوج أو هُجّر بعيدا، واختفى صغيرها لا تعرف عنه شيئا.

بعد ليلة قضتها في السّجن، خرجت بجرح آخر، وهمّ أكبر من همومها جميعا.

لم يتركها مايك وهو الرّجل المتسلّط القاسي القلب، لقد ضربها حتّى كاد أن يكسر ضلوعها، ولمّا صمتت ولم تتكلّم، هجم عليها كالوحش، وافترس جسدها النّحيل، تطايرت خصلات شعرها الأسود، واحمرّ وجهها لشدّة الصّراخ، لا أحد ينقذ السّجينات من قبضته، إنّه ينتقم بطريقته الخاصّة، يترك لهنّ جرحا نازفا، وعارا يلاحقهنّ مدى الحياة.

عادت المسكينة في شهرها التّاسع، لنفس المكان، لذاك السّجن المظلم، لتخبر جلّادها أنّها حامل منه، وأنّها لم تفعل شيئا آخر مع رجل قطّ، نظر إليها، إلى بطنها، وطلب منها الانتظار.

ما دار بخلده أنّه محروم من الأطفال وهذه فرصته، ليحظى بأحدهم، لكنّه لا يستطيع أخذه منها ولا أخذها لبيته، المسيحيّة لا تسمح بأيّ حلّ من هذا، ثمّ هو لا يفكّر سوى في الطّفل، أعطاها بعض المال لتؤجّر بيتا، بعدها سيرى ماذا يفعل.

لم تكن الأمّ المسكينة لتفعل شيئا، وماذا عساها أن تفعل؟ وهذا قطعة من روحها ستسلّمه للعدوّ، أجل إنّها الفضيحة الّتي تلاحقها للمرّة الثّانية، لا يمكنها العودة إلى ولاد الميمون.

وهل ستحتفظ بالطّفل وهي مشرّدة؟ اختارت له حياة أخرى المهمّ أن يعيش بسلام.

دخل مايك على كارولين وهو يحمل الطّفل، نعم أنّه ولد، لم تسأله كثيرا، لم تبدِ أيّ استغراب، لكنّه راح يوضّح لها:

سجينة ولدته اليوم، هي لا تريده، يمكننا تبنّيه مثل لويس، فرحت، وبسرعة البرق راحت تحضّر غرفة له.

سعيد لويس

طالت أسئلتي وتعدّدت، كانت أمّي تقول أنّي مثل الببّغاء لا أصمت أبدا، ولم أعرف هل كان ذلك رائعا أم أنّها كانت تشتمني.

كارولين بقدر طيبتها، بقدر غضبها السّريع، وتذمّرها من الأشياء المملّة، لم تكن تحبّ التّكرار في شيء، حتّى في البيت، كانت لا تحتفظ بأثاث المنزل لوقت طويل، تقول دائما "نفس الأشياء تراها كلّ يوم تجلب الكآبة"

لكنّ وجه والدي ووجهي كانت تحبّهما، فهي حين تعانقني وتضع وجهي بين يديها، أشعر أنّني أمير صغير يتهيّأ لاستلام مملكته.

حتّى وأنا في العاشرة، هي تعاملني كما لو كنت رضيعا، تحضر لي كلّ أشيائي الّتي أطلبها، والّتي لا أطلبها.

أنا مدلّلها الوحيد، لكنّ اليوم تغيّر الحال، صارت أمّي أمّا لطفل آخر، تحسّ به أكثر، وتخاف عليه أكثر منّي، لقد فقدت مكانتي لديها شيئا فشيئا، أو هكذا تخيّلت.

هذا الرّضيع الّذي لا يكفّ عن البكاء، وتّرني وجعلني أفقد صوابي، أتعجّب لأمّي كيف لها كلّ هذه القوّة لتتحمّل؟

إنّها أمّ رائعة محبّة، وحنونة، لكن ليتها لم توافق على هذا الصّغير الّذي سيعيش معنا.

سمعتها تقول أنّها ستقيم حفلة ليلة الغد، وتدعو كلّ الأقارب احتفالا بأخي شارل الّذي جاء فجأة، سألتها وأنا أنتظر الجواب:

- أمّي! كيف وصل أخي إلينا؟ وهل أنجبته امرأة أخرى من العرب؟

سمعنا صوت تكسّر زجاج بالمطبخ، كان أبي هناك.

سألته أمّي عمّا تكسّر وهي تهدهد أخي في مهده، تلعثم وهو يجمع ما وقع منه:

- لا شيء... لا شيء...

أعتقد أنّ سؤالي كان كبيرا وخطيرا، جعله يتلعثم وجعلها تتفادى الإجابة عنه.

لكنّي ما زلت أذكر الضّاوية على كلّ حال، وهي الّتي التصقت بذاكرتي، وأعتقد أنّ كلّ امرأة عربيّة اسمها الضّاوية.

اقتربت منه وأنا أراقبه، كان يضرب برجليه ويديه عشوائيّا، وهي تنظّفه، يا للخجل!

إنّه يتبوّل أمامنا، ينظر محدّقا إلى الأعلى، وكأنّه يشرح شيئا غامضا تعسّر على فهمنا، ونحن نحيط به بمشاعر متناقضة، لا أحد منّا كان يخفي حبّه لهذا المخلوق لأوّل وهلة.

حينما يبكي بسرعة نقوم بإرضاعه، نحن لا نعرف ماذا يريد بالضّبط، حتّى لو أصابه مغص، أو ألم في جهة ما من جسده، فنحن نرضعه دائما، أفكّر في ورطته وأضحك.

- أمّي هل سيستمرّ والدي في جلب الأطفال إلينا هكذا؟ أراكِ سعيدة به.

أجابت متجاهلة الطّرف الأوّل من السّؤال:

- نعم انظر إنّه وسيم جدّا.

أجبتها بسرعة وأنا متلهّف لسماع ما أريد منها:

- هل، هل هو أجمل منّي؟

جذبتني إليها قبّلتني وقالت:

- لا... إنّه يشبهك قليلا، إنّه أخوك هكذا عليك أن تحبّه وتحميه، عانقتها وقلت:

- حاضر ماما.

انصرفت إلى غرفتي أتساءل "هل ستبقى العربيّات ينجبن الأطفال ويرمينهن لنا لنربّيهم ونعتني بهم؟"

كم هو ذنبك عظيم يا الضّاوية! تخلّيت عنّي، أو ليست الطّيور الّتي تربّيها الجدّة زينب تحضن أعشاشها إلى أن تفقس؟

لماذا هربتِ أنتِ؟ أكاد أجزم أنّك امرأة حقيرة وشرّيرة.

الأمّ الحقيقيّة تكون شمعة مضيئة لصغارها، تموت ليعيشوا وليس العكس، الأمّ تفرش جناحيها لتحمي صغارها، حتّى لو وقعت على قلبها كلّ الجمرات، الأمّ لا تبيع، إنّها تشتري فقط.

جلّـول

أقبل اللّيل كغول مارد، ينشر وحشيّته على الأماكن، يتسلّل باسطا سطوته على ولاد الميمون، يزيد عتمة حياتهم بهذا الظّلام المعربد بينهم،

الأكواخ الهادئة، إلاّ من هذه النّسائم الباردة الجافّة، لا مطر منذ أشهر، كأنّه الجفاف، هكذا استقرّ حالهم، ووادي مينا ستشحّ مياهه عن قريب.

وماذا عنك يا جلّول؟ كيف تستسلم جوارحك لهذا كلّه؟ كيف تخضع لسلطان قلبك؟

روز ليست لك، هي ابنة مستدمر غاشم، سلب أرضك وأرض أجدادك، وها هو يستخدمك كأجير لديه، وإن تطاولت أحلامك أكثر سيقتصّها من جذورها.

لا حبَّ هنا سينمو، لن تنمو في هذه القرية سوى المجاعة، أجل يبدو بيت الحاج اعمر فارغا من الطّعام.

أكبر كوخ في القرية، ويسمّى الدّار الكبيرة، بيت لا يغلق بابه في وجه المحتاج، أو عابر السبيل، ها هو الحاج اعمر يجلس على صخرة، وضعها خصّيصا لاستقبال ضيوفه، يرتدي برنوسه القديم، وعمامته الحمراء، ينبش بعصاه التّربة، ولا يرفع رأسه لأحد، كأنّه يفكّر في وسيلة يعيد بها بيته لحالته الأولى.

كلّ ما حدث، الجوع، مجازر 8 ماي، نهاية الحرب، الفيضانات، عودة الأصدقاء الّذين تفرّقوا، وكأنّ الغياب ابتلعهم من جديد، ولكن هذه المرّة برضاهم، اختفوا أو غادروا تباعا.

كلّ هذا ليس مثل خبر وفاة ابن باديس منذ سنوات، أجل كان الخبر كالصّاعقة الّتي نزلت علينا، كنّا نأمل فيه كثيرا، وننتظر وصول مدارسه إلينا، نحن الّذين اضطربنا وعشنا في فوضى، لا تعليم، لا عمل، لا حياة كريمة، ولا أيّ شيء.

لم تكن روز في حياتي سوى حبّ طائش، هكذا فكّرت، أو هكذا أقنعت نفسي، كنت في العشرين حين خفق لها قلبي، وفي تلك السّنة تلقّيت صدمتين، صدمة فقدان العلّامة، وصدمة خفقان القلب لفتاة مسيحيّة.

الّذي أوصاني أن أكون رجلا، غادر، وعائلتي كلّها اختفت، أنا أتجاوز الخامسة والعشرين، كلّ هؤلاء الشّباب الأصغر منّي تزوّجوا، أسّسوا عائلات صغيرة، صحيح أنّ الفقر غلب الجميع، لكنّ الزّواج لابدّ منه، كي تصير رجلا حقيقيّا لابدّ أن تتزوّج.

رمقني عمّي الطّاهر وهو يُخرج الحصان للمرعى:

- ماذا يا جلّول؟ تعلّمت حرفين أردت التّفرنس؟

ابتسمت محاولا إخفاء حزني:

- لا يا عمّي الطّاهر، نتعلّم لغتهم لنفهمهم فقط.

نظر إليّ والأسى في عينيه:

- سمعت بما حدث في سطيف وقالمة و ...

صمت ولم يكمل أسماء المدن، اقترب منّي أكثر بعد أن ربّت على ظهر الحصان:

- النّاس ماتت جماعات جماعات...

أجبته بسرعة:

- أششششت لا تكمل، رجاءً...

كنت أخشى عليه فبادرت أنا بالحديث بدلا عنه:

- على هذا نحن أيضا نتجهّز لمثل هذه الأمور.

رمقني بطرف عينه:

- أنا بعيد عن السّياسة.
- أعرف يا عمّي، هذه أرضنا لابدّ لنا من.....

صمت جلّول، أخرسه ظهورها، كانت هناك ومعها الشّمس الباردة تنثر حولها كلّ الأنوار، لا تريد أن تتخلّف عنها.

تأمّله الشّيخ الطّاهر طويلا وهو غارق في جمالها:

- أراك سكتَّ؟

حينما تشرق شمس الحبّ تخرس كلّ الأصوات الّتي تنعق من هنا وهناك، غاب كلّ شيء حوله، لا شيء غيرها، كيف كنت تفكّر البارحة وكيف صرت اليوم؟

وضع يديه على وجهه كمن يستدرك الأمر، كان الطّاهر قد غادر مع حصان المستعمر جاك، بينما جلّول يستقبل روز الّتي قدمت بابتسامتها.

أزاحت شعرها عن جبينها نظرت إليه قائلة بثقة وابتسامة خبيثة:

- هل ستذهب معنا غدا؟ لدينا حفلة في بيت عمّتي كارولين.

استفاق جلّول من سرحانه في بهائها، وردّ بعد أن أزاح عنها نظره:

- ومن يسمح لي بذلك؟

اقتربت منه أكثر:

- أبي.

هزّ رأسه يائسا:

- سنرى، لكن حفلة ماذا؟
- عمّتي تنجب للمرّة الثّانية. وتضحك مستهزئة.

استغرب الأمر:

- وهل هذا يضحك جدّا؟ ما الأمر؟

حاولت إخفاء ضحكاتها بيدها:

- لا لا لا لا فقط تذكّرت شيئا آخر، تعرف جلّول أنّني شفيت بفضلك أنت.

لم يحوّل عنها عينيه، لم يستطع التّأكّد من فعل ذلك، لكنّه قال بصوت خافت:

- وكيف ذلك؟ أنا لست طبيبا.

ضحكت مرّة أخرى قائلة:

- أنت طبيبي أنا.

يضحكان معا، هو بطريقة يحاول إخفاء مشاعره، وهذا الاعتراف الجريء منها

كادت تقترب منه، تفطّن لذلك وقد صمتت متنهّدة، أبعد جسده عنها، في محاولة لدرء الشّبهات، تعكّر مزاجها فجأة، وهي تراه يبتعد عنها، نظرت إليه:

- ما بك؟ لا تحبّني؟

رمقها بعينين بائستين:

- كلّ الّذين أحببتهم غادروا وحتّى أنت...
- لكنّني عدت...
- ومن يضمن لي بقاءك؟ أجابها وسار وحيدا.

الوحدة هنا كقرار خاطئ أصابني، لم أشارك في اتّخاذه، قدري اللّعين وظروف الحياة القاسيّة، ماتت الغاليّة زينب، فمن لي غيرها الآن؟

ما تخبّئه الحياة أمرّ وأسوأ، هكذا أفكّر دوما، هذا الكوخ سينهار في أيّ لحظة على رأسي، يقول هذا، وهو يرتشف قهوة من فنجان تشقّقت حواشيه، لم يبق من الأواني شيء، ما جرفه السّيل وما تكسّر منذ مدّة، هذا الكوخ بحاجة لتنظيف شامل.

يدرك جلّول، رغم أنّه صار يقرأ بكثرة، روز تأتيه بأيّ كتاب يريد، مؤخّرا تحصّل على مجموعة من كتب ألبير كامو، قرأ له الطّاعون، وقرأ مؤلّفات فيكتور هوجو.

قرأ الأدب الفرنسيّ بكثرة، هل يتعرّف على لغة عدوّه، لأجل محاربته أم لأجل حبّه الّذي يحاول إخفاءه دوما؟ هل لأجل فرنسا أم روز أم لكليهما؟

بدأت القرية الصّغيرة ولاد الميمون، تضيق بأحلامه الّتي نمت يوما عن يوم، كيف يتصرّف الآن؟ وماهي هذه الأحلام الّتي تكاثرت فجأة؟

صار شغوفا بالمطالعة، يودّ أن يتعلّم العربيّة، حتّى في هذا السّنّ لا بأس بذلك، صرّح لروز أنّه يودّ تعلّم العربيّة إن شاءت تتعلّمها معه.

روز لوالدها:

- بابا أودّ تعلّم العربيّة مع جلّول، ما رأيك؟

ضحك مسيو جاك حتّى ظهرت أضراسه المسوّسة:

- العربيّة؟ لغة هؤلاء العبيد؟ ماذا تفعلين بها؟
- يكفي أنّها لغة جلّول.

- جلّول جلّول جلّول سي فيني، عليك عيش حياتك بعيدا عنه وعن أيّ عربيّ.

- لا يمكن، أنا أحبّه، سأتزوّجه، هو أو لا أتزوّج أبدا.

- ويكون أحفادي من العرب؟ هل جننت؟

نظر إليها وكأنّه يودّ تعنيفها، لكنّه يتراجع، فهي مازالت معرّضة لعودة المرض، لا يريد أن يخسرها كما خسر والدتها سابقا.

السّرطان يتسلّل غير آبه بأحد، يفرغ رصاصاته ويمضي، الدّموع والأسى والألم والحزن لا يعنيه، اقترب من ابنته ضمّها إليه.

- أميرتي، امرحي معه، تسلّي لكن انسي أمر الزّواج.

لم تجبه، هي تعلم أنّ الأمر مرفوض تماما، وهذا ليس وقت مناقشته، المهمّ هو تحقيق الهدف الأساسي تعلّم العربيّة.

في الجانب الآخر من ولاد الميمون، وذاك قسم الّذي جُهّز بوسائل بسيطة، يستقبل من يريد تعلّم العربيّة، إنّه مدرّس متطوّع وتلاميذ يعاندون، ضغوطات كبيرة، يعني تعلّم ولكن إيّاك أن تتعلّم كثيرا، أو تفتي في السّياسة.

روز وجلّول أكبر التّلاميذ، زيادة على حروف العربيّة يتعلّمان شيئا من القرآن.

اعتقدت أنّها تتسلّى بكلّ هذا، لكنّ الحياة كانت ترسم لها طريقا نحو دخول التّاريخ بمزحة خفيفة.

تسلّلت آيات القرآن إلى قلبها فصمتت، صمتت وحدّقت بعينيها الخضراوتين إلى جلّول، إلى الأطفال، إلى الشّيخ الّذي أقعده المرض، ولم يفقد الإرادة في تعليمهم.

ارتجفت أوصالها، كفّت عن المزاح، أغمضت عينيها، واستسلمت لموجات روحيّة رفعتها عاليّا.

كان الشّيخ يقرأ سورة القيامة، خشع جلّول وصمت الصّغار، القرآن له حلاوته الّتي لا تقاوم، من يستطيع تجاوز هذا السّحر؟

الحياة هنا تبدأ من الصّفر، كلّ شيء بسيط، حتّى في التّعلّم، والاستماع لشيخ يبذل جهده في غرس قيم الدّين والعروبة في هذه الرّؤوس الصّغيرة.

وهما عائدان عبر الطّريق الضّيّق، على جانبيه أشجار العرعار، أغلبها غرسها جلّول، بعناية وبهمس متواصل، أنّها ستكون يوما ما أشجارا بديعة، ستحمل الكثير من أسراره وحكاياته.

- تعرف يا جلّول أحسست بسعادة غامرة وأنا أسمع القرآن، فيه كلمات ساحرة.
- نعم القرآن هو حياتنا، نطبّق ما جاء فيه كلّه.
- هل القرآن يجعلك تبتعد عنّي؟
- القرآن يُبعدنا عن العلاقة غير الشّرعية، عن الخمر، عن الكذب، عن القتل، عن أخذ حقوق النّاس، عن الاستعباد...
- أنت تقول أنّ القرآن ضدّ فرنسا؟
- القرآن عدالة، هو ضدّ الظّلم.
- هو يشبه الإنجيل، هل ترى أنّ فرنسا ظالمة؟

- انظري هذه الأراضي كلّها، أشار إلى حيث الضّياء، حيث الغابات، حيث الأراضي الفلاحيّة.
- هذه كلّها كانت أراضٍ لنا نحن. هي الآن لمن؟
- صمتت روز، وقد تغيّر لون وجهها.
- أجيبي.
- وصلنا البيت إلى الغد جلّول أمسية سعيدة.

روز

تركته هناك واقفا، كان بين نارين، يجترّ ما دار بينهما، خاف أن توسوس لها نفسها وتخبر والدها، فيطرده من العمل، أن يخبر العسكر عن أفكاره، إنّهم يئدون الأفكار قبل أن تولد، سيدفنونه حيّا، لو عرفوا ذلك.

طرقت الباب طرقات خفيفة، وقد استعادت مرحها من جديد، فتح والدها الباب

- بابا، أودّ زيارة قبر ماما.
- الآن؟ أنت مجنونة.
- لماذا؟
- تعرفين أنّها مدفونة في مرسيليا.

- لماذا لم تدفن هنا؟
- لأنّها ماتت هناك، تلك فرنسا وهنا فرنسا.
- هنا ليست فرنسا يا أبي، أنت تعرف ذلك.
- قالت هذه الكلمات، ودخلت غرفتها بعد أن تركته مشدوها، لما سمعه الآن.
- اقترب من غرفتها وقال بأعلى صوته:
- إنّها فرنسا رغما عنك وعن جلّول الفلّاح القذر.

إنّه الصّباح الّذي حمل معه يوما آخر لانتظار المطر، يوم مرعب جافّ.

صحا المستعمر جاك وقد تناسى غيضه ليلة البارحة، كانت أفكاره متضاربة حول روز ماذا سيفعل معها؟ وكيف سيتصرّف؟

- صباح الخير بابا، بونجور.

قبّلته وجلست أمامه تطلب قهوة مع حليب، وقطعة حلوى حضّرتها الخادمة الجديدة.

نظرت إليه:

- بابا، سنزور اليوم عمّتي كارولين، ماذا ألبس برأيك؟
- رمقها بابتسامة:
- أنت جميلة بأيّ لباس، كلّ الألوان تناسبك خاصّة الوردي إنّه لون حظّك.

ضحكت كطفلة صغيرة، قبّلته مرّة أخرى وأسرعت لغرفتها تنتقي فستانا وتحضّر نفسها للخروج.

في هذه الأثناء، حضر جلّول وقد تناول عدّته من أجل العمل، تكون نظرته الأولى الّتي يستفتح بها يومه نظرة إلى شرفتها هناك، لكن ها هو جاك يخرج ويتّجه نحوه، ارتعب جلّول لمنظره، لربّما أخبرته بكلّ شيء، وهو قادم ليرميه خارجا ويطلب العسكر:

- جلّول، دقيقة أون مينوت
- وي مون باترو حاضر تفضّل.
- روز ليست بحاجة لمحاضرات منك، احذر. أتونسيو.

استدار للخلف وسار بخطوات رتيبة، وكأنّه انتصر للتّو، في معركة لم يترك لعدوّه فرصة للدّفاع عن نفسه، كان هجوما مباغتا ثمّ انسحاب سريع، أليس هذا دليلا على ضعف حجّته؟ هكذا فكّر جلّول وقد فهم جيّدا رسالته هذه.

" أيّها القذر هل تعتقد أنّني سأخشاك؟"

خرجت ترتدي فستانا ورديّا، بربطة وسط خصرها بيضاء، وقبّعة شفّافة، مع حقيبة يد صغيرة سوداء، كانت هذه الألوان تشعّ حولها، وشعرها انسكب على كتفيها لتبدوَ كفراشة وُلدت للتّو.

قبل أن تلقي التّحيّة تراجعت ابتسامتها، وقد لاحظت وجه جلّول المصفرّ، تعلوه علامات الغضب الّتي تعرفها.

عقد حاجبيه، زمّ شفتيه، واتّسعت حدقتا عينيه الجميلتين، لم يبتسم لها، في رسالة مشفّرة أنّها السّبب في هذا كلّه، اقتربت منه:

- ما به الجميل؟
- لا شيء، ابتسم ببرود.

علمت أنّها لن تعرف شيئا منه، ووالدها يراقبهما غير بعيد يشغّل سيّارته.

هل تتوقّع يا جلّول أن تفرش لك الحياة بساطها بعد أن لامست الجرح؟ إنّه جرح الوطن، جرح الحياة، جرح الوجود، لن يتنازل هذا الوغد عن ظلمه وبطشه، حتّى وإن كانت روز بينكما.

- هيّا تعال معنا... وأمسكت يده.

لم يتزحزح وبقي ينظر لوالدها.

- ماذا؟ ماذا بينكما؟

- هيّا معنا لتيارت.

- بابا سيلتو يلي أريد أن يذهب معنا.

نظر جلّول لشكله، وملابسه، لم يكن بمظهر يليق بالسّفر. اعتذر إليها.

- لا....لا.... هيّا معنا.

- تعال يا جلّول، هيّا...

قالها جاك بطريقة توحي أنّها ثقيلة جدّا على لسانه، كمن يحفر الكلمات حفرا، كمن يتحايل على قاموس اللّغة ليستخرج منه ما يجب أن يقال، في هكذا مواقف.

ابتسامة مصطنعة ونظرات حقد فهمها كلّ طرف، فلمَ تخفي الأمور يا جاك؟

قطعت السّيّارة الطّويلة، المكشوفة السّقف ساعات، الطّريق ملتوية، تقطعها السّكّة الحديديّة، بعد تاقدمت وغابات كثيفة ومرتفعات، لم

تخلُ الطّريق من نكات روز وضحكاتها، كسرت حاجز ما كان يفكّر به الرّجلان، كلّ منهما يغوص في عالمه، في وطنه، في حاله الّذي آل إليه.

جاك الّذي تبع والده، فملّكه كلّ هذه الأراضي، لتصير العائلة غنيّة بين عشيّة وضحاها، خدم وفلاّحون ومنزل جديد وحياة الرّفاهيّة.

جلّول الّذي يعاني فقد كلّ شيء، الوالدين، الجدّة، سعيد، الأرض، وحتّى السّماء كانت تخنقه، لمّا يرى المعمّرين يختالون أمامه.

وصلوا تيارت، وأمام البيت توقّفت السّيارة، من النّافذة كانت الموسيقى والأصوات والأكواب الّتي تملأ بأغلى أنواع الخمور، الرّوائح وصلته، اخترقت أنفه، فزاره طيف الجدّة زينب:

"يا ولدي بعّد على الحرام إيّاك وحياة هؤلاء، بيننا وبينهم حدّ الله"

أراد النّزول والتّجوّل قليلا في شوارع المدينة، حاولت روز منعه لكنّه رفض، همس إليها:

- الخمر محرّم في القرآن يا روز وقد أخبرتك بذلك.

لم يبتعد كثيرا، عن البيت في طريق مؤدٍّ إلى الشّارع إلى اليمين، لمح امرأة تراقبه، بالتفاتات مرتبكة، كانت بالحايك، يكاد يعرفها.

- جلّول... جلّول...
- من؟ عمّتي الضّاوية؟
- واش راك لاباس؟ كيف حالك؟ قبّلته وحضنته باكية، كانت عينها اليسرى فقط تظهر.
- أينِ ...أنتِ اشتقت إليك عمّتي...عودي للبيت من فضلك.

- سأحاول
- ماذا تفعلين في هذا المكان؟
- كنت أراقب ذاك البيت... هل تعرف أصحابه؟

نظر إلى البيت مجيبا:

- نعم أخت جاك كارولين تسكن هنا.
- آه

لم يسمع منها غير الآه.

- ولمَ تراقبينه؟
- هي قصّة طويلة، أمسكت يده وقالت:
- استأجرت بيتا، تعال معي تراه.

غادر معها بلباسه الّذي رأى أنّه لم يكن لائقا أبدا، بدا باليّا، ممزّق الجوانب، أشياء منه تهتزّ لذلك.

لم تكن تلك الغرفة كافية لها، طلب منها جلّول الصّبر عليه قليلا ويستأجر لها بيتا آخر يمنحها بعض الكرامة.

بعيدا عن ذاك الحيّ الّذي يعجّ بالفرنسيّين اجتمع بعمّته، كانت نحيفة الجسم تحت عينيها زرقة التّعب والإرهاق، كالمجنونة كانت تتحدّث، وأخيرا بكت أجل بكت.

كنت في المظاهرات، كنت معهم، فعلنا ما كان يجب أن يكون، لديّ هنا صداقات كثيرة مع نسوة، لا يهمهنّ سوى تحسّن الأوضاع يا بنيّ، وأمسكت بيديه، الجزائر تسير للأسوأ هناك مجاعة ألا تعرف ذلك؟ هؤلاء لا يشعرون بنا، إنّهم يعيشون كالملوك، ونحن نتسوّل الخبز، تعالَ...

أخذته إلى أعلى الشّارع، كانت تلهث وهو يرافقها، يكاد يجزم أنّ عمّته فقدت عقلها، لكنّ ما تقوله صحيح، هو يعرفه، فقط لو تمهله دقائق.

- انظر هذا الطّابور، هؤلاء الجزائريّون جائعون يا جلّول، ينتظرون منّة فرنسا، يوزّعون عليهم المواد الغذائيّة بوصولات وبحساب... سكّر، قهوة، فرينة، حليب، طماطم...هل ترى كلّ هؤلاء؟

لم يصدّق ما يراه، أناس بثياب ممزّقة، أرجل حافيّة، وهناك من هو بلا ثياب تستره.

سكّان البادية يقتحمون المدن، لم يجدوا ما يسدّ جوعهم، قد انهارت الأخلاق يا ولدي مع الجوع، لا أحد الآن يفكّر سوى بقطعة خبز، دمعت عيناها مرّة أخرى.

الجوع كافر، إنّه يأمر وينهى الآن، وهؤلاء المساكين سيفعلون أيّ شيء لأجل لقمة العيش.

اهتزّت روحه كمن وقع في بحيرة ماء باردة، استفاق على معادلة صعبة.

إنّهم هناك يحتفلون، يقرعون الكؤوس، ويتمايلون، يتلذّذون بأشهى ما تراه العين من المأكولات، وقد لا يتناولون منها شيئا، لأنّهم في الأصل قد غادروا بيوتهم ممتلئي البطون.

هؤلاء وهؤلاء، بينهم سماء من الفوارق، سماء من الاختلافات، نجوع ويشبعون، نتعرّى ويلبسون، نحزن ويفرحون، نسهر وينامون، نمرض ويصحّون، نجهل ويتعلّمون، راح إلى بعيد جدّا.

في هذا اللّيل تتشابه الحكايات، يتشابه التّاريخ في كلّ شيء، هو يعيد نفسه بطريقة أكثر قساوة، إنّه يعيد نفس الموت ولكن بصمت وبهدوء، سنموت جميعا إمّا جوعا أو اغتيالا، أو قهرا ممّا نرى.

تربّى جدّه بلخادم وحيدا في المدينة، لم تكن الحياة معه سهلة رحيمة، فقد عايش عام التّيفيس سنة 1866.

كان مع والديه واخوته، يعيشون في البادية، يرتحلون من مكان لآخر، ومعهم الماشية الّتي ترمز للخير والمال الوفير، تغيّر الحال ذاك العام، وغضبت السّماء، فلم تمطر، ولم تمنح النّاس خيراتها.

الغيوم تتلبّد ثمّ ما تلبث أن تتلاشى، فتتلاشى معها الأحلام كلّها، أكثر من ثلاثين عاما على وجود فرنسا بالجزائر، وكأنّها دخلت بكلّ الأمراض والمجاعات، " فال شرّ من وجوه الشّرّ" هكذا كان يقول بن عمر والد جلّول.

جفّت الأرض فصار بلخادم يبيع الماشية، هي تتناقص يوما عن يوم، ولم يبقَ غير الحصان العربيّ الوحيد الّذي نملكه، تناقصت الأموال إلى أن انتهت تماما، بعد أن كنّا نبيع خروفا فنشتري ما نحتاج إليه، صرنا لا نجد من يشتري منّا ولا من يبيعنا.

باعت والدتي حليّها الفضّية وخلخالها ولم تترك شيئا.

توالت الأيّام هكذا، حتّى صرنا نتغذّى على الحشائش والأشواك اليابسة، وحتّى جذوع الأشجار.

بعض الجيران استفاقوا على صراخ طفلتهم الّتي وجدت أخاها يلتهم قطّة هزيلة، وهي حيّة.

وبعدها لم نعد ندهش لمناظر كهذه، أكلنا كلّ ما وجدناه أمامنا، حتّى انتهى كلّ شيء.

أخذنا والدي ودخلنا مدينة تيارت بالتّحديد في جوان 1867، نمنا على حافّة الشّارع، عظامنا كانت بارزة، ووجوهنا شاحبة صفراء، والدتي لم تتحدّث خلال الطّريق، وهي الحكيمة الّتي بثّت في أرواحنا الكثير من الأمل.

لم ننم تلك اللّيلة، فقد أقسم قمرها أن يسحب روح أمّي إليه، مدّدها أبي أمامنا فراحت تحدّق فينا بشفاه يابسة، وعيون دامعة، تأمّلتُ وجهها جيّدا، كان قد تغيّر كثيرا لم تعد أمّي الّتي أعرفها، أسنانها بارزة، وعظام فكّها تبدو كالمومياء، لم يتبقّ على وجهها سوى دمعاتها البرّاقة، وحرارة يدها لمّا لامست وجهي، ثمّ أغمضت عينيها.

انفجرتُ باكيا، رغما عنّي، أمسكني أبي وقال:

- سنبكي لاحقا. هيّا الآن.

لم يكن هناك متّسع للبكاء، لم يتركنا والدي نبكي أو نتألّم، أو نحضنها، طلب منّا نقلها سريعا لأقرب مكان خارج المدينة، الأشجار عاريّة والتّربة يابسة جدّا، فكيف سندفنها؟

حاولنا بما نستطيع من قوّة، حفر حفرة لنواري أمّي الثّرى ونسترها، لم نستطع الحفر، هل ستتركنا الحياة لننهي المهمّة؟

كلاّ أبدا، وقع أخي الصّغير امحمّد مغشيّا عليه، أسرعتُ إليه مرتعشا تعبا، رميت ذاك القضيب الحديديّ من يدي، واقتربت من أخي:

- أبي... أبي... أبي...

ناديت أبي، كان قد وضع أمّي تحت التّراب وعاد إليّ منهكا بخطوات بطيئة، وضع أخي في حجره وبدأ يتلو بعض سور القرآن، كان أخي يودّع الحياة، وأبي، والتّربة الّتي غطّت وجهه ظهرت دموعه تنزل حمراء بلون التّراب.

يحتضر أخي مبتسما، ربّما أسعده هذا الموت، أسعده أن يغادر رفقة الغالية ويُدفن إلى جوارها في قبرها.

نظراتُ والدي ودموعه أحزنتني، كانت متناقضة، شعرت أنّه يودّ أن أموت أنا وهو أيضا، لنُدفنَ، لنحضنَ بعضنا، ونموتُ كأيّ مخلوقاتٍ غريبة خارج حدود الحياة، حدود الوطن.

لكنّنا كنّا في وطننا، وكان ترابنا ومدينتنا، وباديتنا، قد متنا عدّة مرّات حين تركناها، حين دخلنا مدينة تيارت، حين ماتت أمّي ومات أخي، وحين تهاوى صرح والدي فوق أخي مباشرة.

لم يبق سواي... يا إلهي!

كانت معركتي مع الموت والحياة، حاولت تغطية والدي، لكن لم أستطع، خارت قواي، رحت أسحب جسدي نحو الدّاخل، إلى أن استفقت في مستشفى فرنسيّ.

رأيتُ رجلا يحمل خبزا بيد وصليبا باليد الأخرى، كنت جائعا جدّا أمسكت الخبز، ورحت أقبّله وأشمّه وأقضم منه، والصّليب بيدي، لا أعرف عنه شيئا.

هل أغروني به؟ نعم طلبوا منّي اعتناق المسيحيّة فوافقت فورا، لم أكن أعرف عنها شيئا، هل هي دين جديد أم شعوذة أم...هي كفر، لم أعرف فالجوع أعماني وأنا طفل مصدوم في عائلته.

كلّ أملي أن آكل فقط، ولو أنّي في البداية أردت الهرب، لأجل اللّحاق بعائلتي الّتي اعتقدت أنّها على قيد الحياة وما كان ذاك سوى الوهم، صرت مسيحيّا...

أخذونا إلى مدرسة في طرف المدينة جهة سيدي خالد، تطلّ على البنايات القرميدية والاخضرار الكثير، جمعوا كلّ اليتامى فيها، وكدّسوهم هناك، وصاروا يعلّموننا الإنجيل، لكنّنا تفطّنا لذلك، أكبرنا كان يدعى عمّور، شرح لنا كلّ ما يخصّ هذه العلامة وهذه الصّلوات، أخبرنا أنّه دينهم، غير الإسلام الّذي نسير على طريقه منذ ولدنا، قال يا جماعة مثّلوا فقط أنّكم تصلّون مثلهم، وسنجد طريقة للخروج من هذا الوضع.

سايرناهم إلى أن مرّت المجاعة، وسلمنا من داء التّفيس فهربنا، كلّ منّا إلى الجهة الّتي جاء منها.

تذكّر جلّول كلّ هذا، إنّه يتكرّر الآن بعد قرن تقريبا من الزّمن، وأنّى يكون لهم ذلك؟

عودة الضّاوية

الكوخ الّذي هجرته الحياة، تعود إليه الضّاوية وقد تجاوزت الأربعين، إنّها تتأمّله وتستعيد ذكرياتها ها هنا، هنا ترعرعت، وعاشت طفولتها البسيطة، هنا تحتفظ ذاكرتها بصور والدتها الّتي ربّتها ولا شيء عن الوالد، سوى صور قليلة مهرّبة من زمن الخيام المتنقّلة، وتلك الطّائرات الّتي كانت تحوم فوقهم.

إنّها الآن تقترب من الكهولة، امرأة طويلة القامة جميلة، رشيقة، كحليّة العينين، بيضاء البشرة، تبدو كملكة في مشيتها، والتفاتاتها العفويّة، لديها وشم أعلى الجبين، إنّها وحيدة والديها، بعد بن عمر والد جلّول الّذي يكبرها بعشر سنوات كاملة، الجدّة زينب لم تنجب غيرهما.

بن عمر لم يأتِ هكذا، فبعد زواج دام سنوات، لم تكن لتنعم بصوت صغير في حجرها، وزوجها بلخادم النّاجي الوحيد، من موت جماعيّ طال عائلته، كان في الثّانية عشرة حين شهد كلّ تلك المآسي، على مشارف مدينة تيارت، وكاد ينتصر لولا "العفريت" الطّفل الّذي هرّبهم من مدرسة الكنيسة، آه عليك يا أخي كم كانت الأيّام صعبة مريرة.

طاردتنا فيها المآسي، بينما كانت جلّ العائلات تنجب العديد من الأطفال، شُحّت سلالة بلحسين على إنجاب من يتوارثون هذا اللّقب.

صرنا نتناقص تدريجيّا، لم يبق منّا سوى أنا وأنت يا جلّول أمّا سعيد؟؟؟؟

تنهّدت مرّة أخرى، وهي تكابر للمرّة الألف، وإحساسها في كلّ مرّة يقودها نحو الحياة، السّماء الواسعة تخبرها أنّه بخير، فكيف تكذّب روحها والسّماء؟

غرفت القليل من العدس، وضعته أمام جلّول، إنّه سعيد به، رغم خلوّه من أيّ خضار أو لحم، إنّه يروح ويجيء بملعقته ويضحك:

- عُمْ يا من تريد العوم... هههه
- بنيّ جلّول، هذا الآن ما لدينا والحمد لله.

- الحمد لله أنّك عدتِ، لا داعي لوجودك في تيارت البائسة، وإن كنتُ وعدتك بتأجير بيت مناسب لكِ، غدا ننظّف هذا الكوخ ونصلّح النّوافذ، حملة مشتركة بيننا لتجديد الحياة داخله، ربّما يسقط المطر بعد أيّام.

- لا أعتقد، المطر غائب منذ مدّة ها نحن في بداية العام ولا شيء، الجفاف الّذي أحرق كلّ شيء، نوافذ الكوخ الّتي غطّتها بعض الأسلاك والبلاسيك الشّفّاف يمنع دخول الحشرات أو تسلّل الأفاعي، كانت بها بقايا الجدّة زينب، سبحتها، حجرة التّيمّم، وورقة كُتبت عليها آيات قرآنيّة، كانت تضعها تحت وسادة سعيد.

حملت هذه الأشياء قرّبتها من أنفها، أغمضت عينيها للحظات.

روائح الأحبّة ليست عادية، رغم الرّطوبة والتّعفّن، رغم ما أتلفته الشّمس الحارقة، وتلك الفيضانات، بقيت روائحهم هنا، الأشياء تحفظ الذّكريات بل تعلّقها وتمنحها بعض السّعادة.

أصبحت شمس فيفري 1946 باهتة، حائرة، أيّ الطّريقتين ستسلك؟ هل طريق هؤلاء الّذين يدعون الله ليل مساء كي يرحمهم، أم من أفرطوا في الظّلم وتجبّروا وزادوا في طغيانهم؟

خرج جلّول منتعشا بدفء الكوخ الّذي استعاده أخيرا، مارّا إلى عمله، يريد بعض التّفاؤل، بعد أن خبت نار المظاهرات، وتراجعت أصوات الّذين دعوا إلى الإدماج.

الصّفعة القويّة يحفظها جلّول، هو يقرأ ويطالع الجرائد، الجهل الّذي تعلّق عليه فرنسا آمالها هو تجاوزه.

لم يبق جلّول مع عمّته، جمعت أعراف المثنان صنعت منها مكنسة، رمت كلّ الخرداوات المتجمّعة في زوايا الكوخ، وضعت رماد الكانون في دلو بلاستيكيّ، ثمّ شرعت في رشّ الكوخ بالقليل من المياه، رشّات خفيفة متساوية على سطح الكوخ وأمامه في الخارج.

حملت المكنسة وراحت تكنس المكان، والأتربة رغم رشّها كانت تتطاير شظايا الغبار من هنا وهناك تخنق الأنفاس.

خارج الكوخ الأطفال بقشّابيّاتهم البنّية يلعبون ويمرحون، ظهر لها سعيد بينهم، ينظر إليها، بنظرات حاقدة غاضبة...رمت المكنسة وأسرعت إليهم تفتّش عن وجهه.

لا شيء يا الضّاوية لا شيء عودي إلى رشدك، لا وجه يشبهه غير وجه خاله، ولا نظرات غير نظراتها الحادّة.

تراجعت، رمت المكنسة وعادت إلى الكوخ، أغلقت الباب خلفها وبكت، كما بكته أوّل ما علمت باختفائه، إنّه قلب الأمّ، الجميع ينسى إلّاهي، الجميع يعود لحياته لا يفكّر في شيء إلاّ هي...

إنّ الغياب لديها يكبر مع الأيّام، ولا تعرف أين تنتهي بها هذه الهوّة العميقة، تبكي سعيد، وتبكي معه وليدها الّذي سلّمته بيد الذّلّ والهوان، سلّمته ليكون فرنسيّا رغما عنها.

مسحت دمعاتها، نزعت عنها وشاحها، وضعته جانبا... مازالت دقّات قلبها متسارعة، دبّت في جسدها موجة حزن غير عادية.

تركت كلّ شيء، وجلست كالمجنونة تحدّث نفسها، كانت أمامها مجموعة كبيرة من الكتب، تبدو عليها آثار أتربة خفيفة، لامستها بأناملها، تحاول فهم شيء، لكنّها أبدا لم تفهم بعد، ما يفكّر به ابن أخيها.

المدهش هنا كيف لشابّ يصارع الدّنيا بهمومه، يغرق في هذا العالم المثاليّ، كتب مولود فرعون-ألبير كامو-مجلّات الشّهاب – فيكتور هوجو... وكلّها بالفرنسية ماعدا المجلّة، كأنّه تعلّم العربيّة أيضا، تولّد لديها أمل طفيف، هذا الشّابّ لا ييأس أبدا.

- الضّاوية الضّاوية الضّاوية... كان الصّوت يقترب من الكوخ، مناديا بفزع

-نعم... أنا قادمة.

لبست ما يسترها وخرجت مسرعة، إنّه عبد الجبّار ابن الجيران:

- تطلبك خالتي تعالي بسرعة.
- ماذا هناك بنيّ؟
- ماما... ماما تولد... وأجهش بالبكاء.
- ولدت العام الماضي؟
- نعم ولدت هبة ويبكي.
- أنا قادمة.

ماذا تصنع الضّاوية يا ترى في موقف كهذا؟ وهي الّتي لم تجتز مرحلة النّفاس بعد؟

هي الّتي حملت رغما عنها، وسلّمت قطعة من روحها لمغتصبها، كأنّها تكافئه على فعلته، لكنّها الحياة الّتي تذلّني بهذا المرار، والصّدف الغريبة الّتي ستجبرني أيضا، أن أشهد ولادة طفل آخر... يا الله.

تلد خدّوجة طفلها السّابع، هي لا تعرف إن كان ذكرا أم أنثى، لكنّها ليست سعيدة، فلا وسائل منع الحمل تعرفها المنطقة، والحمل والولادة عائق

آخر للنّساء خاصّة في ظلّ الظّروف الاقتصادية المتدهورة، ماذا سيأكل هؤلاء الأطفال الصّغار؟

ووالدهم موقوف عن العمل، منذ عاد من فرنسا إثر تجنيده الإجباريّ، لم يجد عملا وها هو يهيم في القرى المجاورة، علّه يستطيع تأمين طعام صغاره.

- بالله عليك يا خدّوجة كيف تفعلين ذلك كلّ مرّة؟

وصلت مسرعة بخطى مرتبكة، الأكواخ لا تدقّ، فأبوابها من قصب حزم بشرائط الدّوم أو الحلفاء، تستطيع أن ترى ما بداخلها لو دقّقت النّظر جيّدا، الكحّة فقط هي من تعلم الآخر أنّ أحدهم أمام الباب.

كحّت الضّاوية ودخلت، بينما خديجة تحاول كتمان صراخها، والعرق يتقاطر على جبينها، والحاجّة مستورة تحثّها على الضّغط أكثر على أسفلها.

لمّا رأت خدّوجة الضّاوية، ارتاحت قليلا، وتراخت أعصابها المشدودة، كمن ترى نورا بعد ظلام.

- الضّاوية أوصيك بأولادي إذا متّ...

- لَهْ له يا خدّوجة، ماذا تقولين؟ أنت تعوّدت على ذلك كلّ مرة توصينني ولم تموتي هبه... ابتسمت خدّوجة قليلا:

- لكن هذه المرّة نهايتي.

- يا الله يا الله تشجّعي... هيّا، وتوقّفي عن قول التّفاهات، أرعبتِ أولادك.

شدّت الضّاوية يدها بقوّة، وبدأت تساعدها في الدّفع مرتبكة، كانت بطنها قد تكوّرت وتيبّست نحو الأعلى، بينما الحاجّة مستورة تنظر للأسف في ارتباك واضح.

- ابنتي زيدي زيدي اقترب من الخروج... هيّا... هيّا

صرخت وصرخت، لكنّها فشلت في الأخير، أبى الطّفل أن يخرج للنّور، أبى أن يرى الحياة التّعيسة الّتي تنتظره. لم تستطع، قالت:

- خلاص سأموت.... سأموت... يا ربّ يا ربّ

أغمضت عينيها فجفّت عروقها في ثوانٍ، كأنّما خلت بشرتها من الدّماء.

تترك الضّاوية يدها وتسرع تعرّي بين فخذيها، لترى المصيبة الّتي جعلت الحاجّة مستورة تتراجع للخلف.

- ماذا هناك خالتي؟
- الطّفل فارسي، مقلوب، هذه رجله.
- رجله؟
- دعيني أجرّب

أدخلت الضّاوية يدها، حاولت أن تفعل شيئا قبل أن تموت هذه المسكينة، بدأت تقلّب هذه الرّوح الصّغيرة داخل الرّحم، أدارت الرّجل إلى الجهة الأخرى، وسحبت الرّأس بيديها بسرعة، ساعدتها في ذلك السّوائل اللّزجة الّتي تدفّقت مع الدّماء.

سلّمت المولود لمستورة، وأسرعت لوجه خدّوجة تصفعها وتنفخ على وجهها، ثمّ عادت لتخرج ما علق في رحمها وتغلق فخذيها.

فتحت خدّوجة عينيها وتنفّست ببطء.

- إنّه ولد إنّه ولد.

لم تصدّق أنّها نجت من الموت، فميلاد طفل قد يكون بالمقابل نهاية حياة، وهي ليست مستعدّة أن تترك أطفالها السّتّة للضّياع، إنّهم برفقتها مهما قست الظّروف المعيشيّة، فسيكونون أقوى بحنانها وبحبّها لهم، ماذا لو ماتت وقد أضافت لهم يتيما آخر؟ يا الله...

- الضّاوية الضّاوية اقتربي منّي...

كانت تريدها إلى جانبها

- هذا سعيد خذيه ربّيه حطّي عينيك فيه، أعرف أنّ قلبك محروق على سعيد، ربّيه مثله تماما، ما رأيك؟

لم تصدّق الضّاوية ما تسمعه الآن، إنّها تقول سعيد، إنّها تقول هذا ولدك، إنّها تمنحه إيّاها.

حملته بين يديها، ذاب قلبها فجأة، وتزاحمت مشاعر الأمومة في روحها، لامست شفتيه بأصابعها، قبّلت يده الّتي خرجت من القماط، وراحت تتخيّله سعيد الأوّل لا سعيد الثّاني...

- خدّوجة أنت جادّة؟

الحياة فيها أيضا هدايا ومنح غاليّة، ستمدّك بها لاحقا، فلا تقلق، هل سنقول أنّ الأفراح قد بدأت؟

الأفراح بدأت، حملته بين يديها، أدخلته تحت خمارها وخرجت قبل أن تعود خدّوجة في كلامها.

لكنّ خدّوجة ليست غبيّة، فالطّفل هناك أمام ناظريها، ستراه كلّ صباح وكلّ مساء، أجل هي ستضمن له فقط اللّقمة، والثّوب النّظيف، سيكون بأفضل حال وأغمضت عينيها.

عاد جلّول منهكا، يحمل جريدة بيديه، دخل مسرعا:

- عمّتي انظري...

أصدرت فرنسا قانون العفو العامّ، سيخرج كلّ المساجين، هذا يوم مبارك علينا جميعا تذكّري هذا التّاريخ جيّدا 16 مارس 1946

لم تردّ، تركته يدخل الغرفة الثّانية للكوخ:

- من هذا؟
- سعيد آخر...
- سعيد آخر؟ ابن من؟
- ابن خدّوجة سأربّيه.

اقترب منه قليلا، كانت تقوم بلفّه وتقميطه

- ما أجمله، هذا الطّفل مربوح، نسمّيه مربوح ما رأيك؟

تغيّر مزاجها فجأة:

- لا... أمّه أسمته سعيد سعيد فقط، اخرج اخرج سأقوم بإرضاعه.

كيف ترضعه وهي المرأة الّتي أنجبت منذ عشر سنوات؟ هل جُنّت عمّتي أم ماذا؟

كانت قد التفتت إلى الجدار وصمتت، كما صمت الطّفل إلاّ من صوت الرّضاعة وتدفّق الحليب في فمه، وسكون يعيدها إلى اليوم الّذي أنجبت فيه سعيد الثّاني، نعم وهل تنسى الأنثى ذاك الألم؟

في تلك الأمسية، كانت تشعر بغثيان ومغص يسري تحت بطنها، قد علمت بغريزتها، أنّه المخاض، فقد جرّبته سابقا مع فلذّة كبدها الّذي ضاع منها.

طيلة حملها كانت تتذكّره، وتتذكّر والده امحمّد، كان معها يرافق مراحل تكوّنه، يلامس بطنها الّتي نمت يوما بعد يوم، اختارا له اسما جميلا، إن كان ولدا "سعيد" وإن كانت بنتا "سعيدة" هكذا اتّفقا، السّعادة يحلمان بها وستحقّق بهذا المولود.

لكنّ القدر لا يمهل الأحلام حتّى تتحقّق، ولا يبرزها للنّور، إنّه يركل الأشياء للخلف ولا يهمّ إن جرح أحدهم، أو كسر قلبه.

القدر بالمرصاد للبسطاء المساكين، الّذين لا يريدون من الدّنيا شيئا غير راحة البال، هم لا يطلبون الكثير، فقط بقاء الأحبّة إلى جانبهم.

وهذا لا تحقّقه الأقدار، أجل في ذلك اليوم، طرق العسكر باب الكوخ المهترئ.

طلبوا، امحمّد عاجلا إلى المركز، إنّه التّجنيد الإجباري، رفض الخروج، تحدّث إليهم أنّه أب مسؤول، ولا أحد يعيل أسرته الصّغيرة، أدار ظهره إليهم، فاقتادوه بالقوّة، وقبل خروجهم، توغّلوا إلى شرفه، فداسوه ولطّخوه، وهم يتناوبون على نهش جسدها، فعلوا ما فعلوا مع الضّاوية وانصرفوا به، يركلونه ويجرّونه جرّا.

كان يتخبّط كثور هائج، يحاول الإفلات منهم يحاول ضربهم ولكن...

إنّها الصّدمة الّتي جعلتها تغادر ولاد الميمون، تغادر إلى غير رجعة، تركت صغيرها لدى "الجدّة زينب" سيكون بخير، نعم سيكون بخير طالما حملت عاري ورحلت عنه.

العار لا يغسل بالهروب، وفرنسا ابنة كلب، وأولادها وحوش بشريّة.

يقتاتون من أجساد النّساء الشّريفات، يلطّخون أجسادهنّ بقذارة الاغتصاب.

إنّهم يشرّدون العائلات، وهم يعلمون أنّ شرف العربيّ في عائلته، يفضّل الموت على أن تمسّ شعرة منها.

- ماذا يا صغيري؟

أنجبت قبلك بشهر فقط "سعيد الثّاني" لم أكن حريصة على شيء، تمنّيت الموت قبل أن يحدث ما حدث، لكنّ الفرنسيّ النّذل، تغلّب على ضعفي وجعلني ذليلة، مهانة، مكسورة الرّوح، أخذه منّي وسجّله باسم آخر، وشرب نخب انتصاره على قلبي الموجوع.

لباسها المذهّب الفضفاض، وشعرها الأسود في ضفيرة سوداء طويلة، ترتمي خلف ظهرها، إنّها تلتفت إلى الجدار في صورة أمّ ورضيع مدهشة، تكاد تكون لوحة نحتها فنّان يلتقط أجمل منظر إنسانيّ رائع.

في هذا السّكون الممتدّ من ولاد الميمون إلى وادي مينا، كان جلّول يغازل كتبه، يختار منها ما يقرأ اللّيلة، يفكّر في عمّته الّتي انشغلت عنه تماما، وانكبّت على الوليد تهتمّ به كأنّه ولدها.

ليست الأمّ من تنجب فقط، الأمّ من تحبّ وتعطي، وتحسّ، إنّها من تنظر لوجه الطّفل فترى فيه حياتها، وأحلامها واستمراريّتها، الأمّ تلك الّتي تنسج حولك الجمال وسط البشاعة والقرف، تنيرك رغم الظّلام الّذي يغزو الكون...

أحسّت أنّها أمّه، وأنّه رضيعها، وهي تنظر في عينيه تستمدّ منهما القوّة الكافيّة، لمواجهة تلك الذّكريات الّتي لا تأبى مغادرة خيالها.

صحت باكرا جدّا، حملت أغراض الصّغير ونزلت المنحدر إلى الوادي.

أخرجت قطعة الصّابون، وخرق الأقمشة الّتي تفنّنت في تفصيلها على مقاس الصّغير كقماطات له.

في إناء بلاستيكيّ أحمر كُسرت جوانبه، وضعت الخرق والصّابون، صبّت القليل من الماء، سمّت الله وشرعت تغسلها وكلّها نشاط وأمل سحريّ في روحها.

تسلّلت أشعّة الفجر خلف أعراف الدّفلى، نظرت إليها، وهي تضع الخرق في منطقة تجمّعت فيها المياه الصّافية، عصرتها جيّدا نفضتها، ثمّ نشرتها على الأغصان لتجفّ قليلا.

كان الحايك وحذاؤها البلاستيكيّ هناك...

اقتربت أكثر من المياه، لم تكن صالحة للاستحمام، باردة جدّا، خلعت ملابسها، حلّت ضفيرتها، وغطست في المياه تفرك جسدها وشعرها بالصّابون، دقائق فقط، ثمّ خرجت مرتعشة، تجفّف أطرافها وترتدي ملابسها، ثمّ تنشر الحايك.

اندهشت لما فعلته الآن، لم تكن النّساء لتستحمّ هكذا في هذا العراء، لكنّها فعلتها، شعرت براحة غريبة، وحرّية تنتشر في روحها، فتمدّدت قليلا، تنتظر جفاف خرق سعيد الثّالث.

سمعت صوتا هادرا يقترب منها، صوت مياه قويّة تتدحرج نحو الوادي، قامت مفزوعة تغطّي جسمها بالحايك، وتجمع خرق وليدها في الإناء، ترمي

فوقها قطعة الصّابون، والصّوت قويٌّ، ويقوى أكثر كلّما نظرت إلى الشّمال، فجأة لمحت لون المياه يتغيّر، كانت الأتربة تسبق المياه العذبة، يتزايد الماء... يتزايد...نظرت إليه

- إنّه البراج البراج ...."السّدّ" إنّه يفيض...

أسرعت إلى أعلى الوادي، والرّعب يملؤها كانت تصرخ وتلهث، تجري إلى أن وصلت إلى الكوخ... مازال النّاس نياما، إلاّ القليل منهم.

دخلت الكوخ فوجدت جلّول يستعدّ لصلاته، وضعت الإناء، تنفّست قليلا، ثمّ أخبرته أنّ الوادي يفيض ماءً، ابتسم جلّول:

- نعم أعرف وهل هذه المرّة الأولى؟

شدّت صدرها وهي تشرب القليل من الماء،

- أفزعني، هل صحا سعيد؟

- سعيدك لا أعتقد أنّه سيصحو نهارا؟ إنّ سهرته البارحة ستجعله ينام إلى المساء.

- عمّتي..... سأنضمّ لحزب فرحات عبّاس، أُطلقَ سراحه ليعود للعمل الحزبيّ، متأكّد أنّه الوحيد القادر على جمع شتات الجزائريّين.

كانت مازالت مرتبكة ويدها ترتعش، حاولت نسيان الأمر:

- لم أعد أثق بأحد، بعد تلك المجازر تراجعت الوطنيّة، كأنّ النّاس يخشون الموت، نسوا أنّ ما نعيشه موت بطيء.

غضب مينا

كانت المياه صامتة حين وصلت إلى الجهة الشّرقية للقرية، لا أحد استطاع أن يميّزها عن بعد، لكنّ اقترابها جعلها تبدو كغيوم بيضاء سريعة، تتكوّر حولها لتبلغ المنحدر، وأخيرا راعهم المظهر، قال أحدهم:

- ما هذا يا ربّ؟ هل جنّ مدير البراج؟ المياه كلّها ستضيع هكذا؟

قال آخر:

- ربّما هي أمطار جهة سيدي واضح وسيدي بختي؟

- ولماذا لا تسقط هنا؟ قال آخر متهكّما.

- الأمطار تسقط على القلوب النّقية، وليس على هذه الأنفس الشّرّيرة.

نهره محي الدّين:

- وماذا تقصد؟ يعني نحن سيّئون؟

أسكتهم صوت طفل قادم من الجهة الغربيّة:

- أخي محمّد.... أخي مح م د سحبته المياه هو والحمار، وتقطّعت أنفاسه لشدّة الجري.

لم يتركوه ليكمل الحديث، وهبّوا مسرعين حيث أشار الصّبي.

المياه قويّة تضرب بعضها بعضا، تحمل معها الأتربة والأغصان المكسورة، وحتّى البلاستيك وكلّ ما تجده في طريقها، حاول أحدهم النّزول لكنّ جلّول أمسكه.

يصل والد الصّبيين الحاج قدّور البرّاني وقد تملّكه الذّعر، وجهه أصفر ويداه ترتعشان، نزع عمامته الحمراء، وركع على قدميه يذرف الدّموع، اقترب منه جلّول واضعا يده على كتفيه:

- عظّم الله أجرك يا الحاج، لا تحزن فهذا قضاء الله وقدره، كم من الصّبية يبتلعهم مينا كلّ عام...

لكنّ الحاج غاب عن الوعي، وقد عجزت رجلاه عن حمله.

ولده البشير هو أوّل العنقود، بُشّر به بعد انتظار طويل، وكم كان صعبا أن يُنعت بالعقيم، وهو الّذي كان أخا لاثني عشر ولدا كلّهم أنجبوا ذكورا وإناثا.

أم البشير غزالة تحمّلت الكثير من الهمز واللّمز، زارت سيدي قادة عدّة مرّات تمسّحت بأرضيّته، ذبحت له في كلّ زيارة ديكا مميّزا، واشترت له قماشا بلونه الأخضر المعروف، المفضّل لدى خادمه.

وأخيرا جاء البشير وتلاه أربعة صبيان، كلّهم بجمال وبهاء هذا الأخير، اكتحلت الأعين بهم.

مينا اختار البشير ولد الحاج البرّاني، إنّه القربان السّنوي. ككلّ عام يفيض الوادي ويشتهي لحما طريّا من أحلى ما تنجب القرية...البشير رغم علمه بخطورة الفيضان، إلاّ أنّه خطا نحوه، انجذب لشيء ما، لسحر ترميه مياه هذا الوادي، في عيون الصّبية المختارين.

تداخلت أصواتهم:

- هوّن عليك يا الحاج، عظّم الله أجرك.
- الحمار؟

- كيف لطفل في الرّابعة عشر من العمر، يغامر بحياته من أجل حمار؟

- الطّفل في قلبه الرّحمة، أراد إنقاذ روح من الغرق.

- ها هو غرق معه.

- لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله.

يردّد محي الدّين:

- كارثة نزلت بنا، كتلك الّتي عشناها العام الماضي.

العام الماضي كان متفرّدا في قساوته، لقد راح ضحيّة الفيضان العشرات. ومنهم الجدّة زينب... الجوع...الحرب... المرض... الجهل...

لم تهدأ ولاد الميمون ذاك اليوم، فالطّفل جرفه الوادي وحتّى العسكر من الفرنسيّين لم يسارعوا لإنقاذه، وقد جاؤوا من مشرع الصّفاء، والرّحوية.

لربّما هو عالق في مكان ما، تتبّع الرّجال والأطفال الوادي متّجهين شمالا، كان الوادي يتلوّى كأفعى فقدت السّيطرة على مساراتها، هادئ في بعض الأماكن، وهادر يكاد يصرخ في مرتفعات حجريّة أخرى، عويل النّساء، وصراخ الأطفال، غطّى على المشهد ولا أحد تقبّل الأمر، رغم الاستغفار من كبار السّنّ

وصلوا الجسر الشّمالي للوادي، أين يربط بين طريقين نحو مدينة مشرع الصّفاء ودوّار أولاد عامر، ومزرعة ڤوميس، وصولا إلى جهة جيلالي بن عمّار.

لا أثر للبشير ولا لحماره، بل ما عرفه الأهالي أنّ هناك أطفالا ورعاة من دواوير أخرى، قد فقدوا وكانوا جميعهم قربانا لمينا.

ارتفع صوت غزالة أمّ البشير، تنوح وتنوح فقيدها وقرّة عينها، ومن تستطيع توقيفها عن البكاء؟

في هذه المواقف لا نملك غير إطلاق دمع العين، لعلّه يغسل هذه الأحزان، هذه المواجع الّتي ينبشها خبر الموت.

لكلّ عائلة هنا فقيد مات بطريقة ما، الموت لا يبقى بشكل واحد، إنّه يتلوّن ويتعدّد، لا يدعو للملل، كلّ روح ستغادر بطريقة يختارها هو، لتصير لوحة للفجيعة في قلب أحدهم، لوحاته تختزنها الذّاكرة، لتُبسَطَ فجأة أمام أوّل خبر، لفقد ما.

ابكي يا غزالة! فصغيرك لن تضمّيه مرّة أخرى، لن تنتظري عودته مساءً بعد رحلة رعي شاقّة.

لن تلامسي يديه الباردتين لتدفئتهما بحنانك، ولن تنتظري مرّة أخرى إطلالته عليك صباحا، وأنت تحضّرين خبز الشّعير.

لن يشعل هذه النّار، ولن يجهّز معك صينيّة القهوة، ولا أحد يرتشف قهوتك، ويقول إنّها أروع قهوة في الدّنيا.

لقد غادر بسرواله الممزّق، وجلاّبيته الّتي لم ينزعها منذ أشهر، غادر بلحيته الخفيفة الّتي يمسح عليها كلّ مساء، ويخبرك أنّه صار رجلا تعتمدين عليه.

رحل صغيرك طيّب القلب مع حماره، وكأنّ مينا اختاره لهذا العام، ليكون قربانها الموسميّ.

الضّاوية تحمل الصّغير وتتوسّط النّسوة واللاّئي جعلنها محطّ الأنظار، لربّما سعيد هو الآخر اختاره مينا ونحن لا ندري، نظرت إليها إحداهنّ:

- عجبا هي ترضعه، كيف ذلك؟

سمعت الضّاوية همساتهنّ، فانحنت تغطّيه، وتغطّي ثديها الأيمن بخمارها البرتقالي.

كانت تنظر لغزالة الّتي ارتمت أمامها تتخبّط، والنّسوة يشددنها ويطلبن منها الاستغفار، لم تشأ الضّاوية ترك الصّغير على جهة في هذا الجوّ الفوضويّ، خافت عليه، حملته وتسلّلت خارجة، والحزن يعتصر قلبها على سعيد الّذي هيّجت ذكراه هذه الحادثة.

آخر النّهار وبعد أن تفرّق الجميع، شوهدت طفلة في الثّالثة عشر من العمر، تنتحب وحيدة تحت شجرة التّوت المتفرّدة في اتّجاه مينا.

صيف 1946

جاء شهر ماي بتوقيت الصّيف، شهر الحكايات، والخرافات الّتي تعشّشت منذ وفاة الطّفل البشير... إنّهم يقولون ويقولون، والحقيقة غائبة.

لا أحد يعرف حرقة الموت، غير الأمّ غزالة، هي الّتي تعذّبت روحها، تلهث خلف أمل ما، هل يمكن أن يكون قد نجا، وتاه في جهة من هذه الأرض؟ سؤالها الخفيّ في عينيها ولن يجيب أحد مطلقا على هذا السّؤال.

- عمّتي الضّاوية، عبّاس فرحات وجّه نداءً للجزائريّين.

كانت الضّاوية تناغي "سعيد3" وقد صار في شهره الرّابع، بشعره الكثيف، تجلسه على ركبتيها، تطعمه بيدها القليل من البطاطا المهروسة، الممزوجة مع البيض، ينظر إلى وجهها ينتظر اللّقمة القادمة من أصابع الضّاوية، كأنّها المنقذ الوحيد من جوع متسلّط.

- هل تصدّق هؤلاء؟ قالت هذا وقد أعادت سعيد إلى ركبتها الثّانية.

- يقول لا اندماج ولا أسياد جدد، هذه النّداءات هي برنامج الحزب. أنا معه، وإن شاء الله نفوز في الانتخابات القادمة.

- خذ... خذ، كُلْ لقمة وخلّيك من الأحزاب الّتي خذلتنا.

ناولته صحنا فيه القليل من الكسكسيّ:

- شوف يا وليدي، نحتاج ترميما لهذا الكوخ، ما دمنا في فصل الصّيف.

- بإذن الله عمّتي، في المساء حين عودتي سأرى ماذا نفعل.

نظرت إليه وقد توقّفت عن إطعام سعيد3:

- جلّول! أردتُ سؤالك، أخت جاك تلك الّتي تسكن في تيارت هل زرتها مرّة أخرى؟

- نعم رحت.

- رأيت ولدهم الرّضيع؟ هو بخير؟

- نعم هو في سنّ سعيد أو أكبر قليلا، يا سبحان الله يشبه سعيد كثيرا. تقصد سعيد وليدي الّذي تاه؟

- إيه نعم.

وغلبتها الدّموع، كان قلبها يخفي هذه الجمرات، لا أحد يمكنه أن يحسّ بما تشعر قد اكتوت مرّتين بنفس الطّريقة، غير أنّ الأخيرة هي التي سلّمت روحها للجحيم، وكيف لها ألّا تفعل؟، من سيصدّقها؟

إنّها تكفر بالسّياسة، لا أحد استطاع مساعدتها، تلك المظاهرات لحدّ الآن لم تثمر شيئا، غير القتل والتّنكيل... و و أنا وأخريات غيري دفعنا الثّمن غاليا، فرنسا ابنة جحش.

- سأخرج الآن، نلتقي في المساء.

انتصفت شمس ماي، ومالت على الوجوه تلفحها، غير أنّ جلّول ارتدى سروالا عربيّا، وقميصا طويل الأكمام، مع عمامة وضعها لتفادي أشعّة الشّمس العنيدة.

لم تكن روز في انتظاره كعادتها، لم يرها، رغم أنّه رفع صوته بنحنحته المعهودة.

دار حول الحديقة يتفقّدها، وحتّى ذاك المكان تحت شجرة العرعار هناك،

يبدو البيت فارغا تماما، بدأ القلق ينخر عقله، هل حدث معها مكروه؟ هل غادرت مع والدها؟ وهل ستعود قريبا؟

أسئلة تافهة وبسيطة، بدأت تتوالى، رفع رأسه نحو تلك الشّجيرات الّتي كبرت، وغطّت الشّمس دونما إزعاج منها، أحسّ بالفرح قليلا، ثمّ ما لبث أن عاد لحزنه.

مرّت ساعات العمل المسائيّة، دون أن يكتحل بشمسه الحقيقيّة.

عاد متعبا، قلقا، يتباطأ في مشيته، يعاود ما حدث بينهما، في آخر لقاء، لكن لا شيء غريبا أو ملفتا، لا شيء يفسّر له هذا الغياب المفاجئ، حتّى الخادمة لم تظهر.

- مساء الخير عمّتي، احضري لي بعض القصب وحتّى إذا هناك حبال أو أسلاك، سأحتاجها.

- انتظر، اشرب قهوتك وكلْ بعض "الفطير" بعدها افعل ما تريد.

- لا... لا... سأتخلّص من هذا العمل، وسآخذ هذا الكتاب، وأشار إلى كتاب ضخم بغلاف بنيّ لمّاع.

- هذه الكتب ستغرقك في عوالم وهميّة، عليك بمواجهة الواقع يا جلّول، نحن بحاجة، لعمل آخر، وهذا الصّغير، انظر، في مسؤوليتي.

- لا يا عمّتي لن تعملي مجدّدا، لا أسمح بذلك، سأتدبّر الأمر.

أخرج الحبال، وجمع بعض القصبات من هنا وهناك، دار حول الكوخ الّذي غطّى جدرانه الطّين والتّبن، بعض النّوافذ الطّويلة تسمح بدخول أشعّة الشّمس، بقطع بلاستيكيّة تبدو أنّها ألصقت مع عجينة الطّين فجفّت ومنعتها من التّمزّق.

صمتت الضّاوية تاركة سعيد3 يغطّ في نومه، وراحت صوب الكانون تضع الإبريق على النّار، سخّنت القهوة، ثمّ وضعتها إلى جانب الجمر لتحافظ على حرارتها، بعدها وضعت الطّاجين المصنوع من الطّين على النّار في وسطها تماما.

جذبت القصعة الخشبيّة، وحفنت دقيق القمح من "المزود" لتخلطه مع الزّيت والملح، وراحت تعجن خبز الفطير الّذي يحبّه جلّول.

صارت الرّوائح تنبعث إلى خارج الكوخ، والضّاوية متربّعة أمام الكانون منهمكة تقلّب الخبزة يمنة ويسرة، إنّها طبّاخة ماهرة تحسن كلّ هذه الأطباق التّقليديّة، ولها موهبة حتّى في بعض الأكلات العصريّة الّتي يتفاخر بها الفرنسيّون.

ماذا لو اشتغلت خادمة؟ كانت هذه الفكرة تدور برأسها، ستطعم صغيرها، وتساعد جلّول في مصاريف البيت.

نضجت الخبزة واستوت، قسمتها على أربع بكفّها، ثمّ وضعتها في سلّة صنعت من الدّوم، ونادت جلّول.

المساء الثّقيل على روح جلّول يمضي مستفزّا لكلّ مشاعره، الكتاب بين يديه، لم يخرج كما أراد إلى البريّة، إنّه يائس حزين، ولا حتّى القراءة استطاعت أن تعالج ما يحسّه من وجع.

الغرباء يعرفون جيّدا كيف تسير اللّيالي مرتبكة، كيف تتمايل الحكايات، فتطيع نهاياتها المذيّلة بالضّياع.

الغرباء يعرفون أنّ هذا الوطن ليس لهم ورغم ذلك يصرّون على التّمسّك أكثر بحبّات التّراب، إنّهم يستمتعون بالحياة بينما نحن نعيش كلّ المآسي.

بدأ جلّول يكتب شيئا فشيئا ما يحسّ به، إنّه يعبّر بلغة الفرنسيّين أنفسهم، يرتّب ويصفّف الجمل، كما لو أنّه درسها في أكبر الجامعات، قد صنعت منه كاتبا مبتدئا، إنّها الكتب، والفضل الكبير لروز.

فكّر طويلا في علاقتهما، في تلك الأغاني الّتي غرقا فيها، وخاصّة أغنيّة "الأوراق الميّتة"، في الأمسيّات حين كان والدها يسمح لها بذلك، في مرافقتها له لمدرسته العربيّة.

يضحكان معا طيلة الطّريق، إنّها روز المرحة على طول الخطّ، تصنع من الصّمت ضحكة أو نكتة، إنّها تطحن الأحزان، فتجعلها ذرّات تتطاير أمامها، لا يظهر منها شيء، تكسر المستحيل، وتفعل ما يحلو لها بقدرة عجيبة.

تتعاطف معه، تحسّ به، تعرف بداخلها أنّ الجزائريّين ليسوا فرنسيّين، ولن يكونوا كذلك أبدا، هذه الأرض ليست لهم، هناك فرق بين فرنسا

والجزائر، والفرق تراه في جلّول، إنّه وطن كبير يختزن الكثير من الحكايات، يختزن شخصيّته، طريقة عيشه، حبّه لدينه، وتمسّكه بعاداته، كم كانت تعشق فيه ذلك.

حتّى وإن تأكّدت، فهي مجرّد فتاة، ماذا ستفعل أمام طاحونة فرنسا الّتي تقبع على الصّدور؟ لكن أين اختفت؟

كلّ الذّين غادروني لم أخبرهم كم أكرههم لهذا السّبب، فقد تركوا كدمات على روحي مازالت تؤلمني، ما زلت أعاني هذه الجراح، هذه الغيابات المتكرّرة، هل يتعمّدون ظلمي بهذه الطّريقة؟

وأنت ياروز ! كيف فعلتِها بالله عليك؟

في كلّ مرّة تقتربين ثمّ تبتعدين بهذا الدّمار، سأكرهك جدّا صدّقيني.

تشهّد واستغفر الله، وحاول النّوم كآخر مرحلة لوأد الأفكار الموجعة.

مرّ أسبوع ولا شيء عن روز، إنّه اختفاء يذكّره بالغياب الّذي دام سنوات، لكن تلك المرّة كانت هناك رسالة شرحت فيها كلّ شيء، الآن لا رسالة ولا خبر، ولا أيّ شيء.

كان قد أنهى عمله الصّباحيّ، سقى وقلّم، وغرس ما غرس من الشّجيرات الجديدة، جلس يرتاح قليلا، وهنا لاحت له، نعم إنّها شمسه الّتي غابت منذ أسبوع أسرعت إليه بفستان دائريّ بلون التّفّاح الأخضر، بضحكتها المعهودة، لكنّها متغيّرة قليلا، فيها اهتزازات ولون باهت.

إنّه يحسّ بذلك، هي تحاول إخفاء الوجع وتصطنع الفرحة أمامه.

جلست إلى جانبه، قالت بصوت خافت:

- اشتقت إليك.

كان يحاول فهم ما يحدث أمامه، يحاول إيجاد تفسير لوجهها الحزين:

- وأنا أيضا. قالها بالفرنسيّة

كيف تغادرين دون إخباري كدت أجنّ.

ولمحت تلك الشّرارة الّتي لا تراها في غير هاتين العينين، إنّها شرارة الصّدق والمحبّة، شرارة العتاب واللّوم.

- كنت مريضة قليلا و ....

- وماذا؟

- والدي يريدني أن أغادر إلى فرنسا، يريدني أن أفارقك، أنا لا أستطيع.

هوت هذه الجمل على قلبه كالجحيم، لأوّل مرّة يشعر أنّه يفقدها للأبد، تبدو منكسرة الرّوح، مستسلمة لقدر ما.

- وأنت ماذا تريدين؟

- أريد أن أكون معك فقط.

وضع يديها في يديه، ضغط عليهما برفق:

- سنهرب...أنا وأنت سنهرب هل توافقين؟

لم تقل شيئا، ظلّت تنظر إليه لفترة، كأنّما تخفي دمعة أو حزنا، ثمّ أجابته بابتسامة رضا:

- نعم أوافق أثق بك، لن تؤذيني، هذا ما أعرفه.

- سنتزوّج، أوّلا تعتنقين الإسلام، ثمّ نغادر إلى ولاية أخرى.

بدت على وجهيهما فرحة خفيّة، لكن تراءى لجلّول هاجس غريب. ماذا لو أحسّ والدها بما يخطّطان؟ ماذا سيكون مصير عمّته الّتي ليس لها غيره؟ ترك يدها وانزوى، على المقعد الخشبي يفكّر، لابدّ أن أعلم عمّتي بالأمر، لنتّفق أوّلا.

تجاوزت الثّانية والعشرين من عمرها، ليست قاصرا والقانون الفرنسيّ في صالحها.

جلست إلى جانبه تسأله بثقة، متى وإلى أين يذهبان؟

- إنّها مخاطرة كبيرة، وإن فشلت يا جلّول، ستقتل لا محالة، وأنا لا أرضى لك ذلك.

- لا تخافي، سأتدبّر الأمر جيّدا.

- بعد غد صباحا، في حدود الرّابعة نلتقي عند العين "النّبع"، يمكنك حمل بعض أغراضك ووثائقك، وأيضا جواز سفرك قد نضطرّ لمغادرة الجزائر.

أطرقت برأسها شاردة، لكن يا جلّول أنت عربيّ وأنا فرنسيّة، سيتعرّفون علينا بسرعة، فكّر قليلا ثمّ قال:

- سترتدين "الحايك"

- الحايك؟ تساءلت باستغراب: -لا أعرف كيف ألفّه على جسدي.

- سأساعدك وضحكا معا.

في صباح اليوم التّالي، إنّه الصّيف الّذي نشر كلّ حرارته وما يحتويه من جفاف في الأرض وفي الأرواح، ما عدا نسائم الصّباح، لا شيء فيه منعش، أو يدعو للتّفاؤل.

نهض جلّول كعادته باكرا، لكن هذه المرّة كان يتفقّد وجه عمّته وصغيرها، كمن يلقي بصره ليلتقط أجمل الصّور ليخزّنها في حقيبة ذكرياته.

- عمّتي، سأستشيرك في موضوع.

- نعم، قل ما هو يا جلّول؟ أنت تلمّح لشيء كارثيّ. واصفرّ وجهها.

حاول تهدئة نفسه، حاول التّحدّث ببساطة:

- لا يا عمّة، فقط سأسافر بعض الوقت ثمّ أعود.

- ها ها ها متى حصل ذلك؟ متى فكّرت؟

- إنّها روز يا عمّتي، كما تعرفين نحن عاشقان منذ زمن و و...

توقّف عن الكلام لبرهة:

- والدها يرغمها على الرّحيل وهي ....

- لا تكمل، هل ستهرب معها؟ هل جننت؟ هل هذا ما تربّيت عليه؟ خطف فتاة؟

فرنسا كلّها ستبحث عنك، والدها رجل لئيم، ولن يرتاح قبل ذبحك كالشّاة.

ارتعب جلّول واهتزّت روحه:

- أوّاه يا عمّة القتل؟

- نعم وهل هذا بعيد عن هؤلاء الوحوش؟

ألم تقل أنّك ستنضمّ لفرحات عبّاس في حزبه؟ ما الّذي غيّرك؟

- سأفعل لكنّي أحبّ روز، ولن أضحّي بها.

- حسنا، وتتركني وحيدة؟

- لا يا عمّة سأعود، أعدك بذلك وسأرسل إليك المال متى استقرّت أحوالي.

الفصل الثّاني

عواطف عرجاء

النّسرُ سربٌ بمفرده، وحدها الطّيور الصّغيرة تحتاج إلى رفقة.

أحلام مستغانمي

إلى قنشورة

في اللّيلة الموالية، جهّز جلّول ما يلزمه لسفر مجهول العواقب، مشاعر بداخله مختلطة، كمن يحاول السّير على رجل مكسورة، يقنع نفسه أنّه سينجح، فالحبّ الّذي بقلبه سيهزم الصّعاب، لكن ماذا لو كانت مجرّد عواطف عابرة؟

وها هو يكمل معها عامه السّادس من الشّوق والانتظار، والحزن والفرح وكلّ ما يحسّه المحبّون.

لا ليست مجرّد عواطف تافهة، إنّه يعرف جيّدا ما يخفيه بين جوانحه.

ودّع عمّته وهو ما يزال يحمل ما يحمل من الخوف، والتّردّد والرّهبة ممّا هو مقدم عليه، قبّل رأسها ويديها وطلب منها المسامحة.

بكت الضّاوية، وعادت إلى فراشها تصارع الهواجس والأفكار السّوداء، ها قد صارت وحيدة مرّة أخرى، رغم وجود هذا الطّفل، إلاّ أنّها استشعرت الفراغ الّذي هو قادم لا محالة.

كان الظّلام يغطّي ولاد الميمون، يمشي بسرعة محاولا عدم إحداث أيّ ضجّة، سلك طريقا خلفيّا إلى جهة النّبع، هل ستنجح روز في الوصول إليه كما اتّفقا؟

جلس غير بعيد يرقب أيّ حركة يسمعها، وينتظر على الجمر وصولها...

ظلّ على حاله نصف ساعة، ثمّ لاحت له وقد لفّت نفسها بحايك أبيض، ظهر له رغم الظّلمة الشّديدة، أراد أن يضحك لكنّه تمالك نفسه، أمسك يدها وغابا نحو وادي مينا.

كان حديثهما متقطّعا خافتا، خوفا من أن يُكتشف أمرهما، فالأحاديث اللّيليّة ليست بريئة أو كتومة.

وصلا الوادي، أرادا أن يقطعاه ليسيرا في الطّرف الآخر، حتّى الطّريق المعبّدة.

يسلكانها إلى مشرع الصّفاء، لكنّ روز طلبت منه اتّباع الوادي، تريد السّير مع مجرى الماء إلى أن يبتعدا تماما عن ولاد الميمون.

مرّ على سيرهما أكثر من ساعة، صار الظّلام يتلاشى مخلّفا وراءه وجها مشرقا للحياة، وقد لاح لهما مكان مرتفع أعلى وادي مينا.

دُهشت روز لهذا المكان، وطلبت من جلّول التّوقّف هناك لبعض الرّاحة.

كان خائفا، تطارده الهواجس، إنّه قلق بشأن ما أقدم عليه، لم يكن ليفعل ذلك، الرّجال لا يختطفون النّساء يا جلّول، ما الّذي فعلته بحقّ السّماء؟

وخفق قلبه لهذه الكلمة اختطاف... لكنّها سترغم على الرّحيل، إن لم أفعل سأفقدها وأندم طيلة عمري.

احتار في أمره، ثمّ استقرّ أخيرا على رأي، بعد ساعات سيتزوّجها، وهكذا لن يستطيع مخلوق التّفريق بينهما.

وصلا القمّة، مع طلوع أوّل خيوط الفجر، انبهرت روز للمكان، أمّا جلّول فقد عرفه فورا.

- إنّها قنشورة يا روز، هي مقابر ميغاليتية، من آلاف السّنين. ويقال تحتها كنوز كبيرة.

- هي آثار؟

- نعم.

- واو سنبقى هنا لبعض الوقت.

- لكن ياروز ربّما سيرسل والدك من يبحث عنك و...

- مستحيل يبحثون هنا، نقضي النّهار في هذا المكان، وليلا نواصل السّير.

المنطقة مرتفعة جدّا، تعلوها بنايات حجرية ضخمة، كأنّ من بناها رجل فضائيّ وليس من البشر، مغارات متجاورة، وساحة واسعة، ورسومات على الأحجار عجيبة غريبة، حاولا استكشاف المكان، شلّالات من الجهة الشّرقية، وأسفل هذا الجبل السّحريّ وادي مينا يسير ببطء، وحوله

أشجار الصّفصاف العاليّة، وغير بعيد عنه هناك مكان يسمّى الغرفة، وبعض السّكّان يتوزّعون على مرتفعاتها.

كان المنظر مدهشا، وهما معا واقفان يتأمّلان هذا الجمال الطّبيعيّ من أعلى مكان، اختاره الإنسان البدائيّ ليكون قريبا من السّماء، قريبا من الله.

جلست روز على صخرة طويلة، في الغالب كانت تستعمل كمربط للأحصنة، وضعت حقيبتها الجلديّة أمامها، وطلبت من جلّول أن يجلس إلى جانبها، نزعت الحايك فظهر وجهها المدوّر وشعرها الأشقر الّذي داعبته نسائم الفجر الأولى.

وضعت يدها في يده محاولة تهدئته:

- الآن حصل ما حصل، ما علينا سوى المواصلة، فيما بدأناه، أنا معك في أيّ مكان ولن يفرّقنا سوى الموت.

ضغط على يدها، أراد أن يقول شيئا، لكن شاهد راعيا من بعيد، يهشّ على أغنامه، فطلب منها الاختباء خلف هذه الشّجرة، ليذهب ويتفقّد إحدى المغارات حتّى يقضيا فيها يومهما.

وكما هي الأرض وتحتها وما حولها في الأعلى، جنّة هكذا همست روز:

- كأنّها الجنّة يا جلّول. نسائم لم تداعب روحي مثلها ولا رأيت أجمل من هذا...

كانا مستلقيين داخل مغارة تطلّ على الشّلّالات.

- الآن صرنا مثل الإنسان الأوّل، انظر يا جلّول تلك العصافير وهي ترفرف كلّما رميت حصيّة في الشّلّال.

كان ما يزال غارقا في التّفكير، كيف سيتصرّف مسيو جاك يا ترى؟ وهل سيعلم أنّها معي؟

ماذا لو ذهب لعمّتي وعاملها بقسوة؟ وضع يديه على رأسه، كان قميصه الرّماديّ وسرواله العربيّ الواسع يرتجفان لرجفاته الدّاخليّة، إنّه خائف خائف جدّا لما قام به.

" كون راجل يا جلّول كن رجلا" لم تغب عنه هذه العبارة أبدا، الرّجولة ليست في الشّكل، ولا في الجسد، الرّجولة مواقف كثيرة، تكون أغلبها في صفّ الحقّ مهما كانت النّتائج، وأنت يا جلّول رغم ثقافتك الواسعة، وتربيّتك الدّينية، وعاداتك ووووو وقعت في هذه الخطيئة، هل كنت سترضى بذلك لعمّتك؟ لا والله؟

يرتفع صوته، لا والله لا والله

رمقته روز، وقد فهمت بطريقتها ما يعيشه جلّول من تناقضات، تركته وخرجت، ربّما سيفكّر بصفاء أكثر فيما يحدث الآن.

جلست أعلى المقابر، كانت تبدو كفراشة، وقعت على زهرة برّية، تتأمّل كلّ شيء بحبّ وإعجاب، كأنّما لأوّل مرّة ترى الطّبيعة واضحة جليّة أمامها.

كأنّما الحياة هاهنا فقط، أمّا هو، فقد غفا داخل المغارة، "كانت أمّه ترتدي الأبيض تحمل جرّة طينيّة، تنظر إليه تارة وأخرى إلى السّماء، كان مشتاقا إليها، يطلب منها التّريّث قليلا، حتّى يضمّها أو يقبّل يديها، سارت بضع خطوات، التفتت إليه، تبعها يحاول المسير، لكنّه لم يستطع تحريك رجليه ولا جسده، حاول حاول صرخ بشدّة، يناديها والكلمات مخنوقة في حلقه، اشتدّ صراخه، وهي تسير تاركة إيّاه وراءها، كانت أمامها شعلة من النّار الحارقة خاف عليها، خفق قلبه بشدّة وعلا صراخه، ينبّهها أنّها أمام النّار، التفتت إليه، كان وجهها هو وجه روز، فارتعد وأخذ يدور في مكانه إلى أن اخترقت النّار وغابت في دخّانها"

امتدّت يد روز توقظه برفق، ففتح عينيه مفزوعا:

- أستغفر الله أستغفر الله...كابوس

- من يرى الكوابيس في هذه الجنّة يا جلّول؟ أحضرت معي بعض الطّعام، تعالَ...

واصلا سيرهما ليلا باتّجاه الشّمال الغربي، لاحت له فكرة وقد تكون هي حلّه الأخير في هذه الورطة، حلم كأنّه حقيقة ومغامرة اعتبرها خطأ بعد فوات الأوان.

لكنّ روز لم تُشعره بذلك، إنّها تطيعه في كلّ شيء، تثق به، تعلم أنّه لن يؤذيها، فالسّنوات الّتي جمعتهما في ماضٍ قريب، كانت كافية لتعرفه، بل تعرف حتّى ما يجول بقلبه.

نزلا الرّبوة، ودّعا قنشورة الّتي استضافتهما بحنوّ، اللّيل هادئ تماما، تداعب ظلامه نسائم خفيفة، غير أنّ القمر يبدو واضحا، عكس ليلة البارحة، الطّريق جليّ لكنّها مناطق برّية لا تخلو من الخنازير المتوحّشة.

أو حتّى الذّئاب الّتي غالبا ما تهاجم الرّعاة، كان حذرا جدّا، وهما يسيران يتلفّتان خلفهما خوفا من مباغتة أحد هذه الحيوانات الخطيرة.

روز تضع يدها في يده، تمسك بها خوف الوقوع في الحفر، بينما هو يحمل الحقيبتين بيد ويشدّها بيد أخرى.

صوت اللّيل صار يخيف أكثر، وهما يتوغّلان في طرق غير معبّدة، يحفّها نبات السّدرة والأشواك الّتي مازالت بخضرتها، بدأت روز لأوّل مرّة تشعر بالخوف، خاصّة واللّيل يعوي، تقترب منهما أصوات لم يميّزاها، هي تقترب أكثر، وروز تصطكّ أسنانها ولا تقوى على السّؤال، يفلت جلّول يدها، فتسمع صوت ذئب يعوي، ويرتطم بالأرض.

صاحت، جلّول جلّول...

وضع يده على كتفها وهو يضحك:

- لا تخافي قد قتلته.

أمسك يدها، باردة جدّا، ومرتجفة، أراد التّخفيف من توتّرها، فمازحها:

- أتعرفين؟ قد حملت معي الكتب الّتي أهديتنيها.

كتاب الغريب، هو غريب فعلا... لا يمكن لأحد أن يتصرّف كما تصرّف البطل، إنّها مشاعر ليست حقيقيّة، الأمّ حياة.

لم يكن يعلم أنّه بهذا فتح الباب للأحزان الّتي هاجمتها في هذا اللّيل المرعب، لم تجبه، راحت تتذكّر أمّها، كيف فعل بها ذلك؟ إنّها متأكّدة أنّه السّبب، كانت صغيرة جدّا، لا تعي ما حولها، صور كالضّباب مرّت أمامها، أمّها داخل غرفتها تتلوّى، والأمطار غزيرة، كان صوته خشنا معنّفا، الخطوات تضرب الأرض، فتشعر أنّها ستدوسها، تسرع إلى تحت سريرها، النّواح من غرفتها يجئ سكاكين تمزّق قلبها، باردة ومرتجفة وقد جفّ حلقها، لم تنطق بكلمة، لم تصرخ، لم تخف، لم تفعل شيئا،

هل كانت تشبه الغريب في تصرّفه ذاك؟

فتح جلّول الجرح الخامد، إنّه ينزف الآن، ينزف بشدّة... لم تتحدّث...

- نعم يا روز ألبير كامو خرق القانون، كأنّه لا يعرف عن الأمّ شيئا، لكنّه غير صادق إنّه في الواقع كما أخبرونا يحبّ والدته جدّا.

يمشيان، بينما هي صامتة باردة، رغم أنّه ليل صيفيّ منعش.

شعر بتقلّب مزاجها فأراد أن يضحكها قليلا:

صحيح يا روز بيكاسو سكن مدريسة؟

- ههههه ذاك الماجن؟

- ماجن؟
- المجون هو الظّلم وخطف اللّقمة من أفواه الجياع يا عزيزتي.
- أنت لا تعرفه...
- وهل عرفته أنتِ؟ هيّا اعترفي قولي! يضحكان...

دخلا منطقة غابيّة، وقد تركا خلفهما كثبانا من النّباتات القصيرة الشّائكة، يبدو أنّهما اقتربا من مدينة مشرع الصّفاء.

شدّت يده:

- لن ندخلها، أخشى أن يكون والدي قد بلّغ العسكر، سيقتلونك.
- لا تخافي يا روز، مثلي لا يقتل هكذا بهذه السّهولة، مازال الوقت باكرا لنتحدّث عن الموت.

سنسير على أطرافها إلى أن نصل محطّة القطار، هناك سنتسلّل داخله ونهبط في المحطّة المواليّة.

سنقيم ب "موڤلفي" الرّحوية، لديّ قريبة هناك، خالتي الوحيدة أمّ العلوّ ستستقبلني، هي ما تبقّى لي من عطر أمّي.

صمتت مرّة أخرى، ليست لديها رغبة في الحديث، بعد هذا الجرح الّذي خلّفته ذكرى الأمّ، صامتة وباردة، لكنّ الخوف قد زال عنهما وهما يسيران على أطراف المدينة الغربيّة، باتّجاه الشّمال، يسلكان طريقا مختصرا نحو محطّة القطار.

غطّت وجهها بالحايك، تلفّعت به كعربيّة محترفة، لم تترك سوى عينها اليسرى تراقب الأمكنة.

جلسا ينتظران وهما مرعوبان، كان نور العمود الكهربائيّ مشعّا على المكان، وبعض التّجّار ينتظرون البضائع الّتي تُنقل عبر هذه القاطرات،

سيغافلان الجميع، لم تكن هناك حراسة أو مراقبة معيّنة، لكن الرّجال المنتظرين بدأوا يرمقون روز الّتي ارتبكت، واختلطت عليها طريقة وضع "الحايك" بعد أن أجادته، ها هي تُفسد الأمر، ولربّما سيُكشف أمرهما.

بادرهما رجل بلباس رسميّ بالسّؤال:

- عفوا سيّدي هل أنتما مسافران؟

ردّ جلّول بفرنسيّته الجميلة:

- لا لا نحن ننتظر قريبا.

كانت روز تنظر إلى الأرض، حين مرّت تلك الدّورية، تحاول تهدئة نفسها، لم تخف على نفسها فقد تعود لبيتها دون أيّ عقاب، لكنّ جلّول سيدفع حياته ثمنا لذلك، أيّ غلطة ستقابلها خسارته للأبد.

سعلت قليلا ثمّ وضعت رأسها على جلّول مدّعية المرض، في هذه الأثناء كان المراقب ينظر إليها باستغراب وقبل أن يحدّثها، ناداه رفيق له من هناك.

فتنفّسا الصّعداء، وكان القطار القادم من مدينة تيارت، قد وصل لتوّه.

ابتعدا عن الأضواء الكاشفة، إلى جانب شجرة صفصاف عاليّة، كانت يده في يدها، همس إليها أنّه سيقفز بها إلى العربة رقم 06، فهزّت رأسها موافقة وصعدا ليرتميا مع البضائع المخزّنة في كراتين صلبة، تلمّسها جلّول ليجدها علب مصبّرات طماطم ومربّى وأخرى تشبه علب الحليب المركّز، ضحكا طويلا ثمّ استلقيا مستسلمَيْن للرّاحة.

الضّاوية

تناغي صغيرها، تغنّي له كي يهدأ قليلا، فتتجاوز بهدوئه أفكارها المضطربة، يغادر جلّول ليخلّفها وحيدة، ما أتعسها بدونه، كيف طاوعه قلبه؟ ابتسمت، قلبه؟ قلبه مع روز وليس معي، واسترجعت ذكرياتها مع زوجها وتلك الأيّام الّتي جمعتهما معا، صحيح كان زواجا تقليديّا، لكنّ الأفراح كلّها اجتمعت لتصنع لهما قالب السّعادة الّذي بقي صامدا إلى أن.....

إلى أن تهدّم كلّ شيء في لحظات خاطفة، تأتي السّعادة شاملة، وتتلاشى دفعة واحدة، لا تدرُّج في السّعادة، إمّا أن تأتي أو لا تأتي، ولا شيء يكون في الوسط.

هدأ صغيرها، كأنّما اشتمّ رائحة الحبّ النّقيّ، أو كأنّه يرحم ذكرياتها، إنّها الآن في حالة استثنائيّة تنظر إلى جدار الطّوب وتستعيد تلك الأفراح.

يوم خرجت جميلة الجميلات بضفيرتها السّوداء الطّويلة، والحنّاء تصبغ يديها ورجليها، والكحل الأصليّ يصبغ رموشها السّوداء الكثيفة.

كانت قد اغتسلت بخليط الخزامى وماء الورد، ورطّبت جسدها بزيت اللّيمون، ابتاعته من "غنّام الحضريّ" لم تجرّبه سابقا، لكن إحدى الصّديقات نصحتها به، إنّها تجارب العرائس الّتي لا تخيب.

الزّغاريد لم تتوقّف وهي ترتدي البرنوس، ورجلان لم تستطع رؤيتهما، يمسكان يديها ويُخرجانها لتركب الفرس، ودائما رأسها مغلّف لا ترى شيئا،

شعرت بالاختناق لكنّها تحمّلت، إنّها الطّريق الّتي تؤدّي إلى بيت زوجها امحمّد سرت فرحة في كامل جسدها.

ارتعشت وهو يرفع البرنوس عن وجهها ويسمّي الله ...بسم الله ما شاء الله. ما أجملك...

طرقات قويّة على الباب أيقظتها من سعادة مؤقّتة عاشتها، الباب المهترئ لا أحد يدقّه.

- لحظة، وضعت غطاءً على رأسها وفتحته.
- أين جلّول؟ أين أخذ ابنتي؟

دفعها إلى الجهة الأخرى، اصطنعت الجهل وأجابته:

- جلّول؟ ما به؟

لا تجيبي بسؤال؟ أخبريني وإلاّ هشّمت رأسك.

- لا أعرف... لا أعرف...خرج صباحا للعمل في مزرعتك ولم يعد.

استدار نحو الغرفة الدّاخليّة قائلا:

- فتّشوا هذا الكوخ القذر.

ولمّا لم يجدوا شيئا ثار جاك وأخوه قالا:

- نأخذها ربّما هناك تعترف.

جرّاها وهي تتوسّل إليهما أن يمنحاها وقتا لأجل الصّغير، تسلّمه للجيران أو تحمله معها.

لكنّ الرّحمة غائبة، والضّمير الإنسانيّ لا يحضر مع الغضب، والظّلم والتّوحّش.

ابتعدت أقدامهم، يجرّون الضّاوية وهي تصرخ، تتعالى صرخاتها ممزوجة ببكاء الصّغير، يكسران سكون اللّيل.

كارولين

تحرمك الأقدار أشياء كثيرة، ثمّ تعود فتمنحك ما حرمتك، وتزيد عن ذلك قليلا، لكنّك هنا تنسى أنّها تعطي وقد تأخذ منك ما توقّعت أنّه تافه وبسيط، إلى أن يغيب عنك، فتكتشف أنّه الرّكيزة الأولى في هذا كلّه.

لابدّ أن يتغيّر شيء اليوم، سأقصّ شعري هذا الّذي يتعبني، مللت ضفيرته الشّقراء، سأكون مثل مارلين مونرو ولم لا؟ هل هي أجمل منّي؟

كان المقصّ في يدي، حين فاجأني مايك بالسّؤال عن شارل، لقد مشى خطواته الأولى أمس فقط، ونحن سعيدان به، بدا بشكله ك لويس تماما، نفس الشّعر، نفس الملامح ونفس الشّخصيّة.

تعوّدت على أمومتي الّتي وهبتها إيّاي السّماء، سعادتي كبيرة بالصّغيرين، قد غيّرت نمط حياتي، فصرت أصلّي للرّبّ كلّ حين، كما أنّي أخرج كلّ أحد للكنيسة القريبة منّي، على يسراي شارل وأمسك لويس بيدي اليمنى.

أحاول قدر ما أستطيع شكر الله أنّه وهبني طفلين رائعين، متشابهين لحدّ كبير.

كان مايك يعمل بالسّجن المقابل للمقبرة الّتي خصّصت لموتى المسلمين، وكأنّها خطّة محكمة لكي يكون الدّرس واضحا، السّجن أو القبر، لك الخيار.

امتلأ السّجن عن آخره منذ أحداث الثّامن ماي 1945، إنّه يشعر بالكآبة والنّدم، إثر كلّ ليلة يمضيها فيه، رغم أنّه برتبة نقيب، إلاّ أنّه تعيس، وحزنه غامض لا تفسير له، قد يكون الظّلم الّذي لا يسيطر عليه

الرّجال وخاصّة الشّباب، كلّ من حاول النّطق بكلمة عن فرنسا، كان مصيره هناك، وحتّى النّساء سبب تعاسته، تلك الأفعال الشّنيعة، الّتي يقومون بها اتّجاههنّ، تؤرّقه تلك المرأة الّتي حملت وتجرّأت لتبوح بالأمر، ماذا عن الأخريات؟

وهل يعاقبني الرّبّ على تلك الأفعال أن جعل زوجتي عقيمة؟ القليل من الخمر أمامه، يحاول نسيان ما يحدث، لكنّه لا يستطيع.

كارولين تتفهّم طبيعة عمل زوجها، إنّه يتعب نفسيّا لأجلهم، ها هو يتبنّى طفلين ويحيطهما برعايته وحبّه، إنّه زوج رائع، لولا تلك السّنوات الّتي هجرها فيها، قد غادر البيت وتركها تلوك الصّمت وتجترّ الأحزان، خمس سنوات غاب فيها دون أن تعرف وجهته، ترك العمل وركب سفينة المغامرة، هو كذلك يحبّ الحرّية والتّجوال، وجد في الوظيفة والزّواج اشمئزازا غريبا، ستبدو حياته تافهة لا معنى لها، أحسّ هذا منذ العام الأوّل لهما معا.

جال فرنسا، ركب القطارات وتعرّف على أناس جدد، صادق وفارق نساءَ ورجالا، إنّه مستهتر أو هو غير مسؤول، مهما كانت الكلمات فهو يملّ بسرعة مثل زوجته تماما.

هناك في باريس، وهو يتجوّل ليلا، الهواء صيفيّ منعش، والنّاس جماعات جماعات تحت ضوء القمر، يستمتعون بالنّسائم العليلة، وبينما هو يسير ببطء، مثقل الجسد كمخدّر زادت جرعاته، اعترضته مجموعة من الشّباب، أشهروا سكاكينهم في وجهه، طرحوه أرضا أخذوا كلّ أمواله وحتّى قميصه ذا الكمّين القصيرين، وشورته الملوّن، يا للعار، تركوه في الشّارع، شبه عارٍ يضع يديه على وجهه، والمارّة يحدّقون به،

يرمونه ببعض النّقود، عاد حافيًا عاريًا لبيت والدته، ولمّا رأته ارتعبت، وتراجعت للخلف، لكنّه لشدّة خجله لم يستطع إخبارها القصّة.

بعض الحكايات لا تحكى، تُرى فقط، وتفهم من بعيد كالإشارات الضّوئيّة.

لازم غرفته مدّة أسبوع، لا يخرج إلاّ نادرا، بينما تبلورت في ذهنه فكرة قويّة، أن يعود لزوجته الّتي تركها وحيدة هناك.

جلّول

وصلا الرّحوية متخفّيين، توقّف القطار لإنزال البضائع، كانا مستعدّين كأرنبين، شاعرين بالخطر، قفزا من مؤخّرته دون أن يشعر بهما أحد، تكوّرت روز وتكوّرت...

كانت تلهث وهي مندهشة، كيف قفزت بهذه الخفّة؟ وهي الّتي تكره المجازفة في هكذا مواقف، في الحقيقة، الأمر سهل سهل جدّا، هكذا قال لها جلّول وهو يأخذ بيدها وينفض عنها الغبار العالق على "الحايك" الّذي فُكّ من وسطها.

عدّلا من ملابسهما، ثمّ ابتعدا عن المحطّة، ليتّجها جهة الشّارع الرّئيسي.

شعر جلّول بفرحة خفيّة، إذ نجيا من العسكر والمراقبة الّتي كانت تشغل باله، فرحة بانتصاره على مسيو جاك رغم شعوره بقذارة الفكرة، خاصّة كلّما تذكّر جملة "كون راجل يا جلّول".

أمّا روز فهي مستسلمة تماما لهذا العربيّ الّذي ملك قلبها وروحها، لم تكن لترفض له طلبا، وهو الرّجل الّذي تمنّته منذ وقع بصرها عليه ذلك اليوم، في مزرعة عمّها قالا، ثمّ مرّة أخرى حين انشغل بغرس الشّجيرات في حديقتهم الجديدة، ولم يكترث لأمرها.

كانت مريضة جدّا ورغم ذلك تسلّل الفرح والأمل إلى أعماقها، رؤيته كانت تكفيها لتسترجع الرّاحة الّتي تبتغيها، حتّى وجهها الشّاحب كان يتحوّل إلى منارة تحوم حولها الفراشات الزّاهية، وتلمع عيناها لترتشف من الحياة لحظات هانئة.

ساعات وساعات، وهي تحدّق إليه من خلال شرفتها، كأنّها في انتظار غريب لم يضبط وقت عودته، أو كأنّه وعد ونسي وعده، وتلاشى في المدن البعيدة.

تستفيق على هذا المشهد، ولم تخجل أن صارحت والدها بالأمر، هي مريضة وهو بحاجة لأيّ قشّة يتعلّق بها لتُشفى، حتّى لو كانت هذه القشّة شابّا عربيّا جاهلا مثل جلّول.

لم يكن ميسيو جاك يعلم أنّ تلك النّظرات ستتحوّل إلى قصّة حقيقيّة، ستفرض قوانينها عليه مجدّدا.

اعتقد أنّها ستكون علاقة عابرة، بين مراهقيْن، تتسلّى هنا في هذه القرية البعيدة عن صخب المدن وحاناتها، وحتّى عن قاعة السّنيما الوحيدة في تيارت.

لكنّ غريزة الأب استشعرت أنّ هذه الفتاة المرحة الحنونة، لن تتخلّى عن مصدر سعادتها، وبات يرى في عينيها ذاك اللّمعان الّذي يزداد كلّ يوم.

أمسى يراها تتعلّم العربيّة، كما علّمت فارسها الفرنسيّة، ودفعته نحو القراءة والكتابة أيضا، الفتاة تخطو نحو سنّ الرّشد وقد تفعل ما يدمّرها، قضى اللّيالي يفكّر في مرضها وفي تعلّقها بالشّاب.

كان يختلي بنفسه ليشرب ما يخبّئه من أجود أنواع الخمور، يحاول نسيان ما يتوقّعه، هل يتفاداه؟ أم يصارحه، أم.... وينام على تلك الأسئلة بلا إجابات، إلى أن قرّر أن يخبرها ذاك اليوم.

لكنّ روز ليست طفلة، ولن تختبئ تحت سريرها، لترى حبّها يختنق أمام عينها، لن تبكي ولن تصرخ، بل هي الآن قادرة على اتّخاذ قرارها، وجلّول بالنّسبة إليها ليس شابّا عاديا، إنّه رجلها، ورفيق دربها، ولن تتخلّى عنه مهما قسا والدها، أو حاول منعها بالقوّة.

ها هما يصلان بيت خالته، يلتفت جلّول يمنة ويسرة، وهو يدقّ دقّات خفيفة... جاءه صوت مبحوح قادم من آخر غرفة في الحوش:

- لحظة... لحظة...

وانفرج الباب عن شبيهة والدته، عن تلك الّتي ربّته مدّة من الزّمن وكانت تدعوه "رائحة الغاليّة"

عانقته ولم تصدّق أنّها تشمّ رائحتها، بكت من الفرحة، وهي تشدّ يده وتلتفت للضّيفة معه، لم يتركها تطرح السّؤال، بل نظر إلى روز وقدّمها إليها:

- هذه روز خطيبتي.

تلعثمت خالته وهي تحاول إخفاء ذلك عنهما.

- ادخلا... ادخلا...تفضّلا

أدخلتهما أوّل غرفة، ثمّ طلبت منهما الاستراحة قليلا.

نادت ابنتها كريمة:

- تعالي يا كريمة، سلّمي على أخيك جلّول وخطيبته.

كانت روز تنظر إليهما بحنان زائد، تشعر أنّ هذه العائلة تربطها المحبّة والتّفاهم، سرعان ما خلعت الحايك، وفكّت شعرها لينسدل بحرّية على كتفيها.

الحرارة خانقة هنا، لكنّ الحوش أكثر انتعاشا، إذ جلس الجميع تحت الكرمة ليستنشقوا هواءً باردا، ومنعشا في هذا اللّيل الغريب.

أسرعت كريمة لتحضر ما يسدّ جوعهما، وبعض الماء واللّبن، بينما الخالة استدعت جلّول تستجوبه حول "الرّومية" الّتي يصطحبها:

- ماذا يا بنيّ؟ هل تريد الموت؟ تلك روميّة، مستحيل أن تقبل عائلتها بك.

- لكنّها تحبّني يا خالة وأنا أيضا، وسنتزوّج.

- هل اعتنقت الإسلام؟

- نعم وتحفظ القليل من القرآن أيضا.

قالها وهو متحمّس يشعر بالفخر

كان الحديث سريعا بينهما، إذ خشي أن تشعر روز بشيء من هذا الهمس حولها، عاد إليها يطلب منها التّحرّر، ومرافقة كريمة إذا أرادت.

بدت هادئة، لكنّ قلبها لا يفعل، إذ هي قلقة الآن، من مصير مشترك بينهما، وهل سينجحان في تكوين أسرة؟ وإن تزوّجا، أين سيقيمان؟ الحياة ليست كما تصوّرتها.

مسيرة هذه اللّيلة كانت كافية أن تعرف الفرق بين الحقيقة والأوهام، أو الفرق بين أن تتحدّث وتفعل، رمقها جلّول وهي بفستانها الورديّ الجميل، وشعرها الّذي تحرّر من قبضة "الحايك" صارت الآن شمسه الّتي أشرقت ذات يوم، ولم تغب مطلقا.

دخلت المطبخ مع كريمة، إنّها أواني بسيطة، وفرن صغير نحاسيّ اللّون تفوح منه رائحة المازوت الكريهة.

في طرف المطبخ طاولة من الخشب المتآكل، عليه أكياس صغيرة من الدّقيق، مصنوعة من جلد الماعز، أو جلد الخروف، تلك عادة قديمة في تخزين الدّقيق، أو الحبوب الجافّة، وحتّى الماء في "القربة" الّتي تعلّق في ركن هناك، وفي الجهة الأخرى خرقة باليّة، وحصير أُعِدّ لجلوس أفراد العائلة.

كريمة ستحضر أيّ شيء للأكل، التفتت لروز، طلبت منها الجلوس، لكنّها تذكّرت أنّها لا تفهمها، احتارت ماذا تفعل، وكيف ستوصل إليها هذه الطّلبات، لكنّ روز فاجأتها وجلست.

- تفهمين العربيّة؟
- نعم قليلا، وأحفظ السّور الأولى من القرآن الكريم.

بدت كريمة مسرورة جدّا، فهي أخيرا ستجد من تواسيها في هذا المنزل الّذي خلا من اخوتها، حمّو- العيد – ولعرج- كلّهم اقتادتهم فرنسا للحرب ضدّ الألمان، كانوا ركيزة هذا البيت مع والدهم، فهل فضّلوا البقاء هناك؟ هل استشهدوا في حرب لم تكن لهم؟ أم هي مجرّد إشاعات عنهم؟

قالوا أنّهم يعملون في أشغال البناء، وقالوا أنّهم في حزب سياسي كبير في فرنسا، وقالوا... وقالوا... رغم أنّ الخالة لا تصدّق ما يشاع، وتحسّ أنّ في الأمر شيئا.

كريمة في الثّانية والعشرين من العمر، قلّما تبقى الفتاة في هذا السّنّ بلا زواج، إنّها ترفضه بشدّة، لا أحد يفهم ما تشعر به من متناقضات، لكنّ روز استطاعت بابتسامة منها أن تغيّر مزاجها، عرضت المساعدة، فقدّمت لها كريمة المهراس والقهوة المحمّصة وطلبت منها هرسها.

بأصابعها الرّفيعة البيضاء كالشّموع، تدير قبضة المهراس وهي تضحك، راقبتها في بادئ الأمر باستغراب، وجدتها مسلّية جدّا، وحبّات القهوة تتطاير هنا وهناك، لتستغرقا في الضّحك.

هذا الجوّ غيّر الكثير، في منزل أعلن الحداد منذ سنة 1939، يوم خروج الأولاد منه.

سبع سنوات والأجواء كئيبة، تعيش الخالة أمّ العلوّ حزنا مريرا على فلذّات كبدها تبكيهم ليل نهار، وتدعو الله أن تكتحل برؤيتهم، وتسدل الحياة ستارها.

انسجمت روز مع كريمة، بينما جلّول مع خالته يحاول إقناعها "بالرّومية" كما أسمتها.

إنّها الحياة، ها هو جلّول يقرّر الارتباط رسميّا بفتاته الّتي أحبّها، وقد استطاع إقناعها أخيرا، أنّ السّعادة لا تمنح هكذا، إنّها تؤخذ ونسعى لتحقيقها.

وافقت الخالة على مضض، قبّل رأسها، وطلب منها التّحضير لقراءة الفاتحة غدا.

الضّاوية

لم تستطع الضّاوية تحمّل الإهانة أكثر، فانفجرت غاضبة في وجه جاك وأخيه:

- إن كنت رجلا، ابحث عن ابنتك أين هي؟ لمَ تحتجزني أنا؟ هل هي معي؟

شعر بالاستفزاز، فانتابته رغبة قويّة بضربها، لكنّ ڤالا منعه، إنّها مقيّدة، إنّها امرأة يا رجل ماذا بك؟

ڤالا لا يشبه جاك في طبعه، لكنّهما يستعملان السّلطة لترهيب الأهالي وإذلالهم، إنّه أوّل من فرض على العرب التّخلّي عن أراضيهم مقابل قروض وهميّة، وبعض أكياس الدّقيق "عام البون" وهو من كان يساعد العسكر على إجبار الشّباب على التّجنيد، والدّفاع عن فرنسا ضدّ النّازية، لم يخلّف مجيئه سوى الخسائر المعنويّة والمادّية لسكّان ولاد الميمون، لا يمكن أن ينسى النّاس حادثة عليّ صديق جلّول.

كان في الخامسة عشر حين استدعاه ڤالا برسالة شفويّة من ذاك الخمّاس الوضيع.

اعتقد الفتى عليّ أنّه يطلبه لعمل ظرفيّ معيّن، لكنّ ڤالا كان يراوغه ويغريه بشتّى الوسائل:

- ما رأيك أن تكون موظّفا لديّ؟
- موظّف؟ وأيّ عمل أقوم به؟
- هل توافق أوّلا؟

- لكن ألا أعرف طبيعة العمل يا موسيو ڤالا؟

- عمل سهل وبسيط، تخبرني فقط ماذا يحدث في أولاد الميمون؟ كلّ شيء، حتّى لو تنهّد أحدهم تخبرني به، أنت بذلك تخدم بلادك فرنسا.

نظر إليه مليّا وبذكاء فهم القصد، أشار إلى ملابسه:

- هل هذا منظر شابّ فرنسيّ؟ يا سيّدي أنا... أنا عربيّ، أراد أن يقول أنا جزائريّ، لكنّه خشي السّجن وتلفيق التّهم.

- أرفض هذا العمل.

شدّه ڤالا من كتفه:

- ستندم...

استدار عليّ، نظر في عينيه جيّدا وقال بغضب أنساه الخوف الّذي كان منذ قليل:

- أنت ستندم أنّك دخلت الجزائر، ما رأيك أن أخبرك بعدد الضّرطات في ولاد الميمون؟ وأطلق ساقيه للرّيح.

لم يهضمها ڤالا، استشاط غضبا، وجحظت عيناه الصفراويّتان، استخرج مسدّسه وصوّبه نحوه، بوابل من الرّصاص، يصيب رجله اليسرى فيسقط ويتلقّفه الأهالي.

إنّها الحادثة الّتي لا تنسى، سواء من الأهالي أم من المعمّر الّذي أهين حينذاك من طرف هذا الفلّاح الصّغير، بعدها قرّر ألّا يدخل في مناوشات معهم، مهما كان.

الضّاوية مربوطة على كرسيّ خشبيّ دون أيّ وثيقة قانونيّة تسمح بذلك، يا لها من وضاعة! تذكّرت الصّغير، يا ربّ ماذا حصل معه؟ وهل تلقّفته غزالة لترعاه

إلى حين عودتي؟

- اسمع يا مسيو جاك أنا لا أعرف إلى أين ذهبا، لكن أعتقد أنّهما عاشقان، وأنت تعرف ذلك، أنت من ساهمت في هذه العلاقة بطريقة أو بأخرى، قوانين الحبّ ليست بيد البشر، إنّها بيد الله، وهو من زرع هذه المشاعر في قلبيهما، ولن يحسّ بهما سوى من منحه الله هذه الشّعلة في يوم ما.

كانت تلهث وتتحدّث، فضربها لم يكن صعبا، ولم يلتزم جاك بكلمته في هذا، إنّها ليلة ساخنة فعلا، حتّى بأحداثها، فهو لم يوفّق في حياته الزّوجيّة، بل لم يعرف معنى أن يحبّ شابّ فتاة ويتعلّق قلبه بها، ويقرّران العيش معا إلى الأبد.

ومن أين له أن يعرف؟ وهو الّذي أرغم باية على الزّواج به، فقط لأنّها أعجبته، وظنّ أنّه يعشقها، باية الفتاة القبائليّة الجميلة، حوّلها إلى هيكل عظميّ امتصّ روحها، قطرة، قطرة، سلبها حرّيتها، وفرض عليها قانونه الخاصّ، أمراضه، عقده، وحتّى مشاكله وضغوطاته الخارجيّة.

في ليلة من ليالي 1923 التقاها في بجاية رفقة والدتها، عائدتين إلى العاصمة، أعجبته، كانت تبدو كطفلة صغيرة في تصرّفاتها وسذاجتها، تقدّم منهما فنفرت منه والدتها، بينما باية راحت تحدّثه بالفرنسيّة، كانت عيناها كمرآة بابليّة تشعّ نورا، جسمها النّحيل كفراشة ربيعيّة، وشعرها الكستنائيّ النّاعم، في ضفيرة طويلة على ظهرها، فرنسيّتها ليست متقنة لكن زادتها جمالا، منذ تلك اللّحظة قرّر أن يمتلكها.

تزوّجها عنوة ورحل بها إلى فرنسا، وهناك كان الجحيم، منذ سنتها الأولى كبرت الطّفلة لتصير عجوزا في السّبعين، لم تجد من الزّوج السّجّان سوى

الشّكّ والغيرة المفرطة، الضّرب والتّعنيف، وكلّ أساليب التّعذيب، كأنّما يراها عدوّا ينتقم منه كلّ حين.

كلّما حاورته بلطف، أقنعها أنّه الحبّ، الحبّ يولّد الغيرة لديه، ولا يستطيع السّيطرة على أفعاله.

حاولت وضع حدّ لحياتها، هربت ذات يوم، ضاعت في شوارع باريس، اختارت ذلك الجسر العالي، أرادت أن تخلّص نفسها، إنّه العذاب اليوميّ الّذي استمرّ، وقد توفّيت والدتها، فمن تبقّى لها يخلّصها من جحيمه، وضعت خطوة على أعلى الجسر، لتنقذها سيّدة كانت مارّة من هناك، في ذلك اليوم بالذّات اكتشفت أنّها حامل بروز، مسحت على بطنها فسقطت دمعتان من عينيها.

روز

كنت أتساءل من أين لي كلّ هذه الجرأة الّتي واجهت بها والدي؟ كيف تحدّثت دون خوف أو خجل، حينما قصدت رؤيتك من جديد؟ أنا الّتي تركبني عفاريت الخوف، وتمتطي شجاعتي كلّما نظرت إلى رجل حتّى لو كان طفلا.

كان ذاك اليوم استثنائيا، ليس كسائر أيّامي الرّتيبة، حينما عدنا من فرنسا كان والدي حزينا ويائسا، لم يحسن إخفاء أوجاعه عنّي، فهمت ما لم يقله، قلبي دلّني على مشاعره المتناقضة، إنّه لا يعرف كيف يتصرّف في مثل هذه المواقف، أنا أعذره.

لكنّ شيئا غريبا يقف بيني وبينه، إنّه منظر أمّي وهي تتوسّل إليه، كلماتها مخنوقة، شعرها الكستنائيّ الطّويل لم يسرّح منذ أشهر، عيناها تغيّرتا تماما، أرعبني منظرها حين فتحت باب الغرفة الخلفيّة، رجعت هاربة فاصطدمت بخزانة الصّالون الخشبيّة.

- أين أمّي؟

وبكيت، مازالت رجلها المنتفخة، وتلك الرّوائح كأنّها تنبعث من فرنسا كلّها.

إنّه أبي، لا يمكن أن يكون وحشا، كان يبتسم لي كلّما دخل غرفتي، يغنّي لي ويحكي حكايات بنهايات سعيدة.

لكنّ نهاية أمّي لم أعرفها سوى وأنا شابّة، نعم تعود الذّكريات الّتي قُبرت لتحيا من جديد، فتنبعث الرّوائح الكريهة، ليس في فرنسا فقط، وإنّما هي تتبع والدي، لم يكن مرضي سوى عقاب له، لكنّني تألّمت كثيرا وعوقبت بدلا عنه.

فهمت بعد ذلك بمجهود قليل، أنّ أمّي عانت من مرض الغارغارينا، واحتفظت للأبد بمن سبّب لها ذلك، لم أشبع من حنانها، كلّ صور ذاكرتي عنها إمّا مربوطة كحيوان أليف مستكين لمصيره، أو هي تنتحب بصوت خفيض، إثر معركة لفظيّة وجسديّة بينهما.

صور ضبابيّة تراود خيالي، كما الكوابيس اللّيليّة الّتي تخنق صدري، فأقوم مذعورة.

أمّي كانت تصلّي كما المسلمين، وتقرأ القرآن الّذي حفظته مع جلّول مؤخّرا، سمعتها تبكي وتدعو الله أن يخلّصها من والدي، انتابني الذّعر... لكن لم أفعل شيئا والله اختار راحتها الأبديّة.

كانت روز فارغة من كلّ شيء، إلاّ منه، ملأ داخلها وسيّجه بمروءته الّتي لم تجدها في رجل آخر حتّى في والديها، وما فرنسا سوى صراعات وحروب تخوضها، لأجل الاستمرار والسّيطرة.

هنا رغم كلّ هذه الصّراعات تجد السّكينة في روحها، ولا ينقصها سوى التّشهّد لتكون مسلمة بالفعل.

كريمة

في البداية سرّت جدّا بروز، استأنست بها في سجنها الدّائم هنا، لكنّها سرعان ما غشيتها الغيرة، ألم تكن معجبة بجلّول منذ صغرها؟ كيف لهذه الرّومية الفاتنة تسرقه منها؟

وباتت ليلتها تفكّر في طريقة شرّيرة لتتخلّص منها، فكّرت وفكّرت... تقلّبت على فراشها البسيط، بينما كانت روز تشاركها الغرفة، تحكي لها بعربيّة مليئة بالأخطاء، وحين تتعثّر لغتها، تستنجد بها مناديّة إيّاها كغيمة... كغيمة...

بينما الغيمة هذه لا تزال مستلقيّة، تشاور عقلها وقلبها في حيل ماكرة، ترمي هذه الجميلة بعيدا عن جلّول، اهتدت لفكرة من جهنّم، أجل ستقتلها ولمَ لا؟

وقد علمت أنّها هاربة، ستستدرجها للخروج معا، ثمّ تسمّمها أو أيّ شيء آخر المهمّ الموت.

كلمة الموت استهوتها، بل شغفت بها وشعرت أنّ نهاية روز هنا في هذا البيت.

لا بأس أن نموت ونحن في ضيافة عائلة أخرى، لا بأس أن نغادر الدّنيا ونحن مقبلون على فرح، على عرس... على حياة...

ابتسمت، روز تحاكيها، لم تردّ، بل أطفأت الشّمعة وتركتها تتحدّث كأنّها لا شيء.

ها قد جاء الصّباح الموعود، شمس توزّع نورها على شوارع "الرّحوية" هذه المدينة الّتي لجأ إليها جلّول مؤقّتا، ليتزوّج حبيبته ثمّ يقرّران ما يفعلانه.

قامت روز باكرا، قبّلت رأس الخالة أمّ العلوّ بعفويّة، وراحت تحدّث الحاج قائلة:

- صحيح يا عمّي أنا لست مسيحيّة، رأيت أمّي تصلّي مثلكم تماما.

وهنا صعق جلّول الّذي كان على مقربة من المطبخ، خجل من دخوله، وقد تواجد زوج خالته، والّذي يعتبره بمثابة والده، وفي التّقاليد الشّائعة أنّ الشّاب لا يقابل خطيبته أو زوجته في حضور والده، أو جدّه أو قريبه الأكبر سنّا.

في صينيّة خضراء كانت فناجين القهوة تجذب إليها عشّاقها، تناول زوج خالته فنجانين ثمّ حمل عصاه، رتّب عباءته وخرج قاصدا بيت الإمام "الطّالب".

أمّا روز فقد طلبت منها الخالة، الذّهاب مع كريمة للحمّام البوخاري الوحيد في المدينة، تستحمّان وتتعطّران، كانت تدسّ في سعفة من عرف الدّوم بعض الحنّاء والصّابون، وتطالبها بالإسراع فقد داهمهم الوقت.

ما أسعد روز بزواجها من جلّول، تنتظر اللّحظات بفارغ الصّبر، من السّيّئ أن تحدث أشياء وأشياء، والأمّ غائبة، لا تعرف شيئا عن هذه التّغيّرات، لا تعرف كم صارت الحياة بالنّسبة إليها مدهشة، ليتك حيّة لتعرفي أنّها سعيدة جدّا بهذه البساطة وهذا الحبّ.

صمتُ كريمة لم يكن مفهوما لدى والدتها، كانت تفكّر وتحرّك شفتيها:

- ولمَ الموت؟ ربّما بخطّة أخرى، ماذا لو أخبرت العسكر أنّها هاربة؟ وابتسمت بخبث أخطر من الأوّل.

مرغمة هي الخالة، ومشتّتة بين الرّفض والموافقة، تعرف في قرارة نفسها أنّ ابن اختها، اختار بقلبه ولم يفكّر بعقله، هؤلاء مهما تظاهروا بالطّيبة، فهم ليسوا سوى مستعمرين متجبّرين، وراحت تذرف دمعة حارّة، إنّ العيون حين تتذكّر، تقذف الجمرات.

والدي سي عبّاس نفي إلى جزيرة بعيدة رفقة أربعين من أقرانه، تركنا مع والدتي لا ندري ماذا نصنع بعده، كنّا كالصّيصان.

إنّها كاليدونيا، وتلك السّفينة، الّتي أبحرت تضرب المياه حولها تاركة خلفها الوطن والأهل ورائحة الحياة.

سفينة تقلع من باريس إلى مكان مجهول، لم يكن الغرض نفيا سياسيّا، وإنّما كان مدروسا جدّا.

سي عبّاس بعباءته البيضاء الباليّة، وحذائه القديم الّذي تشقّقت حوافه، يجلس مع باقي المنفيّين بحراسة مشدّدة، وكأنّ البحر سيفتح لهم طريقا للنّجاة.

يتقدّم الجنديّ منهم ويضع بعض المأكولات أمامهم، ينظر إليها الجزائريّون، فيكتشفون أنّها لحوم محرّمة، يتبادل سي عبّاس مع البقيّة نظرات التّحذير، فتسير الرّسالة بسرعة إلى عقولهم الّتي أنهكها السّفر.

- إنّه لحم الخنزير.
- لن آكله.
- معنا تمر وماء، يمكننا التّحمّل.

لكنّ الرّحلة طالت جدّا، ونفد الزّاد ونفد معه الصّبر على الجوع، من يقع من فرط تعبه وجوعه ويفارق الحياة، يُرمى من أعلى السّفينة، هكذا كانت الرّحلة، لم تكن مسلّية، ولا عادلة ولا هي حتّى محاكمة متعارف عليها.

وصلوا جزيرة كاليدونيا، كان ذلك أفظع ما يمكن أن يحصل معهم، يُؤمر المنفيّون بحفر حفر عميقة، ويقفون وسطها، ليتدرّب الجنود على الرّماية فوق رؤوسهم، بحيث توضع قبّعات، إن أصابت القبّعة فهذا رائع، وإن أصابت الشّخص ومات، فهو قد أخطأ ويعيد الكرّة مع البقيّة.

مع سي عبّاس، اكتشفوا أنّ شخصا آخر، نفي بدلا عن أخيه، ولم يظهر عنه أيّ خبر إلى الآن.

ها هو زوج الخالة يدخل ومعه "الطّالب".

آه منك يا ابن الغالية، أنا لا أستطيع أن أرفض لك طلبا، سأفعل كما لو أنّك أحد أولادي، أو كأنّ أمّك مازالت على قيد الحياة.

قامت تحمل إناء به الحنّاء، توزّعها برفق على يدي روز، وهي خاضعة لها مبتسمة، تتأفّف من برودة الحنّاء على كفّها.

على وجهها فرحة طفوليّة بهذه المادّة الباردة في جوّ حارّ، تنظر إلى الحنّاء، وإلى وجه الخالة الّذي احمرّ وتغيّر لونه، كأنّها أحسّت بها، فأبعدت يديها برفق قبّلت رأسها وغادرتها، أمّا الخالة فكي تداري قلقها ورفضها زغردت ببكاء.

حضر الجيران والمقرّبون فقط، وتعالت الزّغاريد والأهازيج الشّعبيّة تلك الأغنيّات الّتي تردّدها النّسوة فرادى أو جماعات...

محمّد... محمّد صلّوا يا لوما عليه

سيدنا وحبيبنا ورابح من صلّى عليه

رغم نظرات الغرابة الّتي تلمحها في عيونهم، تُظهر روز سعادتها، لا تريد أن ينكّس أحدهم ليلة العمر، بدت عربيّة بزيّها، وتلك الحلي الّتي زيّنتها بها كريمة مكرهة، وغير مبدية أيّ سعادة.

الحاضرون غنّوا ورقصوا وتعشّوا، الرّجال في الخارج والنّساء داخل البيت، ثمّ أخيرا اختارت الخالة أحسن غرفة لتجمع العاشقين في الحلال.

ليلة العمر

أخيرا اقترب منها، اقترب كثيرا، وهو مرتبك يرفع عنها البرنوس، ويقبّل جبينها، تلك العادة الّتي لن يتخلّف عنها، ثمّ أمسك يديها ووضع خاتما

فضّيا لامعا في بنصر يدها اليسرى، ليكون قرب قلبها تماما، ستكونين داخل روحي أعدك، لن يفرّقنا سوى الموت.

الموت هنا هو ما كان يراه جلّول وحشا كاسرا، فرّقه عن كلّ الأحبّة، وأبعده عن حضن والديه، ومازال يزحف نحو عائلته الّتي تكاد تنتهي.

مهما كانت الظّروف سنكون معا يا روز، سأحميك وأهبك السّعادة الّتي تنشدين.

لم تتحدّث، بل كانت تستمتع بتلك النّظرات الّتي عشقتها فيه، تلك النّبرات، تلك مخارج الفرنسيّة الّتي صار يتقنها، بل يتفنّن في التّعبير بها، كأنّه فارس هارب من خضمّ الرّوايات، أشياء فيه مختلفة، جلّول متغيّر كثيرا، صار هادئا، ومركّزا معها أكثر، وعاشقا يقترب منها دون خجل، إنّه الزّواج ما يفعل ذلك، لامست وجهه بيديها، وقالت حلال... حلال...

أطفآ الشّموع، وأشعلا نيران الحبّ، يتمايلان كما أراد الله لهما أن يكونا.

جوان 1946

بقي ساعاتٍ خارج البيت، يحاول فعل شيء لمساعدة عائلة خالته في مصروفها،

جمع بعض الفرنكات ودخل مسرعا، يتصبّب عرقا، مناديّا:

- افرحي يا خالة، افرحي يا خالة...قد نجح حزبنا بأغلبيّة المقاعد، حزبنا أحباب البيان والحرّية بقيادة فرحات عبّاس كما تعلمين.

وصله صوته إلى روز في المطبخ مع كريمة، كانتا تعدّان بعض الطّعام، أسرعت إليه وهي تمزح، محاولة نثر بعض المرح كعادتها.

- يو يو يو كانت زغرودة مشوّهة كما وصفتها الخالة.

وضحكوا كثيرا، غير مهتمّين بكريمة الّتي لم تشاركهم الفرحة، ولا التفتت إليهم، كانت تغلي من الدّاخل، وهي تحاول إخفاء مشاعرها الّتي تخنقها يوما بعد يوم.

لم تستطع السّيطرة على نفسها، فراحت تضع القصعة أمامهم بقوّة، جعلت الكسكسيّ يتناثر منها ليسقط على الحصير، نظرت إلى جلّول وهي تقول:

- سامحوني أنتم أصحاب الدّار وأنا ضيفة.

وهنا اصفرّ وجه الخالة، فحاولت تغطية الأمر بسؤال جلّول.

- والآن بنيّ؟ ماذا بعد الانتخابات؟ ما هو مصيرنا مع الاستعمار الغاشم؟

قالت هذا وهي متحفّظة تجاه روز.

- نجحنا ب 72بالمئة من مجموع الأصوات، يعني جلّ المقاعد هي لحزبنا، إن شاء الله تتغيّر الأمور وتكون هناك إصلاحات في البلاد، سئمنا هذا الوضع يا خالة.

قال هذا ويده على يد روز في محاولة منه لتلطيف الجوّ.

الملاعق كانت تتضارب حول القصعة، والكسكسيّ باللّبن كان الطّبق الغالب على هذه المائدة البسيطة، كأغلب العائلات الجزائريّة.

الجميع منشغل بملء ملعقته وتمريرها نحو فمه، في حركات آليّة، ما عدا كريمة كانت تراقب جلّول وعروسه بعينين حانقتين، تحملان الكثير من الشّرّ والخبث والحسد.

أخفت الخالة أمّ العلوّ ذعرها، فهذا الفأل لا يبشّر بخير، حين تنسكب القهوة تكون هناك أخبار سارّة، لكن حينما ينسكب طبق ما من الطّعام فاحتمال لا خير فيه....

نعم، أحد الغائبين جائع جدّا، فكّرت في أحد أولادها، أو هي أخبار سيّئة لاحقة...

بينما هم كذلك يتبادلون المشاعر المختلطة، كلّ يفكّر حسب ما يمليه الوضع أمامه، فإذا بطرقات قوّية مباغتة على الباب، بدت الأصوات متداخلة خارجا، كأنّهم مجموعة من الأشخاص يتحدّثون العربيّة والفرنسيّة، فزعت روز وقامت بسرعة من مكانها، تبعها جلّول وعيناه تبرقان.

قامت كريمة تريد فتح الباب، لكنّ الخالة منعتها:

- انتظري يا مجنونة... والدك غير موجود، انتظري...

نظر جلّول لخالته، عيناها تتّسعان، ففهم أنّها تغمزه ليخرج مع عروسه من الباب الخلفيّ للحوش، هو باب ضيّق يؤدّي إلى ممرّ مهجور، يجلس فيه أحيانا المشرّدون أو الّذين تضيع بهم السّبل، أو السّكارى ليلا.

أمسك يدها، وضع على رأسها الحايك، وعلى رأسه عمامته، وامتثل لأوامر الخالة.

اقتربت أمّ العلوّ من الباب، وبدأت تسأل الطّارق:

- من؟ من بالباب؟

- افتحي، معك العسكر.

ارتجفت وقد صدق ظنّها، تلك الجلبة خلف الباب ليست سوى هذه الحثالة تبحث عن روز وجلّول، وسيدخل العملاء الأنذال أوّلا، فتحت الباب محاولة تهدئة نفسها:

- خير ماذا تريدون؟
- أين هو؟ أين جلّول وروز؟
- جلّول؟ ماذا به؟ هل حدث له مكروه؟
- أيّتها العجوز السّمينة لا تتعبينا! لا يذهب لمكان آخر إنّه هنا... هيّا فتّشوا المكان.

وبالفعل، قام العملاء ومعهم القايد بالتّفتيش السّريع وهم يلهثون، كمن يحاول تقديم هديّة لسيّده.

تدير عينيها نحوهم ونحو والدتها، كريمة تريد أن تقول شيئا، تحكّ يديها بعصبيّة، وكأنّها فقدت قلبها للأبد.

جذبتها إليها بقوّة، ومن خلال نظرتها لقّنتها ما تريده، لكنّها فلتت منها وهرولت نحو الضّابط، تريد قول شيء، وتصرّ على ذلك.....

- ماذا تريدين أيّتها المعتوهة؟
- آآآآ

تدخّلت الخالة، جذبتها مرّة أخرى وقالت:

- إنّها مجنونة.

ترجمها القايد لسيّده: elle est folle-

اجتمع العسكريّان في وسط الحوش، القصعة مازالت وسط الدّار وحولها أربعة ملاعق، نظرت إليه الخالة:

- كنّا ننتظر زوجي وهذه المهبولة دائما تضع ملعقة إضافيّة، حتّى أنّها سكبته على الحصير، انظر...

وصارت تساوى جوانب القصعة من الكسكسيّ، وما فرغ منها.

لكنّه تظاهر بعدم الاكتراث، وغضّ بصره ليفهم أنّهما هربا وأكيد سيعودان لاحقا.

مساء كئيب

هروب آخر كالهروب الأوّل من البيت، هل قُدّر لكما الهروب المتواصل في هذه الحياة؟

تساءل وهو يسير مع روز في طريق فرعيّ، يؤدّي لدوّار سيدي بن عيسى.

- مشينا كثيرا أحسّ بالتّعب.

جلست وقد خنقها الحايك ومنع عنها الهواء، الجوّ الحارّ، والهروب المتواصل، وأفكار سرعان ما تلوّنت بالسّواد، فرحة لم تكتمل للأسف.

- ماذا نفعل الآن؟ إلى أين نذهب؟
- لا نستطيع العودة، والدك يبحث عنّا يا روز، لا يهدأ حتّى يجدك.
- إلى كنشورة، ردّت.
- ولكن؟؟؟؟
- جوجو سنعيش هناك، لن يجدنا أحد.

- وكيف سنعيش؟
- الله يتدبّر أمرنا.
- اللّيلة سنبيت هنا، لديّ صديق ابن خالتي العيد أعرفه منذ مدّة، يدعى بن عيسى.

صمتت، كان قلبها الصّغير يحدّثها أنّ المشاكل مع والدها لن تتوقّف، وأنّه سيبحث ولن يملّ ذلك أبدا.

سارا بين الحقول وأشجار الزّيتون، كانا يضحكان تارة ويصمتان أخرى، وهي تجرّ الحايك جرّا متأفّفة من ثقله، ومن حرارة ارتفعت في جسديهما المتعبين.

سألته:

- ماذا لو نستقرّ هنا في هذه القرية؟ أليست أفضل من كنشورة؟

طأطأت رأسها:

- وتلك الخنازير المتوحّشة، من أدراك أنّها لا تعيش في كنشورة؟

ابتسم بحبّ، أمسك يديها معا، حدّق في وجهها قائلا:

- ما دمت معكِ لا تخافي أبدا.
- تعرف؟ اشتقت لأولاد الميمون، ومنزلي ووووو
- أواه... لا تقولي ذلك، لم نكمل الشّهر بعد، وها أنت كالطّفلة الصّغيرة المدلّلة.

أمسك يديها من جديد، قبّلهما، وأكملا الطّريق يتهامسان.

وصلا أخيرا إلى القرية الجميلة، لا شيء هنا يدعو للقلق، فالبادية أكثر بساطة، وأكثر راحة، المحبّة فيها مجّانية، لن يطالبك أحد بشيء مقابل وجهك المبتسم على الدّوام، لن يغضب منك أحدهم، لأنّك عن غير قصد

تجاوزته في مناسبة ما، ولن يتخلّى عنك الجميع، إذا تعثّر حظّك وخانتك الأيّام.

في البادية، الطّبيعة الأمّ تحنو على الجميع، ولا تستثني سوى من يربك مواسمها، ويخلط مواعيد ربيعها بأنانيّة البشر.

- أعجبتني، ربّما سنستقرّ هنا، قالتها روز بزهو كبير.
- وهل لدينا خيار آخر؟
- كنشورة؟

وانفجرا ضاحكين.

بن عيسى شابّ طويل القامة، بشعر كثيف، وعضلات قويّة، يمشي متباطئا، لا يتحدّث كثيرا، وقليلا ما يبتسم.

في البداية خافت منه روز، لكنّ جلّول طمأنها:

- إنّه طيّب جدّا وخدوم، أعرفه يا روز لا تخافي.

اقترب منه بن عيسى يعيد التّرحيب بهما:

- يا مرحبا يا مرحبا... المهمّ الآن يا جلّول، غيّر اسم زوجتك، واسمك.
- وهل هذا مهمّ؟
- نعم جدّا، حسب ما أخبرتني به، فالألسنة هنا لا تتوقّف عن اللّغو، والعيون في كلّ مكان تترصّد، وأنت من الآن مُراقَب، هل نسيت أنّ البادية أيضا مستعمرة؟
- حسنا، أنا اسمي غريب من الآن، وزوجتي مينا، تبرّكا بذاك الواد الّذي تركناه خلفنا، رغم ما يصنعه بنا فهو في ذاكرتنا خالد يا صديقي.

ما رأيكِ يا روز؟

أخفضت رأسها قائلة:

- نعم يا قريب، أنا مينا وضحكت.

وضحك بن عيسى ضحكة إعجاب بهما، ثمّ دعاهما لبيته.

بيت بن عيسى من الطّوب كغيره من البيوت في ذلك الوقت، إنّها المنازل الّتي تبنى بتكاليف أقلّ، وتُهدم مع كلّ غلطة يرتكبها صاحبها، حتّى ولو كانت غلطة بعيدة عن السّياسة، والتّعبير عن الرّأي.

لم يترك بن عيسى تلك اللّيلة تمرّ هكذا، كان اللّيل باردا ومنعشا، ترك مينا مع زوجته، وخرجا يتفحّصان مكان بناء البيت الجديد.

ها قد ارتفع الكوخ شامخا بطوبه، ومدخنته وبابه الخشبيّ، لقد نجح جلّول وصديق ابن خالته في بنائه في مدّة وجيزة، كانت مينا ترمقه بفرح، تحدّث نفسها:

- هذا أفضل بكثير من كنشورة وتلك الخنازير المتوحّشة.

زوجة بن عيسى علمت بسرعة أنّ مينا ليست عربيّة، وأنّ زوجها لم يخبرها الحقيقة، لكنّها طيّبة وتبدو بأنّ الحياة لقّنتها الكثير، راضية ببساطة البدو، بل إنّها سعيدة جدّا، كطفلة لم تصفعها الحياة بعد.

- عرفت أنّها روميّة، هل تظنّني غبيّة يا بن عيسى؟

التفتَ إليها:

- إيّاكِ ثمّ إيّاكِ... أن تقولي شيئا.

- هههههه وهل الأمر سرّيّ للغاية؟ هي من مظهرها تبدو روميّة يا رجل، وزد على ذلك شعرها الأشقر، والعربيّة المكسّرة تكسيرا.

نادتني كدّومة، يعني دومة، أنا صرت دومة؟ هههه

- والله معك حقّ، عليها أن تدّعي الخرس إذا أرادت النّجاة بنفسها، وأنتِ يا خدّومة لا تقولي شيئا حتّى لي أنا.

هزّت رأسها موافقة، إنّه يعرفها امرأة صادقة، يعوّل عليها في مثل هذه المواقف، التفتت نحو الشّمعة، نسفت عليها عدّة مرّات، انطفأت، لتغيب الأجساد المنهكة في نوم ثقيل.

الغريب

جاء بن عيسى صباحا، يحمل بطّيخة وإبريق قهوة:

- اسمعني يا الغريب... عليك أن تطلب من زوجتك ادّعاء الخرس، هذا هو الحلّ، النّساء هنا ثرثارات، وسيتعرّفن عليها بسرعة لو تحدّثت، وأيضا تخفي شعرها أو تصبغه بالحنّاء مع خدّومة، ما رأيك؟

وضع يده على كتفه، والله فكرة رائعة، وهل تقبل مينا؟

لكن خدّومة صارت كدّومة، سنرى... وضحكا معا.

تذكّر جلّول عمّته، لابدّ أنّ جاك زارها واستجوبها بقساوة، مسكينة ليست مستعدّة لهذه المتاعب مرّة أخرى، سأرسل إليها مبلغا من المال يساعدها على تجاوز هذه المرحلة، أو أزورها ليلا، ولمَ لا؟

في ليلة خريفيّة مرتجفة، تهزّ حولها شجيرات الزّيتون، وأبواب الأكواخ الخشبيّة، حنّ الغريب لعمّته، وجال بخاطره الوعد الّذي قطعه لها، لن

يهدأ الآن، الخريف يوقظ في روحه زوابع الماضي، كيف له أن يستكين؟ وتلك العزيزة الضّاوية تعيش وحيدة ممزّقة من كلّ شيء؟

نعم إنّها وحيدة مع طفل تعوّض به غياب سعيد الّذي لم يظهر منذ سنوات، حمل "الحلاس" وضعه على ظهر الحمار الرّمادي، ضرب بيده على ظهره وهو يقول:

- لن نهتمّ بهذا الجوّ البارد يا صديقي، هيّا إلى الضّاوية.

مشى طيلة اللّيلة إلى ولاد الميمون، مرّ في طريقه على قنشورة، تلك القابعة في أعلى الرّبوة، حياة منسيّة هناك، قبور مبعثرة من آلاف السّنين، وصخور منتصبة على شكل غرف مستوية، كلّ شيء يدلّ على أنّ الحياة كانت هنا.

خيّل إليه أنّه يسمع جلبة في الأعلى، صوت أحصنة، أصوات نساء وأطفال، يمرحون ويتصايحون، حتّى لغتهم مختلفة تماما.

توقّف وواد مينا يصدر صوته المعتاد، نزل عن الحمار، غرف من المياه الباردة، وشرب قليلا، خفق قلبه بشدّة، رأى أضواء في الأعلى، ركّز جيّدا، كانت الأضواء تشتدّ وتقترب منه.

عاد إلى الخلف محاولا الهرب، لكنّه عدل عن فكرته، اختبأ خلف الدّفلى، أزاح بعض أعرافها ليراقب هذه الأضواء ومصدرها، عجبا، اختفت الأضواء ما هذا الّذي أرى؟ ركب الحمار، وغادر يردّد المعوذتين، لم يلتفت خلفه ولا حاول معرفة شيء على الإطلاق.

كان واد مينا يرافقه طيلة الطّريق، وصل مع الفجر، ترك الحمار بعيدا، وراح بخطوات متفاوتة يسابق الرّيح، يحاول أن يتخفّى من كلّ شيء.

دقّ دقّات خفيفة، سمع هناك حشرجة داخل الكوخ، وأنينا خافتا مجروحا، فتح الكوخ، ليقف مشدوها لما رآه، جفّ ريقه وهو ينظر إليها، ركع على قدميه، وضع رأسه بين يديه، واستجاب لبكاء مرّ.

سعيد "لويس"

إنّه في الثّانية عشرة من العمر، لم تتغيّر ملامحه، لكنّه تغيّر في طباعه، صار شديدا بنظرة حادّة، وجدّيّة واضحة على ملامحه، كان والده مايك يمازحه:

- ستكون ضابطا أو جنرالا في الجيش، تبدو عليك صفات القيادة يا بطل.

يردّ سعيد أنّه يودّ إكمال دراسته وحتّى الدّكتوراه، وبعدها يرى ما يفعله لكنّ أمّه لها رأي آخر، هي تريده لمهنة الطّبّ النّبيلة، كما هو متعارف عليه لكلّ الطّلبة المتفوّقين.

وبين هذا وذاك سيسلك سعيد طريقا آخر، طريق لم يختره هو، بل وجد نفسه يسير إليه بدافع حماية الوطن فرنسا.

في هذه السّنّ تلاشت من ذاكرته كلّ تلك الصّور الشّفّافة عن امرأتين، إحداهما تزوره من حين لآخر فتشبعه حبّا وحنانا، وأخرى هو في حضنها ينعم بدفء الجدّة الطّيبة.

ابتعد كلّ هذا عنه، إنّه الآن شخص آخر حرّرته تلك الذّكريات من ماضيه الّذي ربطه بخيط رفيع بحاضره القريب.

نسي كلّ شيء، ولم يعد يسأل عن العرب، كان فرنسيّا تماما في مظهره، وتكبّره ومشيته الخفيفة المنتظمة، إلاّ وجهه، وجهه عربيّ، هذه الملامح لا يمكن أن تكون إلاّ لواحد من سكّان تيارت الأصليّين.

كانت صوفيا تقول هذا لكاترين، هذا الفتى عربيّ، هل خنتِ زوجك يا كاترين؟ آه يا ملعونة، هل تورّطتِ مع عربيّ؟ في الحقيقة رجالهم شهامة وجمال، وغيرة على نسائهم رغم الفقر والحاجة.

لم تعلّق كاترين، بل اصطنعت ابتسامة، وراحت تغنّي مع الموسيقى الّتي كانت تدور بأسطوانة وصلتها من باريس تقول:

كان هناك سجين لا تراه سوى ابنة السّجّان
كانت تحضر له الطّعام والشّراب
وقمصانا بيضاء كلّما احتاج لتغييرها
في أحد الأيّام سألها: هل تودّين الحديث معي؟
يقولون في المدينة أنّك ستشنق غدا
بما أنّني سأموت غدا فكّي القيد عن قدمي...
الفتاة كانت صغيرة وساذجة وفكّت القيد عن قدمه
هرب السّجين ورمى نفسه في النّهر....

- تحبّين أغاني السّجون؟

- أحبّ كلّ ما هو رومانسيّ، ليتك يا صوفيا فقط تكفّين عن مراقبة ولديّ؟ قالتها بتأفّف.

- ألا تلاحظين أنّهما يتشابهان؟

- نعم نعم

تضحك صوفيا وتقول:

- أحلف لكِ بالرّبّ أنّه عشيقك نفسه، أموت وأعرفه.

أظهرت كارولين بعض الغضب، فأوقفت الموسيقى واستدارت إليها:

- لا... لست أنا من تخون زوجها. ومع من؟ مع عربيّ قذر؟

أعادت الموسيقى وهي تحاول تهدئة نفسها، لكنّ صوفيا لم تتوقّف عن استفزازها،

- الحبّ لا يعرف العرق ولا القذارة ولا أيّ شيء.

- نحن في سنة 1947 يااااه كم مرّت الحياة سريعة، ورتيبة ومملّة، في هذه البلاد البائسة، مندهشة كيف لنا أن تركنا منازلنا وحياتنا وجئنا إلى هنا؟ ماذا يوجد هنا؟

انظري، الفقر، التّشرّد، الجوع، وزيادة على ذلك هناك سطو على منازلنا والعسكر يتفرّجون.

ردّت كارولين بثقة واضحة:

- في الحقيقة أنا هنا مرتاحة جدّا، تيارت تبدو لي مدينة رائعة، تعالي انظري من النّافذة، أرأيت؟

كلّ تلك المناظر الخلاّبة من هنا، غابات الصّنوبر، وهناك بنايات عثمانيّة وأخرى إسبانيّة...أراها رائعة

كانت صوفيا تتأمّل المناظر خارج النّافذة، وعيناها مشدودتان إلى منظر غريب، جذبها بقوّة.

هو منظر امرأتين تجلسان في ركن من الشّارع، لم تكونا متسوّلتين لكنّهما كانتا ترفعان أعينهما إلى الشّقّة.

شيء ما تخفيه كارولين، هذا الجانب المظلم في الحكاية، لولاه ما تعكّرت حياتها في الجزائر، تبكي بدموع النّدم، إنّها تفكّر في أمّ سعيد وأمّ شارل، كيف لهما أن تصبرا على لوعة فراقهما، تبكي لأنّها اختطفت هذه الفرحة من عينيهما، ونسبتها إلى نفسها، تبكي لترتاح من عذاب الضّمير، تبكي سرّا بعيدا عن نظرات طفليها المرحين هناك.

أمّا سعيد فكان حين يراها على هذه الحال، يبكي معها، جاهلا مشاعرها، فتضمّه إليها، وتمسح رأسه بيديها قائلة:

- لا بأس يا بنيّ الرّجال أيضا يبكون.

الضّاوية

عاد جلّول الغريب، وقد هدّه حال العمّة الّتي كانت تعاني المرض والوحدة.

لم تنعم طويلا بالصّغير، فقد استرجعته أمّه في غيابها، واستسمحتها أن تربّيه لأنّ حالتها لا تسمح بتربيّته، وكيف تستطيع وهي المرميّة هناك في ركن

ما تنتظر الموت فقط، بعد كلّ هذه الطّعنات، السّجن، ضياع فلذّة كبدها، الحمل.....

لقد فطر هذا القلب مرّات ومرّات، هكذا هو قدرها، تصنع الفرحة فتسلب منها، وفي كلّ مرّة تنتكس وتصاب بحالة شديدة لليأس والكآبة، لكنّها أبدا لم تتوقّف عن زيارة المكان.

إنّها تراه من بعيد، بل تراه فقط من خلال تلك الشّرفة البعيدة هناك، تكتحل العين وتتنفّس الرّوح برؤياه.

كلّ شيء جميل انتُزع منك يا الضّاوية، ماذا تنتظرين من هذه الحياة؟

تراءت له صورتها منزويّة في ركن الكوخ، هزيلة الجسم، صارت لا تُعرَفُ بملامحها الّتي ظهرت كجلد وعظم، وتبدو قد هرمت عشرين سنة أخرى.

قبّل يديها وحضنها، عمّتي...

- أنا جلّول...

- جلّول... جلّول وبكت.

هنا، لم يقل شيئا غير صمت ذبحه.

فهم منها أنّ قالا وأخاه عذّباها كما يشتهيان، نفسيّا وجسديّا، وقد دفعت ثمن فعلته تلك، هروبه كسرها أكثر ولا تعرف إن كانت ستقف من جديد وتواجه مصاعب الحياة القادمة.

ابتعد عنها قليلا وقد قرّر أن يأخذها معه المرّة القادمة، لا يمكن تركها هكذا.

- عمّتي أنا في دوّار ولاد بن عيسى، إذا تستطيعين المشي، تعالي وعيشي معي أنا وروز.

أخذ يديها من جديد، وقبّلهما أنت بمثابة والدتي، وكلّ ما تبقّى من عائلتي، أرجوك فكّري.

هزّت رأسها، لم يعرف إن هي موافقة أم لا. أحضر لها بعض الخبز والماء يبدو أنّ الجيران يهتمّون بإطعامها.

كان الفجر قد نشر أنواره الخافتة، وصار عليه أن يغادر فورا، وإلّا سينكشف أمره، ولا يعرف عدد العيون المترصّدة هنا وهناك.

لم يطل الانتظار أكثر، بعد مدّة تحاملت على نفسها، جمعت ملابسها الباليّة، أغلقت باب الكوخ وراءها وإلى الأبد، التفتت إلى قرية ولاد الميمون، كم هي جميلة هذه الأكواخ الدّافئة، لكنّ الوحدة قاتلة أيضا، ربّما سأعود يوما ما.

وصلت مع المساء متعبة، مرهقة، كانت تسأل عن جلّول، لكن لا أحد عرفه.

طفل صغير:

- عمّي عمّي هناك امرأة تبحث عن جلّول، أخبرتها أنّه غير موجود.
- أين هي؟ ولماذا قلت ذلك يا ابن الكلب.

خرجا مسرعين إلى الطّريق المخضرّ على جانبيه أشجار الزّيتون.

- هناك هناك ...يا خالة يا خالة ...

التفتت الضّاوية إليهما، كانت خطواتها بطيئة يائسة، ونظرات باردة غير مباليّة بشيء.

- أعرفه تعالي أدلّك على بيته، لعلّك تقصدين الغريب وزوجته مينا، وغمزها بعينه اليمنى.

لم يصدّق جلّول ما يرى.

- عمّتي... يا أهلا وسهلا ومرحبا. وضمّته إليها.

هذا المساء مختلف تماما، نعم هو سعيد أنّ عمّته الآن أمامه، سيهتمّ بها كوالدته وأكثر، وصار كلّ مرّة يوصي روز بها خيرا.

تنظر إلى روز وتبتسم، لقد تغيّرت بلباسها العربيّ وشعرها البنّي، تكاد لا تُعرف لولا هذه اللّكنة المتقطّعة.

1947

- عمّتي، سأنضمّ للمنظّمة.

قال جلّول وهو يبدي بعض الحسرة.

- ولماذا تقولها بحزن؟ هل ستتخلّى عن فرحات عبّاس؟

- برأيي التّحاور مع فرنسا لم يعد مجديا، ما أُخذ بالقوّة لا يُستردُّ إلاّ بالقوّة.

كانت روز تنظر إليهما، تحاول إخفاء تأثّرها، تريد أن تقول شيئا، هي ليست مقتنعة بحمل السّلاح، لا تريد الحرب مرّة أخرى، الحرب العالميّة الثّانية كانت قاسيّة على البشريّة حتّى وهي بعيدة عن الجزائر.

لكن هذه الحرب ستكون هنا، وهي فرنسيّة وزوجها جزائريّ، فمع من تكون؟

إنّه يذكر الأسماء بفخر أمام عمّته، وهي تحاول إخفاض صوتها:

- من بلوزداد هذا؟

- ليس وحده هو مع الكثيرين؟ وسأكون معهم.
- لكنّك لم تشارك في الحرب الماضيّة... قالت هذا ونظرت مجدّدا لروز
- لا تخافي عمّتي روز صارت منّا.
- أنت لم تشارك في الحرب ضدّ ألمانيا... ولم تحمل سلاحا في حياتك، ثمّ كما ترى فرنسا ليست هيّنة وشعبنا أعزل.

كانت انعكاسات نار الكانون على وجوههم، وإبريق القهوة على النّار، يوزّع رائحة الأرض، الطّبيعة، والبداوة، شعلة تظهر في عينيه من بعيد، تعيد تشكيل كلّ الأفكار الّتي ظلّت حبيسة صدره، سيقول كلمته ولن يتوانى في ذلك.

في صباح مختلف، عاد جلّول مسرعا يحمل جريدة بين يديه، إنّه يضحك كطفل وجد لعبة جديدة مسلّية:

- عمّتي عمّتي...أبشري... قام أعضاء المنظّمة السرّية بالسّطو على مركز بريد وهران، إنّها أوّل عمليّة قام بها رجالنا، نمّيش بختي، وبن بلّة، وحمّو بوتليليس.....

غمزته قائلة:

- لا داعي لذكر الأسماء كلّها، أنا أعرف من يكونون...

للمرّة الألف يحلف لها أنّ روز معهم ضدّ الظّلم الّذي تراه، إنّها تعيش معنا يا عمّتي انظري.

تعافت الضّاوية تماما، فقامت لمساعدة روز في عجن خبز الشّعير، جمعت الدّقيق وراحت تخلطه بالماء وبعض الملح، ثمّ جعلت تضرب الخبزة وهي تدير القصعة بيدها اليسرى، وضعتها في وسط الطّاجين

السّاخن فوق الحطب، قالت وهي تلمّح له أنّ المال لا يكفيهم، عليه أن يبحث عن عمل ولا يعتمد على كرم صديقه.

ميلاد

مرّت أشهر عجاف، أنجبت روز أوّل مولود لها، أسموه على اسم جدّه بن عمر كان يشبهها عينان ربيعيّتان وشعر أشقر ذهبيّ.

لا أحد كان يعرف أفكار جلّول، إنّه يعود مساءً محمّلا ببعض الخضر والفواكه، وجد عملا يسترزق منه في مدينة الرّحوية، ولا أحد يمكنه التّعرّف عليه، فقد أطلق لحيته وغيّر من شكله كثيرا.

العمّ جبّار، صاحب الدّكّان، يعرف جيّدا من هو الغريب، وكيف أنّه يحمل القضيّة في روحه، الهدوء الّذي يسود الأماكن والأشخاص، وحتّى التّحفّظات كلّها مريبة.

- ولدي الغريب، أردت سؤالك؟
- نعم عمّي.
- هل حقّا هناك تنظيم يستعدّ للثّورة؟

التفت جلّول مندهشا، ثمّ ما لبث أن استدرك الأمر، فاصطنع التّجاهل.

- لا لا أدري، عن أيّ ثورة تتحدّث؟

أعاد العمّ جبّار سؤاله بثقة وبلغة واضحة، كمن يعرف بالأمر وهو فقط يودّ التّأكّد.

- الثّورة... تفهمني أليس كذلك؟

حمل جلّول صندوق البطاطا على كتفه، وابتعد خطوات عن الدّكّان:

- سأوصل هذا إلى الحاج فرّاح وأعود، السّلام عليكم.

لم يتوقّف العم جبّار عن التّفكير في الموضوع، إنّها علامات جيّدة لهذا الشّاب يبدو قادرا على تحمّل المسؤوليّة. هزّ رأسه بغبطة داخليّة ودلف إلى الدّكّان.

في المساء وضع ولده في حجره هو بعمر الأربع سنوات، إنّه يتحدّث الفرنسيّة والعربيّة ببطء، ودود جدّا وهادئ، كأمّه تماما.

- روز أودّ إخبارك بشيء.

كان متردّدا وحائرا بين إخبارها أو ترك الأمر للّحظة الأخيرة.

- نعم ماذا هناك؟ هل ستغيّر العمل؟

ضحك ورفع الصّغير إلى حضنه، بعد أن تربّع على الحصير، ليضع ذراعه تحت رأسه:

- لالا ليس هذا ما أريد إخبارك به، هناك شيء آخر

وأخفض صوته قليلا، اضطرّت أن تضع القدر الفخاريّ وتقترب منه:

- علينا أن نستعدّ للثّورة سأكون أنا .....وصمت.

لأنّ الضّاوية دخلت عليهما وهي تحمل سجّادتها المصنوعة من الدّوم.

- عمّتي هناك ثورة، نحن نخطّط لها وإذا أردت المشاركة...

- ثورة؟

وضعت السّجّادة على طرف الحصير وجلست بقربه.

- بالطّبع وهل خُلقت أنا لغير ذلك؟

كانت روز تنظر إليهما صامتة، تحوّل نظرها من زوجها إلى عمّته، وأخيرا نطقت:

- إذا كان هذا ما يعيد الوطن لأصحابه أنا معكما.

نظر للصّغير، أنت مع هذا، وهذا عملك، لن تحتاجي لشيء، سأرسل إليك ما تحتاجين إليه.

اصفرّ وجهها وارتفعت ضربات قلبها، جلست إلى يمينه، شدّت كتفه:

تقصد أبقى وحدي هنا؟ لالا يا جلّول نعيش معا أو نموت معا.

- إنّها الحرب يا روز، والصّغير لا يتحمّل، وليس لنا قريب نتركه معه، وعمّتي نحتاج إليها، أمّا أنت فهذا بحاجتك الآن.

التقت نظراتهما، كانا يتحدّثان بحماس، وروز تنفعل ثمّ تعود لتصمت:

- خائفة أن أكون وحدي، خائفة جدّا.

ساد صمت آخر، الضّاوية لم تقل شيئا، سوى أنّ وجهها انشرح، ولمعت عيناها، وارتسمت الفرحة عليه وقد غطّته التّجاعيد، فأخفت الكثير من جماله.

الخريف أسقط كلّ أوراقه، تطايرت كما ذرّات التّراب الخفيفة، ليلة باردة من الخامس عشر أكتوبر، لم يبق الكثير على الموعد المحدّد، ولم يستطع العم جبّار معرفة أفكار جلّول ولا هو علم عنه شيئا.

الأنذال يحيطون بكلّ شيء، يزرعون الآذان خلف الحيطان، وهذا سرّ الوطن، من يجرؤ على اختراق هذا الصّرح العالي من الوطنيّة، لبّيك يا جزائر، يقولها بينه وبين نفسه، هذا جلّول في بيته فرنسيّة، كيف ستكون البداية؟ وهل سينجح في مهمّته؟

اقترب الموعد، ولم تصله أيّ إشارة بتحديد الوقت المناسب، ولا كلمة السّرّ المتّفق عليها.

وليلة أوّل نوفمبر 1954 حين اندلعت الثّورة فعليّا، كان جلّول قد امتطى حماره وخرج من الدّوّار هائما على وجهه، صار قلبه يعتصر، وروحه أحسّها ذليلة مُهانة.

- هل شكّوا بي؟ كيف يتجاهلونني هكذا؟

نزل على أرض محروثة، فتمرّغ عليها، تكوّر وتكوّر، رفسها، حمل بعض الصّخور ورماها بعيدا، صارخا بأعلى صوته، دمعٌ وحزنٌ وأسىً، وطنه يرفضه، يرفض خدماته، يرفض روحه الّتي يقدّمها على طبق من ذهب.

ارتعب الحمار، فانطلق يجري بعيدا، ممّا اضطرّه للعودة مشيا على أقدامه، عاد منهكا، وقد علق به تراب الحرث، نفض ملابسه خارجا وتسرّب إلى فراشه دون أن يوقظهما، لكنّ روز لم تنم، كانت تنتظره:

- جلّول، عمّتي الدّاوية غادرت مع أحدهم، سأل عنك أيضا.

انتصب واقفا:

- ماذا؟ سأل عنّي؟ هل هو من الثّوّار؟

تلعثمت روز:

- لا أعرف، لكن يبدو جادّا، والدّاوية عرفته فورا.

شدّ رأسه، وانخفض، راحت الفرصة.

ليل طويل في حياة الغريب الحزين، ليل لم يعرف له نهاية، كانت أفكاره ترحل بعيدا خلف تلك الجبال، الأسامي الأخرى، والدّروب الصّعبة بين مشرع الصّفا والرّحوية، وتحديدا في منطقة "قنشورة" جبل "غزالة"

- قنشورة، كيف نسيتها؟

انتفض من مكانه والفجر يقترب من البزوغ، حتّى الضّاوية وجدت لها مكانا إلاّ هو.

جاء الفرج أخيرا، وصل جلّول قنشورة على حماره، راح يجلس عاليّا على صخرة عجيبة مثيرة للتّساؤلات، كيف وُضعت هذه، بهذه الطّريقة هنا؟ والمكان مرتفع جدّا... وذاك الزّمن لم يكن سوى للعمل والجهد العضليّ؟

سرح بعيدا مع مجرى مينا، يتتبّعه بعينين حزينتين، كانت مشاعره مختلطة لا يميّز ما يحسّ به، منذ فترة سمع أصواتا، سمع ضحكاتٍ رقيقة، وأحاديث تشبه الموسيقى، لم يميّزها جيّدا، هل هو خائف؟

لا أبدا لم يعد يخاف الأشباح، فلربّما كانت هي الكائنات الوحيدة الّتي لا تؤذي، كيف لهم أن نسوه بهذه الطّريقة؟ كيف تعاملوا معه بتجاهل كبير؟ وكأنّه نكرة، وهو الّذي قدّم للحزب الكثير. "يا كاف الرّخم ما راه جايك من همّ"

يضحك وهو يتذكّر هذه المقولة، بناء السّد لأوّل مرّة، كان به الكثير من طير الرّخمة، مرّ أحدهم ونظر إليه قائلا هذه الجملة، والّتي تدلّ على سوء العاقبة، إذ ذاك المرتفع قد هُدم وغادرت كلّ تلك الطّيور.

كانت رائحة الطّين تقترب من أنفه الصّغير، وحكايات جدّته تدور في عقله كما تدور أصابعها على الفخّار، تنفخ فيه من روحها.

(يا جلّول اتّبع قلبك، هو من سيدلّك إن كنت تريد العمل في الفلاحة أم لا؟

اسمعني، الأرض أرضنا، وحتّى إن عملت بلا مقابل، فهذا التّراب لن يكون سوى لنا، تذكّر ما أقوله لك، إن كانت هذه الدّمعات على رحيل بن باديس

فأنت لم تتعلّم منّي شيئا، وأمّا إن كانت على أمر أجهله، فذلك حال قلبك، ولا أريد أن أعرفه رغما عنك)

رفع أصابعه ليمسح دمعاته، وصوتها مازال يتردّد في ذهنه.

"كانت على بن باديس يا جدّتي" نعم حزنت جدّا لموته، رغم أنّه قدّم ما عليه، تمنّيت أن يعيش أطول لربّما تغيّر حالنا.

وهذه الدّمعات الآن يا جلّول يا غريب ما سببها؟ أتبكي مثل النّساء؟

ما زلتِ قاسيّة يا جدّتي، أم أنتِ تدّعين ذلك؟

كنتُ أعرف أنّ صلابتكِ مصطنعة لأجلي أنا وسعيد، كنت تعتقدين أنّ تربية الولد تحتاج لذلك، فدُستِ على حنان الأنثى بداخلك، لتتزوّد منك بصفات الرّجال.

توقّف عن التّفكير وهو يسمع صوتا من بعيد يناديه:

- جلّول يا جلّول ...يا جلّول...

انتفض من مكانه أطال عنقه إلى أسفل قنشورة، جهة وادي مينا، كانت الدّفلى وجريان الماء وأصوات الطّيور فقط، لا أثر لبشر.

- جلّول يا جلّول...

التفت يمينا إلى الشّلّال، كانت مجموعة من الرّجال تسير على البغال والحمير، محمّلة بأكياس بنّية من الخيش يتطلّعون إليه، صار الصّوت يقترب أكثر:

- جلّول يا جلّول

إنّهم يعرفونه، تعجّب وهو بعيد بمسافة لا تميّز أحدا، نزل بسرعة وقد ترك حماره في الأعلى، اقترب منهم، كان يتأمّلهم وهو غير مصدّق ما يرى، لم يطل الوقت، فقد هجم عليه أحدهم يعانقه:

- عرفت أنّك أنتَ، قبّعتك الحمراء لا أخطئها، وغرقا في ضحكات متقطّعة.

بينما استعاد روحه وهو يبتسم:

- مازلتَ كما أنت لم تتغيّر، تسخر من كلّ شيء.

ابتعد منصور قليلا وقال:

أين كنتَ يا رجل؟ بحثنا عنك لأجل مهمّة خطيرة لا ينفّذها إلاّ أنتَ.

- هل أنت مع ال..... ونظر للمجموعة.
- نعم أنا معهم....
- وأنت يا خالد؟ وعليّ؟ يا لكم من أوغاد!

وهنا راقب وادي مينا جيّدا لقاء الرّفاق، وشهد على العهد والوعد.

سعيد وجلّول

كان غاضبا جدّا، نادى الجنديّ قائلا:

- أدخلوه، أدخلوا ذاك النّذل.

لحظات قليلة وكان الغريب يُركل مدفوعا إلى الأمام، بأرجل الجنود الحاقدة.

لم يُصدر صوتا، كان يكابر ويكابر، يحاول إخفاء صرخات الألم الّذي يرافقه منذ أيّام، منذ القبض عليه في ذلك الصّباح المشؤوم.

حين تسلّل إلى داخل المدينة، يحمل رسالة إلى عابد الزّيات، رسالة فيها من الأخبار الكثير، حول المخابئ الموجودة بالعفافنة وسدّ بخدّة، والجيلالي بن عمّار، وزدامة ووو... وحتّى قائمة الفدائيّين، والّذين يحضّرون لقدوم سي المجدوب لجبل غزالة هذه الأيّام، عدد الجنود، عدد الأطبّاء المتعاونين، عدد الممرّضين، وحتّى العناوين. دخل المدينة متخفّيا كعادته، عدّة مرّات نجح الأمر، لكنّ هذه المرّة، لم تسلم الجرّة، أمسكه الجنود على حين غرّة، وطلبوا منه رفع يديه من بعيد، ليتأكّدوا أنّه لن يباغتهم بسلاحه، قبل رفع يديه، أخرج الرّسالة وضعها في فمه ورفعهما من جديد.

قبل وصولهم، ابتلعها ورسم ابتسامة خبث على وجهه، إنّهم يعرفونه، يعرفون وجهه، هذا الغريب، وصوّبوا نحوه بندقيّاتهم.

وقع أخيرا في قبضتهم، بعد أن دوّخهم لأشهر، وقع بسهولة، ودون أن يقاوم، كأنّه اعترف بهزيمته، أو كأنّه يغطّي على دخول آخرين من الجهة الأخرى، الجميع منشغل معه في استجوابه، والاتّصال بالجهات الأمنية الأخرى، بينما هو مبتسم يفكّر في الخطّة البديلة، والرّوح البديلة فداء للوطن.

رفع عينيه في عينيه، تفحّص جيّدا هذا الوجه قاسيَ الملامح، تفحّص جيّدا هذه النّظرة القريبة البعيدة، لحظات وجلّول الغريب بعينيه

الحمراوين يحاول استجماع بعض اللّقطات من زمن ما، من وجه ما، لكنّه تراجع، يشبهني نعم، لكنّه ليس منّي.

سعيد أخفض صوته، وثقُلت يده الملوّحة في سماء الغرفة بلا سبب.

حاول تهدئة الوضع أراد صنع جوّ ملائم للاستجواب.

- لحدّ الآن لا نعرف اسمك الحقيقيّ.

أنت الغريب، من أيّ مدينة جئت؟

- أنا ابن هذه الأرض ولست غريبا. نطق جلّول بمكابرة

- لكن سكّان الرّحوية لا يعرفونك.

صمت

- أجب، مع من تعمل؟ ولصالح من؟ الفلاّقة خدّروك؟

صمت، ابتسم كعادته والتفت إلى جهة أخرى.

في هذه الزّنزانة، يقف الموت إلى جانبه، يسخر من ماضيه الّذي يتزاحم حوله، إنّها اللّيلة الأخيرة في هذا العام، تتكاثر الصّور في ذاكرته كمن يُبعث من جديد.

يستعدّ لهذه النّهاية المذلّة، محاولا تهدئة روحه، سيموت أخيرا لكن ليس كما اشتهى، كلّ تلك الفرص الضّائعة للموت أحزنته، وهو الّذي تمنّى أن يكون في غير هذا المكان.

جرّ السّلاسل بكلّ قوّته متقدّما نحو النّافذة الوحيدة المضيئة بخجل، خاطب العالم منها بكلمات لم تتعدّ حلقه.

العالم البائس لا يستيقظ إلاّ بعد الفجيعة، بعد أن ينتهي كلّ شيء سيقولون ما يقولون من الحكايات، تراجع إلى الوراء قليلا، ارتمى على

الزّاوية المتعفّنة، يداه مكبّلتان ورجلاه توحّدتا مع الحديد المجلجل بقوّة، لم يعد يشعر بهما.

هل هو مرتاح لكلّ ما فعله؟ أبدا، حتّى هذه العمليّة، لا شيء أمام ما يريد تحقيقه.

وها هو هنا مكبّل اليدين والرّجلين، يحاول التّخلّص منهم والعودة إلى هناك، فالجيش بحاجته.

الفصل الثّالث

فرسان اللّيل

لا تصالح على الدّم... حتّى بدم!
لا تصالح! ولو قيل رأسٌ برأسٍ
أكلُّ الرّؤوس سواءٌ؟
أقلب الغريب كقلب أخيك؟!

أمل دنقل

الهروب

لا شيء عن الموت ولا عن المحاكمة، لا دليل ضدّه ولم يعترف بشيء، ما كان عليهم سوى أن رموه مع المساجين في سجن مهديّة الفظيع، ينتظر المحاكمة الّتي لن تكون لصالحه، هؤلاء سيتدبّرون الأمر، سيلحقون بملفّه قضايا أخرى، ولن يفلت منهم.

ظلّ يفكّر في خطّة للهروب، كيف لا؟ وهو قويّ البنية شديد العضلات، سيحفر تلك الحفر اللّعينة، وسيدّعي المرض، كما هي العادة، ومن هناك سينطلق هاربا في يوم أحد وقت احتساء الخمر والسّكر الماجن.

أسرع يا جلّول، المنطقة بحاجتك، مازلت ستعطي الكثير لهذا الوطن، مازلت ستقاتل إلى جانب الرّفاق، وهذه المرّة بسلاح ولباس عسكريّ تفوح منه رائحة الموت، وبقع الدّم الكريهة.

هذه المرّة لن يعيدوك للعمل الفدائيّ، لن يسلّموك للعدوّ، وها قد وصلت الفرصة، لاعتناق الجبل، أوّل معركة ستخوضها في العفافنة جهة القلب والرّوح، هناك في تلك الدّيار عشت، وكانت طفولتك المتأرجحة بين الفرح والحزن، هناك الأهل والجيران، ستمرّ ليلا على ولاد الميمون وتجتاز وادي مينا إلى الدّوّار.

يقودكم الضّابط خميس نحو تلك المنازل الفخمة للمعمّرين، هل ستحرق المزرعة (الفيرمة)؟

يا الله... الفرصة مواتية لاختبار مدى إخلاصك لوطنك، هنا فقط ستظهر الضّمائر الحيّة الّتي رضعت حبّ هذه الأرض.

أسعدتك الفكرة، ورحت تحمل تلك الشّرارات وتنثرها هنا وهناك، ليست لحرق المحاصيل الزّراعيّة، إنّها لحرق بيوت المعمّرين.

النّار تأكل كلّ ما تجده أمامها، وسعادة خفيّة لم تظهرها لهم غمرت روحك، ولو طلبوا منك الدّخول على المعمّرين جاك وڤالا لتجرّهما نحو مينا، لفعلت ذلك.

تركتم النّيران تفعل فعلتها، ولذتم بالفرار جهة العفافنة مرّة أخرى، ومراكزكم هناك، عشاء خفيف وتكملة المسيرة إلى جبل الشّرفة.

لا يا جلّول لن تتعب أبدا، ولن تشكو شيئا، فكلّ ما أردته حصلت عليه، إلاّ شيئا واحدا، أن ترى وجه أمّك للمرّة الأخيرة وتخبرها أنّك من المجاهدين، أكيد كانت ستزغرد طويلا طويلا فرحا بك.

استمرّت المعارك يا جلّول، معارك لا تنتهي وليالٍ مرّت كأنّها أعوام، قاسيّة باردة، الجوع والألم والإصابات.

وماذا أيضا أيّها الغريب؟

المعارك لم تنته، وهذي الطّرق الّتي جبتها يوما بمفردك، أو مع روز صارت كئيبة، وخالية من كلّ أسباب الفرح البسيط، كأن تحضن طفلا أو تبتسم لزوجتك، أو حتّى تتذكّر صورة رائعة عشتها في الماضي القريب.

استفاق مفزوعا، كان الحلم غريبا عجيبا، بن عمر يجلس وحيدا فوق الشّجرة والغربان تحوم حوله، تارة تقترب منه وأخرى تبتعد، بينما هو يحاول إمساكها بيده، فإذا به يسقط ويرتطم على الأرض، فيرى جمجمته وقد تفجّرت وتناثر دماغه على التّراب والغربان تلعقه وتصدر صوتا مزعجا.

مسح العرق على جبينه واستغفر الله، كاد يبكي لولا منصور الّذي هدّأ من روعه.

صورة طفلك بن عمر تلاحقك، كما يلاحقك صوت روز المبحوح وهي تنظر إليك بعينين مبلولتين فيهما تناقض كبير.

- لا تذهب وتتركنا، واذهب لتحرّر وطنك.

تناقض في مشاعرها، يحزنني، كما يحزنني تذكّر وجه ذاك الشّابّ الّذي اعتقلني واستجوبني لساعات...

يا الله... يشبهنا كثيرا، حتّى نظراته لم تكن عاديّة، ارتبك لمّا رآني، وتلعثم رغم صلابة شخصيّته.

هل يمكن أن يكون..... لا لا مستحيل.

أيقظني منصور من تفكيري الشّارد، ونحن نسير في مهمّة بعيدا عن الكتيبة،

أسرعنا بأمر من القائد نتفقّد الجهة الأخرى للجبل، بعد تلك المعركة الّتي خرجنا منها، وقد ودّعنا أرواحا رافقتنا طيلة هذه السّنوات.

تسلّلنا بخفّة، أسلحتنا على ظهرينا، وملابسنا الّتي غنمناها من معاركنا مع العدوّ، تخفينا في هذا الاخضرار.

تسلّقنا الجبل، مرّة أمدّ له يدي ليصعد، ومرّة هو يساعدني على تجاوز الصّخور النّاتئة، خاصّة وآلام حادّة سيطرت على أسفل ظهري.

التحقنا بكتيبتنا الّتي وجدناها قد حوصرت من كلّ الجهات.

- ماذا حدث يا خالد؟ كيف توغّلتم إلى هنا؟

طلب منّا السّكوت ريثما يسمع ما يقوله القائد، الكلمات تتلاشى، والرّعب دبّ في أجسادنا، وصوت الطّائرات قد زاحم كلماتنا المرتبكة.

جهّزنا أنفسنا لمعركة ربّما تكون الأخيرة، أجل هذا ما فكّرنا فيه، لكنّ القائد لم يكن ساذجا، فقد أمرنا بنصب رشّاشاتنا في أعلى مكان، واختبأ أغلبنا بين شجيرات البلّوط، يا لها من خدعة!

تقدّمت القوّات تقصد وسط الغابة، ونحن مختبئين، نرصد تحرّكاتهم المنتظمة نحونا، صاح قائدنا:

- لا تطلقوا قبل أن أطلب منكم.

وبدأ القصف من بعيد، لا نستطيع تمييزهم، والمدافع لا تهدأ، ثمّ تحرّكت الدّبّابات تهزّ الأرض هزّا.

كأنّنا وسط زوبعة رمليّة، لم نر شيئا، وانفلت منّا خالد يسرع نحو الجهة الأخرى، يحني ظهره ويصوّب سلاحه نحو الأرض، لم أستطع نسيان ذلك...

عادت أشلاؤه إلينا، وارتطمت عظامه بتلك الصّخرة الّتي أخفتنا، أغمضت عينيّ، حاولت فتحهما بقوّة لأرى جيّدا، ولا شيء غير الحقيقة.

خاطبت القائد بفرنسيّتي الجريئة:

- دعنا نطلق على أولاد الكلب.... هيّا

أعدتها عدّة مرّات، وحرقتي لا تنطفئ وقد استشهد خالد ابن ولاد الميمون، رفيق طفولتي وشبابي وصديقي الغالي.

بكيته للحظات، لأسمع صوت إطلاق النّار الّذي تلاه سرب من رصاصنا، واشتدّت المعركة بين ضرب وتراجع إلى أن أسقطنا عددا كبيرا منهم.

أظلمت باكرا، ونحن في نفس المكان نقاتل بشراسة، نظرات القائد على ذخيرتنا الّتي قاربت على الانتهاء، والعدوّ بقوّات كبيرة، اختلطنا بهم، فلم تستطع الطّائرات قصفنا مع جنودها، وحان دور السّكّين.

قفز منصور إلى هناك والتقط قنبلة دخّانية ثبّتها في المدفع، وأطلقها في مكان تواجد قوّات العدوّ، حينما تصاعد دخّانها، أسرعت الطّائرات إلى

المكان تقنبله بقوّة، لم يستطع قادة العدوّ إيقاف ذاك القصف، لتتضاعف خسائر هم أكثر فأكثر.

أشعلت الطّائرات أضواءها، تراقب قتلاها، حتّى لا نستولي على سلاحهم.

كان علينا أن نعبر المكان إلى الجهة الأخرى من الجبل، وليس لنا من طريق آخر سوى هذا الطّريق المراقب، والّذي سُلّطت عليه الأضواء بالتّناوب.

ولأنّ دهاء القائد مازال متّقدا، أمرنا أن نتجنّب الأضواء بطريقة الانبطاح على الجثث، كلّما ركّزوا عليها، جثونا كالأموات فوقها، فتمرّ الكاشفات الضّوئيّة، ونسرع بخمس خطوات حين يختفي النّور.

صار الأمر صعبا جدّا أن تعانق الأموات، وتلتصق دماؤهم بثيابك، تحاول تفادي هذا الألم، ولا تستطيع ذلك.

أسرنا أحد الحركى وأجبرناه على السّير معنا، لكنّه اختفى بين الجثث فتركناه وأسرعنا للهرب.

بدت لنا منطقة جبليّة أخرى، تمركز عليها العدوّ في جهتين متباعدتين وبينهما طريق، عبرناه، وأنّات الجرحى تحاصرنا من الجهتين، إذ تجمّع جنود العدوّ في مجموعتين لعلاج جرحاهم، كان صراخهم وعويل آلامهم يملأ فضاء المكان، ممّا سهّل علينا المرور الواحد تلو الآخر، في ظلام أصرّ أن يكون رفيقنا الوفيّ، وتركنا خلفنا خالد والكثير من الشّهداء الّذين ارتفعوا عاليا هناك.

عدنا لمينا بعد مسيرة ليالٍ طويلة، عدنا نرتاح قليلا، ننظّف ملابسنا وأسلحتنا، ونلتقط بعض الأخبار عن معاركنا الأخيرة، فلا أحد يعرف حصيلة قتلاهم غير الحركى والبيّاعة.

انتشرنا حول مينا، نزعنا ملابسنا لننفض عنها ما علق بها، من شعوب تكاثرت من القمل والصّئبان، علت ضحكاتنا اليائسة:

- هل أُبيدت هذه القبيلة؟

- إنّها مدينة كاملة تحت إبطي هههه...

تعالت الضّحكات أكثر وأكثر، تلك الأمسيّة قضيناها بين التّرقّب والخوف والسّخريّة الموجعة، فبعد منتصف اللّيل، سمعنا صوت طلقة ناريّة، أسرع الحرّاس يتأهّبون ويوقظوننا بالتّناوب.

بجانبي منصور وبعض الجنود الّذين التحقوا مؤخّرا بجيش التّحرير.

تطوّع أحدهم لاستكشاف المكان لكنّهم عادوا بلا نتيجة، قال أحدهم:

- ربّما هي رصاصة طائشة من المناطق المجاورة وصوت اللّيل أقوى.

نمنا على أعصابنا لبعض الوقت، لم نأمن على شيء، ولا يمكن البقاء هكذا مكتوفي الأيدي، جمعنا أشياءنا وغادرنا مع أواخر اللّيل، إلى جبل الشّرفة هناك حيث مركزنا الخاصّ بالاتّصالات.

جدّدنا نشاطنا، وكان استعدادنا كبيرا لخوض أيّ معركة مهما كانت خطيرة التّفاصيل.

أمرنا القائد أن نتمركز حسب رتبنا ومهمّاتنا، ولا نتغافل عن مراقبة الجهة الشّرقيّة، فقد تباغتنا قوّات العدوّ في أيّ لحظة.

قضينا النّهار ونصف اللّيل هناك، ومع الفجر نزلتُ مع منصور نتوضّأ للصّلاة، وإذا بنا نرى مجموعة من العسكر تتّجه نحو المرتفع بصور شبه مظلمة ولكنّها واضحة قليلا، قلت لمنصور:

- انظر العسكر هناك. وأشرت بيدي إليهم

قال مبتسما:

- هؤلاء مجموعة من الجنود طلبهم القائد لتدعيم خطّنا الأمامي، أنت ترى كم استشهد مؤخّرا من الخاوة.

تسرّب الشّكّ لقلبي فلم أتوضّأ، بل أخرجت سلاحي ورحت أترقّب أيّ شيء من أيّ جهة.

أنهى منصور صلاته، وقبل أن يختمها سمعنا طلقات ناريّة من رشّاش غير بعيد.

هرولنا إلى أعلى الجبل نتفقّد الرّفاق، فإذا بنا نجدهم قد تمدّدوا مستسلمين لموت مفاجئ، تغطّيهم الدّماء ونور خافت لفجر كئيب.

اختبأنا غير بعيد عنهم وقلوبنا يعصرها الوجع، كيف حدث ذلك بهذه السّرعة؟

وهل هؤلاء الحركى مازالوا في الجوار؟

لم يطل هذا السّؤال حتّى سمعنا أنّات خفيفة، خلف شجرة الضّرو:

- لا إله إلّا الله محمّد رسول الله...

كلمات ثقيلة صعبة، كان يردّدها عليّ لازون مسؤول القسم، إنّه يحتضر يا منصور، إنّه يحتضر...

أقبلنا عليه نودّ حمله على أكتافنا والهروب به بعيدا، لكنّه أشار بيده جهة المنحدر، ولم نفهم ماذا يقصد من ذلك.

أسرع منصور يتدحرج، تغلبه الأتربة إلى الأسفل، فإذا به يجد القائد ممدّدا والمحفظة تحته، صاح عليٌّ بصوت يعافر كي يرتفع:

- خذوا المحفظة واهربوا.... هيّا هذه وصيّة القا ئد.

كان الموت قويّا، صلبا وخبيثا، صدمنا ونحن بينهما، كيف لنا أن نتركه هنا ونغادر؟

- هيّا يا جلّول أسرع، وانحدرنا نحو الوادي ببكاء عوّضهما زغاريد الشّهداء.

صوت اللّيل لا يرحم يا منصور، خطواتنا أرهقتنا، وتحمّلنا إيصال الأمانة لقائد النّاحيّة، كيف نخبره بما جرى؟ كيف سيتحمّل هذا الخبر الفظيع؟

بعد أن خسرنا القائد الأوّل، ها نحن نتلقّى صفعة أخرى من الحركى، هل سنسامح؟

توعّدنا بدواخلنا أن ننتقم لهم، كلّ ما فينا من تعب يوحي بذلك، تنهّد منصور طالبا منّي التّوقّف:

- لننتظر يا جلّول قليلا، أشعر بإرهاق شديد، لا أريد أن أموت قبل إيصال الأمانة.

تقول هذا ووجهك يرتجف، وقد تغيّر صوتك...

لم أستطع الرّدّ، كلّ ما فيّ تحوّل إلى كتلة قابلة للانفجار، كتلة تشبّعت بالكثير من الحزن والألم، ولم يعد بإمكاني التّلفظ بحرف واحد، فقدت خالد وكلّ هؤلاء ....

فوجنا أبيد عن آخره، وتركنا الشّهداء يرقدون هناك في جبل الشّرفة، يتبعنا النّشيد الّذي هزّ أرواحنا نردّد مع الرّصاص:

(من جبالنا طلع صوت الأحرار..... ينادينا للاستقلال.....

ينادينا للاستقلال لاستقلال وطننا تضحيّتنا للوطن...

خير من الحياة... أضحّي بحياتي وبمالي عليك...

يا بلادي يا بلادي أنا لا أهوى سواك... قد سلا الدّنيا

فؤادي وتفانى في هواك...)

وصلنا جبل غزالة فجرا، قصدنا أحد مراكزنا هناك، نمنا كالموتى إلى المساء.

تجدّد الفوج مرّة أخرى، وتدعّم بالفدائيّين، بعد أن غرقت الكتيبة في حزن لم يخرجنا منه سوى عبد الرّحمان.

عبد الرّحمان، لديه قدرة عجيبة في تحويل أيّ حزن لمرح وضحك وابتسام، كلّما فقدنا عزيزا غاليّا، ارتفع صوته يقلّد شيئا ما، لا يُعجزه في ذلك أيّ صوت.

هذه المرّة اختار صوت رضيع حديث الولادة، كلّما نطق انفجرنا ضاحكين، لقد غيّر من نبرات صوته كثيرا، وصار كرضيع يكسر هدوء هذا اللّيل.

نضحك بأصوات عاليّة لنخفي دمعات سقطت حزنا على الشّهداء.

أُعلم منصور بتولّيه كتيبة النّاحية الثّانية، بينما بقيت هنا مرشّحا لأتولّى شؤون النّاحيّة الثّالثة.

المعارك لا تنتهي، والشّهداء يسيرون قوافل إلى جنّتهم، بينما نحن ننتظر وما بدّلنا تبديلا.

شاع خبر الحركيّ الّذي تجبّرَ وتكبّرَ، بل أكثر من ذلك، لقد ظلم بني جلدته، وصار يعيث فيها فسادا.

كبير الحركى له ثلاثة أولاد، جنّدهم كلّهم مع العدوّ، وصاروا يقاتلوننا تحت راية فرنسا، وزاد على ذلك، نظّم ستّة من أقاربه ك بيّاعة يمشون من دوّار لدوّار، يلتقطون أخبار جيش التّحرير فيوصلونها للعدوّ بكلّ برودة.

لم أكن أصدّق كلّ هذه الأخبار، لم أكن لأدخل في أمور الخيانة، ونحن نعيش مرحلة صعبة، هل سنصفّي بعضنا؟

في الأسابيع الماضيّة تمّت تصفية تسعة من الحركى، نقتل أربعة، يطفو منهم عشرة على السّطح، وكأنّ فرنسا تلبّست أرواحهم.

لم أكن أصدّق، إلى ذلك اليوم الّذي قتلَ ابنُه جنديّا لدينا.

انتظرت بعد هذه الحادثة المؤلمة ستّة أشهر أخرى، حتّى فاض الكأس.

في سوق الأحد، مشى هذا الحركي مع ابنه، يتمايلان، يبحثان عن سبب تافه لإذلال أحدهم، وحين لم يجدا، صرخ الحركيّ في وجه ولده:

- اضرب يا ابن الكلب بكفّ يدك عشوائيّا، لا تشفق عليهم مادامت يدك في الأعلى اضرب بقوّة.

رفع الولد يده، ليلقي بها إلى الخلف، فإذا به يصيب شيخا مسنّا، تساقطت أسنانه وغطّى الدّم وجهه.

من أوصيناه بجلب الملابس والأحذيّة للجنود، لم يشتر شيئا، وصل غاضبا حانقا، كلّ الّذين حضروا الواقعة، عادوا بنفس الحالة.

عدتُ من الغابة يومها، وصلت المنطقة جائعا ومتعبا، وعلى طرف الدّوّار جلستُ على صخرة هناك، طلبتُ من الصّبية بعضَ الخبز والقهوة من بيت

قريب منّي، تناولت القليل منها، لتصلني جموع النّاس وقد علموا أنّني في تلك الجهة، تجمهروا حولي وبدأوا يعاتبونني:

- يا سي جلّول..! الخبيث فعل كذا وكذا وكذا، وأنت تتجاوز عنه، دعنا نقتله نحن.

كنتُ صامتا أفكّر، هل فعلا حدث كلّ هذا من هذا الحركيّ؟ أم هو شجار بسبب الأطفال، أو أمور شخصيّة فقط؟ وحين تأكّد الأمر بعدّة شهود، قلت لهم أنا سأقصده اللّيلة.

قصدتُ البيت أنا ومجموعة من الجنود، دققت الباب، ليقول:

- من يدقّ الباب؟ ? Qui frappe à la porte

رددت بالفرنسيّة:

- لا أحسن العربيّة، أنا مدير لصاص الجديد، لصاص القديم أوصاني أن أمرّ بك، افتح الباب.

- je ne parle pas l'arabe je suis le nouveau directeur de la sas.

قال بتردّد:

- أعطني الرّقم السّرّي الّذي بيني بينه.

- Donne-moi le mot de passe entre moi et lui.

حاولنا معه، جرّبنا كل الطّرق ولم يفتح، ليضرب الجنود الباب بأرجلهم، فيُكسرونه وندخل، وهنا وجدته يحمل سكّينا كبيرا مثل السّيف، جسمه ضخم جدّا، كنت أنا بطولي أصل أعلى بطنه بقليل.

أصابني الرّعب من الرّجل بدون سلاح، فماذا وهو يحمل هذا السّكّين الطّويل، أمسك يدي اليمنى، هجم عليّ مباشرة جهة الصّدر، لأتلقّى

الضّربة بيدي اليسرى، فيمرّ السّكّين الحادّ على أصابعي، فيصيبها ويفور الدّم منها.

بسرعة هجم عليه أحد الجنود بعصا، فأفلتني، وأنا أرفع البندقيّة أضعها على بطنه، قلت له:

- ابتعد هناك، ارم السّكّين نريد التّحدّث معك.

ردّ مزمجرا:

- لو يقترب أحدكم أمزّق بطنه.

حاولنا أخذه معنا، حاولنا إخراجه من البيت، حتّى لا ترى عائلته مقتله، لكنّه رفض، وهنا قلت له:

- هذا ما علّمك إيّاه لاصاص؟

في تلك اللّحظة السّريعة كبرق خاطف، صوّب نحوه أحد الجنود رصاصة مدروسة بين عينيه، فسقط أرضا يشخر ويزمجر، كثور فقد السّيطرة على حركاته.

ابنه الحركي بجانبه، بعينين حادّتين، يكاد يغمضهما لشدّة الخوف، انزوى في ركن، وغطّى رأسه بيديه.

خرجت زوجته، كانت صامتة، ولم تصرخ خوفا على حياتها، أمّا ثلاثة أطفال صغار فقد دخلوا الكانون، تطاير رماده حولهم وتكوّروا هناك يبكون، تأثّرت كثيرا، شعرت بغثيان وسكاكين تمزّق قلبي.

لمّا أراد الجنود تكملة المهمّة، وقتل الابن، طلبت منهم التّوقّف، قلت لهم:

- دعوه... هو بريء.

بيني وبين نفسي قلت ربّما يهديه الله، ويربّي هؤلاء الأطفالَ تربية حسنة.

تذكّرت صغيري بن عمر، ورأيت تلك البراءة في أعينهم، رأيت كيف أنّهم ارتعبوا لكلّ تلك الأحداث أمامهم، ولم يمنحنا الوغد فرصة لإخراجه من بيته، لكنّها الحرب، وعلينا أن نتحمّل كلّ هذا العذاب لأجل الوطن.

إلى جبل غزالة أين عولجتُ ومكثتُ مدّة هناك، إلى أن جاءت المعركة الحاسمة، المعركة الّتي انطفأ بعدها كلّ شيء، ما كنتُه صار غريبا عنّي، حتّى تلك الطّرق الملتويّة خانتني وصعّبت المسير المثقل بجراحنا، اشتدّ الخناق علينا:

- خذ القليل من الماء آسي جلّول.

الضّاوي ومعمّر والصّرخات...

ما تزال الرّوسية بيدي أضبطها بدقّات قلبي، ما نفع الجنديّ بلا سلاح؟ فما بالك بالقائد الّذي تحمّل مسؤولية كبرى في هذه الكتيبة.

- عد عد ... تراجع يا الضّاوي...تراجع...

لكنّ شيئا ما حدث في تلك اللّحظة، تلاشت الرّؤيا، وصمتت الآذان، ولا أحد رأى الضّاوي.

ابتلعتُ ريقي الّذي جفّ مرّة أخرى، سقطتْ دمعاتي، وضغطتّ على الرّوسيّة أوزّع الطّلقات على أبناء الكلب، لكنّ جسدي اهتزّ أكثر، تفرّقنا ولم أعد أرى الخاوة، صمتَ كلّ شيء، وعمّ البياض، البياض الّذي رأيته ذات يوم في مركز التّعذيب...

أقرأ شيئا من القرآن، بلا صوت أو أثر للكلام، تماما كما حفظتُه مع روز بمخارج مختلفة متعثّرة لكنّها مؤثّرة.

أرى تلك الشّرفة البعيدة في ولاد الميمون، والكثير من العصافير الّتي أزعجها اللّقلاق العجوز.

أرى بن عمر يجري نحوي بعد مدّة من الغياب، يمسك فردة حذائه البلاستيكيّ بيده اليمنى، وكرته المصنوعة من القماش البالي بيده اليسرى.

ارتمى عليّ وأنا جالس أنتظره حتّى كاد أن يُسقطني، قبّلته كثيرا واحتضنته بذراعيّ طويلا...

الصّور تتلاحق تباعا، وحياتي تبدأ في ذهني الآن، إنّه الموت، تخميني لم يخيّبني يوما، كما لو أنّني وقعت في بئر عميقة وصدى ضحكات بن عمر يتبعني...

الفصل الرّابع

الزّمن الأخير

انطفأ كلُّ شيءٍ وأنارَ جزءٌ في ذاكرتي لكَ وحدكَ...

ليلى عامر

سعيد لويس

جئت دون أن أوافق على هذه المهزلة، الّتي تسمّى حياة، كان يمكن أن أخلق شيئا آخر، غير هذا الجسد الّذي شكّلوه على هياكلهم المقرفة.

ماذا لو خُلقت عصفورا أو نسرا، أو حتّى غرابا يضرب الهواء بجناحين في كبرياء، ماذا لو صنعوا منّي كائنا خفيفا يسرح في هذه الفلوات؟

يردّد سعيد جملا كئيبة، يائسة، فمنذ ذلك اليوم الّذي لا ينساه، وهو شارد الذّهن، لم يعد كما كان، يتأمّل يديه بحزن، من كان ذاك الرّجل الّذي كابر وأنا ألكمه؟ ولمَ هو بتلك النّظرات الّتي أربكت كلّ خططي؟

أسئلة لابدّ لها من إجابات، لكنّه أفلت الفرصة، فالسّجين هرب كما أخبروه، ولم يعد يستطيع الإمساك به، كما أنّه لا يعرف أين يقيم، أو حتّى من أين هو، لا وثائق تدلّ عليه، ولا يترك للعدوّ أدنى فرصة لتقصّي أخباره، سأل والده وهو يمسك القليل من التّمور:

- بابا... ألا ترى كيف أنّ شارل يشبهني؟ الأمر غريب فعلا، حتّى أنّني منذ مدّة قابلت "فلّافا" يشبهنا، أنا وهو، والله غريبة.

لم يقل شيئا، لم يجبه، بل راح يجمع بعض الأواني ويحملها إلى المطبخ في محاولة لتغطية هول السّؤال.

كيف له أن يكتشف هذه الخيوط؟ هذا الولد سيعرف يوما أنّه من تلك المنطقة، راح بخياله إلى البعيد:

- سيّدي من فضلك دعني أرى ابني، فأنا فقدت طفلي الأوّل، قلبي يحترق.

- قلتُ لكِ غادري حالا يا مجنونة، هل سأطلب لك البوليس؟

وقعتْ على الأرض، فرقّ قلبه، حاول تهدئتها وسألها:

- كيف فقدتِ الأوّل؟

- ضاع منّي في ولاد الميمون، لا أعرف إن جرفه وادي مينا، أو افترسته الذّئاب في جبل غزالة؟

فغر فاه وتلاحقت كلّ تلك الصّور تباعا، يااااه ما أقسى هذه الصّدفة الغريبة...

أخوان هما، نعم ومستحيل أن يكونا غير ذلك، هما يشبهانها كثيرا، خاصّة في تلك الصّورة في بطاقتها.

تركها تتحدّث وتنتحب، بينما قصد الحانة القريبة من البنك المركزيّ.

الكأس الأوّل أعاده لفرنسا، تجوّل في شوارع باريس مثقلا بهمومه، ابتسم خفية عن الجميع ولم يتحدّث.

الكأس الثّانية، أشعلت نيران روحه فتجهّم وجهه، وشارف على البكاء، لكنّه تحمّل أكثر وأكثر، ولكي يطفئ النّار، زاد كأسا ثالثة وانفجر صارخا:

- يا قوم هههه هما أخوان أخوان.... أخوان هههه

ردّد الجملة حتّى ارتخت رأسه، ووقع على الطّاولة، شعر بالغثيان، ثمّ القيء أسرع ليفرغ ما في جوفه، دفع للنّادل وخرج يترنّح إلى بيته.

لم تنتبه كارولين لحالته إلاّ وهو يرتمي على سريره، حين عادت غرفة الولدين بعد أن حكت لهما حكاية ما قبل النّوم، "المغامر البطل".

تذكّر كلّ هذا، وهو يعلم من تكون الأمّ، ويعلم أنّهما أخوان، ويعلم أنّهما من ولاد الميمون، لكنّه يخفي كلّ ذلك في داخله، وهذا يعذّبه ويشغله أكثر من عدد الفلّاقة الّذي يتزايد.

تركه في مكانه وغادر، لقد هرب من هذا السّؤال الخطير، هرب من حقيقة تكاد تُفتضح قريبا، مهما طال الزّمن فكلّ المعادلات المبهمة سيحلّها الوقت الهادئ الصّامت، بأنامل تحسن فكّ الخيوط المتشابكة.

سيعرف الجميع، وستتدمّر حياته الزّوجية، الخيانة، والفعل الشّنيع وصمة عار لن تمحوها سوى..... سوى ماذا؟ الموت أو الهرب يا هذا.

انزوى لويس في غرفته وقد زادت الشّكوك أكثر وأكثر، لا أحد يجيب في هذا البيت، حتّى كارولين لا تقول شيئا.

أشعل سيجارة، دخّنها بسرعة ثمّ رماها من النّافذة خفية، كانت الأجواء في الخارج منعشة، لذا فكّر في الخروج، ربّما يساعده ذلك في التّفكير

والتّركيز، سار قليلا، كانت الذّكريات تحضر من بعيد، وجه امرأة عربيّة تلتحف البياض، وامرأة مسنّة تجلس بينهما، الخرّوب وحبّات الحلوى، وكوخ في ولاد الميمون لا يذكر مكانه بالضّبط، وحتّى محي الدّين، أجل هذا أيضا يحضره بكلّ ثرثرته وحمقه.

يد كثيرة الوشم، تحضنه كلّ ليلة، وشابّ يعود مساءً متعبا يلاعبه بلطف، حياة بعيدة بعيدة... تكاثرت الأسئلة، بينما انعدمت الأجوبة، وتألّم أكثر حين لم يجد رابطا واحدا بين كلّ هذه الذّكريات.

الضّاوية

في النّاحية الرّابعة استقرّت كممرّضة رغم كبر سنّها، ووهنها، لم تكن لتفوّت هذه الفرصة، ما أسعدها وهي تحقّق أحلامها في خدمة الجيش.

ترتدي اللّباس العسكري وفوقه الحايك، أو الفستان المزركش الّذي تتميّز به المنطقة، تبدو كامرأة عادية، ريفيّة ولا علاقة لها بالثّورة.

كلّ العتاد تحت إمرتها وعليها أن تتفقّد الجرحى في هذا المركز، تداوي بما تستطيع، وأكثر من ذلك، فقد تخرج للبوادي القريبة وتعالج الأطفال من الأمراض المعدية.

في مهمّة صعبة هي ورفيقاتها، الجرحى بالعشرات ولم يعد المركز يحتمل المزيد، لكنّهنّ يسعين أكثر، والجميع له مكان في جهة ما.

أمضين السّاعات في تفقّد المرضى، إلى أن ظهرت من بعيد المجاهدة حياة، كانت تصرخ وتنادي، لكنّ صوتها تقطّع وفقدت السّيطرة فوقعت.

إنّها النّواني فقط ليسمعوا أزيز الطّائرات، كانت بعيدة، لكنّها تتّجه نحوهن، نحو الجبل، أسرعت الضّاوية لتخفي الأسلحة والعتاد الطّبّي، بينما الأخريات بدأن يقتطعن الحشائش ويضعنها على المرضى، والأمر لم ينجح، ارتدين ملابس المدنيّات، ونظرن لبعضهنّ البعض.

- أخواتي هذا يومنا. سنقاتل إلى النّهاية. قالت الضّاوية.

بعض الجرحى يحملون أسلحتهم، قاموا بصعوبة يتمركزون في أماكن مختلفة، أمّا أصحاب الإصابات الخطيرة فانبطحوا على بطونهم ينتظرون ماذا سيحدث.

كلّ واحدة منهنّ تركت فلذّات كبدها، إمّا لدى عائلة الزّوج أو عائلتها، وهنا بدت لحظات الوداع في العيون، إلاّ الضّاوية، فحزنها مضاعف، وألمها أكبر ممّا يحكى ويقال، طفلان اثنان ولا تعرف شيئا عنهما، الأوّل تاه في يوم كئيب، والثّاني سلّمته بنفسها لجلّادها.

اقتربت القوّات، وتصاعدت دقّات القلوب، ليست هذه المرّة الأولى، لقد شاركن في عدّة معارك وهنّ متدرّبات على التّصويب فلم الخوف إذن؟

أوّل قذيفة سقطت، كانت على الشّجرة القريبة منهن، فاشتعلت النّيران، تأكّدت الضّاوية أنّها المعركة الحاسمة في تاريخها، وسوف تخوضها كيفما كانت.

توالت القذائف والبنادق مصوّبة إلى كلّ الاتّجاهات، لكن على من نصوّب؟ هل على الطّائرات؟ بدأ المصابون من الرّجال بالتّخطيط الآني.

- الكابران الكابران الحراسة من هناك، وأنت يا الطّيّب رافق المجاهدات إلى المنحدر، خذ معك كلّ الوثائق والأسلحة.

تردّد الطّيب في تنفيذ هذا الأمر، فقد رآه تصرّفا جبانا، ولا قائد هنا، لا أحد يستطيع وضع خطّة، فكلّهم مرضى والطّبيب القائد غادر منذ الصّباح في مهمّة.

رفضت الضّاوية في البداية، كانت تمنّي النّفس بقتل أكبر عدد منهم، كانت تحلم أن تنتقم لكلّ شيء وتفرغ غضبها على هذه الدّولة اللّعينة.

لكنّها سارت معهم وعينها على المظلّيّين، يقفزون بالعشرات، والطّيّب يسرع الخطى أمامهنّ، يفتح الطّريق ببندقيّته وذخيرته خلف ظهره، وعدد من البنادق على كتفه الأيسر.

- هيّا يا الضّاوية أسرعي.

تتباطأ، ثمّ تلتفت إلى الخلف، تسير كما لو أنّها مجبرة، حتّى اختفت المجاهدات والطّيّب، وغابوا عنها بين أعراف الدّفلى، أمسكت بندقيّتها وراحت تتصيّد من بعيد هؤلاء الأنذال، تمرّر أصابعها على الزّناد، أطلقت، ثمّ أطلقت...

وفي كلّ مرّة تطلق تقع جثّة أحدهم غير بعيد...

الآن أيّها الأنذال يمكنني أن أموت، يمكنني أن أرحل وقد ثأرت لنفسي، خذ هذه الرّصاصة، إنّها لأجل الوغد الشّاذ، وذاك السّجن العفن، وهذه لأجل طفلي الضّائع، وهذه لأجل أمّي، وهذه....وهذه .....

ارتجفت، ارتخت كانت الملامح قريبة من روحها، الوجه والشّعر والمشية السّريعة، وحتّى تلك الالتفاتات... ليست غريبة عنها، دُهشت ولم تستطع مواصلة إطلاق النّار، بل كيف تفعل؟ وذاك الشّاب هو... نعم هو...

في هذه اللّحظة وجدت نفسها وسط مجموعة من العساكر، أحاطوا بها وراحوا يسألونها، بينما هي تمتنع عن الكلام، عيونها كانت هناك تبحث عنه بينهم، ولا شيء غير ذلك.

استشهد جميع المرضى واقتيدت إلى المركز لاستجوابها، لم تكن تأبه لهم ولا لما يقولونه، عيونها مازالت تبحث عن شاب تبيّن أنّه يشبه جلّول، كان بنفس ملامحه، ولم لا يكون هو سعيد؟ قلب الأمّ قادها إليه، ولم يطل الأمر كثيرا حتّى دخل عليها.

روز

موّالها المتقطّع اخترق سكون اللّيل، الطّفل لا يهدأ، ولا يسمع ما تنطقه هذه الشّفاه الجافّة، تعيد أغنيتها الّتي أحبّتها منذ سنين، الأغنيات لا تصدأ ولا تموت، الأغنيات تعيد تشكيل الحياة وتزفّ بعض الأمل للأرواح البائسة، الأرواح الّتي خزّنتها طويلا في زواياها.

غنّى جاك بريفر ذات يوم وردّدتُ معه ولا أزال:

آه كم أتمنّى أن تتذكّري
الأيامَ السّعيدةَ الّتي كنّا فيها أصدقاء
في ذلك الوقتِ كانت الحياةُ أكثرَ جمالاً

والشّمسُ أكثرَ دفئا من اليوم
إنّهم يجمعون الأوراق الميّتة بالمجرفة
كما ترين لم أنسَ...
إنّهم يجمعون الأوراق الميّتة بالمجرفة
ويجمعون الذّكريات والنّدم...
ثمّ تحملها ريحُ الشّمال
إلى ليلةِ النّسيانِ الباردة
كما ترين لم أنسَ
الأغنية الّتي كنتِ تغنّين لي...

وحيدة هي، في كوخ يهتزّ مع كلّ نسمة ريح خفيفة، فيدبّ الرّعب في قلبها، رغم أنّها صارت عربيّة الشّكل، إلاّ أنّ عينيها تفضحان ما ينهش روحها، تناقضات كبيرة، وفراغ خلّفه غياب جلّول، حتّى لو اتّفقا على ذلك، فهي تقترب من نهاية صبرها على تحمّل الأمر.

لم تقل شيئا لزوجة بن عيسى، لا تشكو لأحد، هي اختارت وعليها تحمّل الأمر.

منذ أشهر لم يزرها جلّول، هو يرسل بعض الفرنكات أحيانا، أمّا الضّاوية كانت تأتي متخفّية، تفاجئ روز ببعض الملابس للصّغير، وما تستطيع حمله من مواد غذائيّة وحتّى أخبار جلّول الغريب.

تحدّثها عن المعارك الّتي يخوضها والسّلاح الّذي يفتكّه من العدوّ، تخبرها أنّه يمرّ بالقرب من البيت ليلا، ولا يستطيع زيارتها خوفا عليها وعلى بن عمر.

تعوّدت على الوحدة والفراغ، ولتملأ وقتها أتقنت صنع بعض الأطباق بالحلفاء، مهارة متواضعة، صارت أكثر إتقانا ودقّة فيما بعد، ثمّ تطوّرت لترسلها للسّوق رفقة أحد أقرباء بن عيسى.

تستطيع الاعتماد على نفسها وربّما يمكنها تخزين بعض المال أيضا للغد المبهم، فهي لا تعرف ماذا سيحصل، صارت المعارك تتوالى وحتّى التّصفيات من طرف الخاوة أو جيش العدو.

منذ أيّام دبّ الرّعب في مدينة الرّحوية، ولم يستطع قريب بن عيسى دخول السّوق، نعم هناك اغتيال شنيع لكبير الحركى، بقيت جثّته لمدّة من الزّمن حتّى حضر الدّرك للتّحقيق، وجدوه مذبوحا كطير ضعيف، لم تبدُ عليه المقاومة.

النّاس خائفون، على وجوههم بعض الحزن وبعض الفرح، تختلط المشاعر، لربّما هي غير حقيقيّة، فالوطنيّون سعداء جدّا ولا يُظهرون ذلك، أمّا الأنذال فالرّعب سيطر على وجوههم، وتساؤلات محيّرة عن كيفيّة اختراق هذا الدّرع الأمني المحيط بالمدينة.

تصفية بوعلام الحركيّ أرعبت الجميع، وعليهم أن يفكّروا ألف مرّة قبل أن يختاروا فرنسا.

- صباح الخير مينا، كيف حالك؟ وحال بن عمر؟

- الهمد لله تقصد الحمد لله، بخير. يلعب بالخارج، إنّه يعشق تلك الشّجرة لا يفارقها مرّات يسقيها، ومرّات يلعب تحتها، وأحيانا يختفي بين فروعها فلا أراه هههه.

تعرفين يا مينا، المفاوضات قائمة ونحن على مقربة من الاستقلال، هل فكّرت في مصيرك مع جلّول؟ ستبقين أم ترحلين لو استقّلت الجزائر عن فرنسا؟

- عزيزتي أنا اخترت هذه الحياة، اخترت جلّول بعد محبّتي له، سأبقى هنا ولا أغادر، لا تنسي أمّي جزائريّة.

تتحدّثان في كلّ المواضيع، وفجأة شعرت روز ببعض الوهن، قامت فوقعت على الجدار تريد الاستناد عليه.

أسرعت خدّومة إليها، ترشّها ببعض الماء، وتصفعها لتستفيق...

- مينا... مينا... مينا...

فتحت عينيها ببطء وهي تبتسم:

- لا تخافي أنا بخير، في المدّة الأخيرة شعرت بهذه الأمور، دوخة وتعب شديدين، وحتّى أنّني فقدت شهيّتي للطّعام، لكنّها ربّما أعراض فقر الدّم، فأنا عانيت من السّرطان منذ سنوات وشفيت منه والهمد لله.

لونها الأصفر لم يكن ليغيب عن خدّومة، وحتّى هزالها، وطريقة حديثها لا تبشّر بخير.

- أيّ سرطان يا مينا؟

- سرطان الدّم.

صمتت خدّومة وهي تبلع ريقها، وبينها وبين نفسها تقول الله يستر... الله يستر.

المعتقل

فُتح الباب بقوّة، حتّى سُمع له صوت خارج المعتقل، دخل رفقة اثنين من الجنود، أحدهما طويل جدّا والآخر ضعيف البنية، أمّا سعيد فكانت سمرته الفاتحة تسيطر على مظهره الجذّاب، دخل عليها وهي مكبّلة اليدين، تنظر مباشرة للباب، حين رأته انحدرت دموعها ولم تُصدر أيّ حركة، الدّموع الّتي تسابقت على خدّيها، ووجهها مصوّب نحوه، نظراتها إليه أشعرته بالحرج.

تقدّم بعض الخطوات وقد أظهر بعض القسوة، حتّى يعيد لنفسه التّوازن، شعر بارتباك روحيّ، هذه النّظرات وهذا الوجه، منذ البارحة وهو يلازمه، شكوكه القديمة وأسئلة مبهمة في ذاكرته تعذّبه بالغموض.

الآن، وفي هذه اللّحظة، تندفع تلك الذّكريات البعيدة، حضن وقُبل، ونومٌ هنيء في حجرها، لا يذكر وجهها جيّدا، لكنّها هي، يحسّ بذلك في أعماق قلبه، التفت إلى الجنديّين طالبا منهما المغادرة، أغلق الباب خلفهما.

نطقت بشفتين يابستين والدّموع ما توقّفت:

- سعيد... سعيد...

الصّوت خافت جدّا يكاد لا يُسمع، لكنّه فهم أنّها نادته باسم عربيّ، اسم قادم من بعيد جدّا، اقترب منها وهي لا تُبعد نظراتها عنه.

- سيّدتي أنت في موقف صعب، اعترفي بكلّ شيء، وسنحوّلك للمحاكمة وربّما هناك تخفيف.

لم تقل شيئا، مدّت يدها نحوه وهو في ذهول لما يرى.

- سعيد ولدي... سعيد ولدي...

قلب الأمّ لا يُخطئ، قلب الأمّ لا ينبض سوى للمحبّة والحنان، دلّتها أمومتها أنّه بخير، شوقها في عينيها، ووجهها الباكي يدلّ عليها، ارتبك مجدّدا بينما مدّت إليه يديها المكبّلتين.

اقترب أكثر منها وكاد يحضنها، فقد قادته روحه إليها، إنّها الضّاوية...

- الضّاوية... الضّاوية... أنت الضّاوية....

- نعم ولدي سعيد أنا أمّك أنا أمّك...

ارتمى في حضنها يبكي، لأوّل مرّة يقوى قلبه بضعفه، لأوّل مرّة يرى وجهه في وجه يشبهه، ولأوّل مرّة يستعيد روحه، الّتي هربت منه، يوم غادر بحثا عنها.

صوت للبكاء، امتدّ لدقائق، ارتوى الاثنان من حنان فقد لسنوات، رفع رأسه إليها قائلا:

- لا تخافي سأجد طريقة لتهريبك.

- لا يهمّ بنيّ لا يهمّ... المهمّ أنّني وجدتك وأنت بخير الحمد لله.

قفز إلى مكانه يتصنّع الجدّية، وقد ابتعد قليلا عنها.

- سأتصرّف.

عدّل هندامه وقبّعته العسكريّة، مسح وجهه وعينيه الدّامعتين، أدار ظهره إليها خارجا.

أظلم اللّيل وهي بعد في مكانها متجمّدة، العالم كلّه لا يسع فرحتها، العالم كلّه لا يفهم الآن ما تحسّه، الجسد لا يبالي بآلام ظاهرة، فما تلك سوى جروح آنية، الجروح الحقيقيّة شُفيت برؤيته.

ما بقي إلّا القليل وتكتمل الفرحة والرّاحة، راحتنا ليست في الجسد، وإنّما في الرّوح، أيّ ألم سيكون مجرّد ذكرى عابرة، لكنّ جروح الرّوح لا تزول، وستخلّف وراءها ملايين الآهات المتكاثرة مدى الحياة.

انزوت تريد القليل من النّوم، لكنّها لم تستطع، فالحدث عظيم، والفرحة الّتي تعتريها هرّبت النّوم من الجفون، كيف ستكون ردّة فعل جلّول؟ ماذا ستقول روز؟ يا الله

أغمضت عينيها وحاولت النّوم، لتسمع بعض الخطوات البعيدة تقترب منها، استرجعت ما حدث لها عام 1945 يوم سُجنت ظلما، ويوم اغتصبت من سجّان مريض شاذّ، كانت الخطوات تقترب ونبضات قلبها تزداد، إلى أن فُتح الباب وظهر جليّا الفرج من الله.

كارولين

لليوم الثّاني لم يتناول سعيد فطوره معهم، ولم يجلس وجها لوجه مع والديه، لاحظت ذلك وكتمت الأمر في نفسها، لكنّها لم تستطع الصّبر أكثر، وسرعان ما حدّثت مايك بذلك:

- لويس تغيّر كثيرا، لم يعد معنا كما كان في السّابق، ألم تلاحظ ذلك؟

ابتلع اللّقمة بصعوبة وهو يفكّر في آخر أسئلته الجريئة:

- ههه الشّباب. قد يكون عاشقا من يدري؟
- عاشق؟ ومن تكون هذه الفتاة؟ هل رأيت شيئا وتخفي عنّي؟
- لا...لا...لا لكن من المنطقيّ ذلك، لا تقلقي قد كبر وصار يُعتمد عليه.

في الحقيقة كان يخفي الكثير من الأسئلة هو الآخر، ولكن لا جواب غير التّكتّم وألم الكتمان، ماذا يحدث له؟ وهل صار مثلي، يفعل ما فعلت؟ لا...لا

الحكايات تشعّبت، ولا أحد يستطيع إيقاف تدفّق الأحداث.

النّهار الموالي جرّ معه شهقة غريبة سمعتها كارولين، فبدل أن يذهب معهم للكنيسة القريبة منهم، اختلى في غرفته، لم تسمع غير تلك الشّهقة، أرادت تجاوزها، لكنّها تذكّرت كلّ تلك التّغيّرات الحاصلة، هذا الشّاب يناجي حبيبة ما أو يقوم بالصّلاة والعبادة؟ ماذا يفعل؟

دقّت الباب برفق كعادتها، لم تسمع كلمات الإذن بالدّخول، أعادتها مرّات ومرّات أخرى، قلقت وارتجف صدرها، شعرت بصعوبة في التّنفّس.

أدارت قفل الباب ودخلت، لم تر صغيرها الّذي تعرف، بل رأت شابّا كبر فجأة فاحمرّت عيناه لكثرة البكاء، يدير رأسه نحو النّافذة، في مشهد غريب.

- ما بك لويس؟ ما بك حبيبي؟

لم يلتفت إليها، وإنّما ارتجف أكثر، وكابر حتّى انفجر مرّة واحدة، ينوح بصوت يحاول كتمانه.

لم تصبر كارولين بل ارتمت عليه تحضنه:

- بنيّ ما بك؟

دفعها بيده اليمنى:

- أين عائلتي؟ لماذا كذبتِ عليّ؟ أين أمّي وأبي؟ من أنا؟ من أكون؟

تراجعت خطوتين وهي تضع يدها على فمها، حاولت أن تكون قويّة، حاولت أن تصمد أمام هذه الأسئلة، والّتي تبدو مجرّد جمل فارغة، مع ما يدور في عقل هذا الشّاب.

- أأأ

- لا تقولي شيئا، عرفت... نعم عرفت.

قام وشدّ يدها:

- أنت ربّيتني شكرا لك، ولكن باسم الرّب ألا تستحي من فعلتك؟ حرمتني من عائلتي الحقيقيّة، لماذا تركتني أعيش كلّ هذه الآلام والأسئلة الغامضة؟

هل أنتما من البشر؟ لالا أنتما .....

انهارت باكية ولم يترك لها فرصة الكلام، إذ في هذه المواقف لا تفسير للأحداث بمبرّرات واهية.

سمع شارل صراخه فأسرع إليهما يعانق أمّه، وهذا أيضا من أيّ عا .....

- لا أرجوك توقّف، توقّف .....

حمل معطفه وخرج مسرعا، بينما هي عانقت شارل وبكت بصوت مرتفع.

الخروج كان هو الحلّ الأمثل، لن ينتظر لحظة واحدة، كلّ السّاعات الماضية كانت ضياعا للوقت والحياة، اختار الطّريق إليها، لا يمكنه تركها وحيدة ومريضة.

بينما أغلقت كارولين غرفته وهي تمسح دموعها، سيعود أخوك تأكّد من ذلك، سيعود.

جلّول الغريب

افتح عينيك أيّها الجبان، جلّول جلّول.....

كانت السّماء ماتزال ملبّدة بالغيوم، والأرض نديّة، نبتت عليها بعض الحشائش تستعجل الرّبيع.

بصره يدور حول الجنود:

- أين أنا؟ ماذا حصل؟

أسرع إليه منصور يُطمئنه:

- الحمد لله على سلامتك، كانت قذيفة أصابتك، لكنّك الآن بخير، نحن في جبال الونشريس وقد عاينك الطّبيب، ونزع كلّ الشّظايا الّتي أتعبتك.

تلك النّظرات لم تكن سوى أسئلة مبهمة عصفت ب جلّول الغريب، مازال في قلبه سؤال خجل أن يكرّره، من أنا؟ من أنا؟

كانت رقصاتهم تدلّ على فرحتهم به، وقد قارب عام 1961 على الانتهاء.

لا يعرف شيئا عن اسمه ولا الزّمن، ولا حتّى المكان الّذي ذكره منصور ولا حتّى منصور نفسه.

ترك الأمر سرّا بينه وبين نفسه، كلّما تقدّم منه أحدهم أجابه أنّه بخير، بخير فقط.

لكنّ منصور لن تنطلي عليه هذه الخدعة، وقد لاحظ هذا على جلّول.

- سيّدي الضّابط المرشّح جلّول لا يذكر شيئا ربّما فقد ذاكرته، مرّت أيّام ولم يتعرّف على أحد.

- ربّما يحتاج لبعض الوقت للرّاحة.

- نتركه هنا في المستشفى ونغادر غدا لعلّه يرتاح ويسترجع صحّته.

مرّت الأيّام، والغريب صار غريبا أكثر، لا يعرف عن ماضيه شيئا، جلّول فقط، هذا ما يذكره، وهل الإسم يعيد إليه حياته الّتي يفتقدها؟ ولماذا غادر هؤلاء الجنود وتركوني مع النّساء؟

لم أعد أصلح للقتال؟ أم أنا شخص آخر، ربّما حركيّ أو خائن، تلمّس دماغه قائلا:

- يا الله أعنّي على تحمّل هذا...

سار بعض الخطوات إلى المنحدر، ثمّ انتهج طريقا ترابيّا إلى دوّار قريب، وذكرى قريبة تراوده، ذاك الحلم الغريب ...إنّه طفل يسقط من أعلى الشّجرة إنّه طفل.

الضّاوية

أعلى الشّجرة يلعب الصّغير بن عمر، وتحته الدّجاجات تدور، وخلفهنّ الكتاكيت في منظر أسعده جدّا، بينما كانت روز تكنس خارج الكوخ بمكنسة الدّوم المهترئة.

الأرض مبلولة لذا لم تتطاير الأتربة، ولم تتعبها هذه العيدان في جمعها، ابتعدت بها قليلا، رمتها هناك والتفتت عائدة، لكنّ ظلّا بعيدا رأته يهرول اتّجاه الكوخ، ظلّ يسارع الخطى ويحاول إلى أن بانت ملامحها:

- الدّاوية الدّاوية...

تدحرج بن عمر من على الشّجرة يجري نحوها، بينما نظرت روز في كلّ الاتّجاهات لتأمّن لها الطّريق، عانقتها طويلا، ثمّ دخلوا بسرعة، وبن عمر في حجر الضّاوية بملابسه المزركشة وقبّعته البيضاء، لم تكن الضّاوية كعادتها حزينة وبائسة، سعادتها ظهرت على وجهها، وضعت يديها على يدي روز:

- تخيّلي وجدت ابني، وجدته. وجدت سعيد.

فتحت روز فاها مبرزة أسنانها الجواهر، صارخة:

- واو .... واو يا ربّي معقول؟ بعد كلّ هذه السّنين؟

- نعم يا روز.... ولدي ربّته عائلة فرنسيّة، لا أعرف كيف وجدوه؟ أو كيف وصل إليهم. المهمّ هو ضابط ويعمل في المعتقل يحقّق مع الثّوّار.

- الهمد لله الهمد لله، أنت جائعة؟ أحضر لك شيئا.

أسرعت تحضر بعض الخبز والشّاي، والقليل من البيض المطبوخ، كانت فرحتها تسبق كلّ حركة تقوم بها، يا له من خبر سيسعد به جلّول جدّا.

- الدّاوية... ألا تعرفين شيئا عن جلّول؟ لم يزرنا منذ أشهر...

- لا للأسف، قبل شهرين، سمعت أنّه شارك في معركة في جبل غزالة، و و...

وقع طبق الخبز من يدها:

- هل أصيب؟ هل أصيب؟ أخبريني الدّاوية لا تكذبي.

حاولت الضّاوية تغطية الأمر، لكنّها لم تفلح، أدارت رأسها نحو بن عمر الّذي قفز من حجرها إلى الخارج:

- كبر العفريت وصار يلعب بمفرده.

روز هناك ترتجف من خبر لم تقله الضّاوية، فأحسّت به يخترق كلّ حواسها، لا شيء يدلّ أنّه بخير:

- قبضوا عليكِ أنت أيضا، يداك مجروحتان.

نعم يا روز نمرّ بفترة عصيبة، حتّى مع المفاوضات اشتدّ الخناق علينا، نحن نعاني، جلّول أصيب ولكن أخبرني أحدهم أنّه يتعافى جيّدا، قامت إليها وعانقتها:

- لا تبكي يا مجنونة، سيعود إليك إنّه قويّ البنية كما تعرفين.

الصّمت سيّد هذه المواقف، تكذب الكلمات، والصّدق ما يقوله الواقع المرير، لا أحد يتخيّل ماذا سيحدث غدا، لا أحد يعرف كيف ستكون

الحياة بعد يوم أو يومين، الأمور معقّدة جدّا، وواضح أنّ الضّاوية تكذب وجدّا.

لن يدوم هذا الصّمت طويلا، فالكلاب علا نباحها، وصوت قويّ قادم في اتّجاه الدّوّار، إنّها قوّات كبيرة، قالت هذا الضّاوية ولطمت وجهها...

- لن أبقى لحظة واحدة، ربّما يبحثون عنّي، الحايك، أين الحايك؟

تلحّفت جيّدا، ونزلت بسرعة من الجهة المعاكسة لدخول القوّات، بينما حملت روز كلّ الأواني، أعادتها بسرعة، غطّت شعرها، صبغت وجهها بالفحم وبعض أسنانها، حملت صغيرها بين ذراعيها والتزمت كوخها، ترى بين فتحات الخشب ما ارتعبت لرؤيته، يا الله...

الخالة

لم تسلم الخالة أمّ العلوّ من دوريّات العسكر، فمنذ هروب جلّول وروز وهي تُفتّشُ دوريّا، ويُقتحمُ بيتها في كلّ حين، وحتّى حين قُتل كبير الحركى بوعلام صارت محلّ شكوك.

- لم تتعاوني معنا أيّتها العجوز الحمقاء، جلّول كان هنا مع روز، أليس كذلك؟

تصمت لكنّها تجيب حين يحاصرونها بأسئلة خبيثة:

- قلت لكم لا أعرف شيئا، لا أغادر هذا المنزل منذ مدّة.
- وهذا الصّغير ابن من؟

- هذا ابن قريبتي توفّيت، هل أرميه؟

أسرع بن عمر إلى حضنها يلتصق به باكيًا، ضمّته إليها تسكته برفق وبيدين مرتعشتين هدّتهما الشّيخوخة من جهة، وهمّ فراق فلذّات الكبد من جهة أخرى.

انصرف العسكر ومعهم الحركى بعد أن فشلوا في فتح صندوق أسرارها، وكيف تتحدّث وهي الّتي عاهدت الله أن لا تخون الأمانة، تتذكّر قبل هذا الهجوم على بيتها، حين وصلت روز مع صغيرها تحمل أشياءها الخاصّة، فيها الكثير من الرّسائل الّتي جمعت بينها وبين جلّول، بداية قصّتها الّتي كتبها بخطّ يده.

كانت صحّتها متدهورة، وجهها أصفر وعيناها يلفّهما السّواد.

- "كالتي" خالتي "كلّي" خلّي هذه الأمانة معك، إلى أن يعود أحدنا أنا أو جلّول أو الدّاوية، كما ترين أنا متعبة جدّا، وأخشى أن يحدث معي مكروه ووووو

تسبقها الدّموع.

- وهذا الصّغير لا أعرف كيف أتصرّف، الدّاوية مطلوبة لدى العسكر وجلّول مصاب.

- أستغفر الله أستغفر الله...

- المهمّ بن عمر ورسائلنا هذه، وذكرى من والدتي خاتمها، كلّها أمانة لديك، إذا لم نعد سلّميها للصّغير أمانة عليك.

تحضنها بقوّة وتبكيان، المرض اللّعين تمكّن منها، ولن يُفلتها هذه المرّة، لن تقدر يد القدر مهما حاولت أن تعيد تشكيل الحكاية، فما اشتاقت سوى لثلاثة، والدتها، والدها، وجلّول.

تمنّت لو أنّ المرض يهدم خلايا روحها ببطء شديد، تمنّت لو أنّها تنام مطوّلا لتصحو على صوت أحدهم، وصغيرها.

لا حلم سيكون بهذا الجمال، وهذه الرّوعة، بعدها تحضن طفلها وتنطفئ للأبد.

سارت ذاك المساء بشكلها العربيّ، لم تغيّر من ملامحها الّتي امتزجت بين بشرة بيضاء ووشم تقلّبت مساراته المتقاطعة الجارحة، لتكون كما هي الآن عربيّة الرّوح والوجه، وشم صقلها كما أرادت لها بادية وادي مينا أن تكون.

لم تكبر كثيرا، ولم تؤثّر تلك التّجاعيد الرّفيعة على صفحة وجهها المشرق، كلّ شيء كان يزيدها ألقا، هذه المرأة جميلة في كلّ أحوالها ولن تتغيّر، خطّطت أن ترقد في مستشفى الرّحوية المتواضع، بضع خطوات فقط بقيت لتصل مدخله الخارجيّ، خطوات فاصلة أربكت المشهد، لتقع بطولها وتسرع أرجل المارّة اتّجاهها يحملونها إلى الدّاخل، إين استقرّ بها الحال، وطال جدّا غياب وعيها كما هي العادة سابقا.

لكن هذه المرّة لا رسائل من جلّول، ولا أب يلامس وجهها، ويسهر أمام سريرها، أو يوصي بها إدارة المستشفى، لا أحد يعرفها، لتصير هي الأخرى غريبة.

جلّول

قادته الخطوات إلى أقرب مكان في الدّوّار الّذي وصله متعبا، ساد الخوف والهلع هذا البيت، وقد همس إليه صاحبه:

- هل جُننت يا سي جلّول؟ تخرج نهارا وتعرف أنّ العيون تراقبنا؟

فهم جدّا أنّهم يخشون العدوّ والبيّاعة في كلّ مكان، ردّ بسؤال:

- أين الكتيبة؟ أبحث عن الجنود.

- منذ يومين مرّوا بنا، يتّجهون نحو جبل غزالة، لديهم معركة حاسمة هناك.

- معركة؟ وأنا ألست مسؤولا أيضا؟ كيف يتجاوزونني؟

نظر الفدائيّون إلى بعضهم البعض، كانت الأسئلة توزّع على الوجوه، ما به سي جلّول؟ لكنّهم اختاروا التّحفّظ.

- سمعنا أنّك مريض ربّما تركوك للرّاحة...

- سألحق بهم، مهما كلّفني ذلك.

تناول القليل من الخبز والشّاي، قصد المخبأ نام فيه قليلا، ومع غروب الشّمس توجّه نحو النّاحية الثّالثة، طريق الغابات والجبال كما دلّه الخاوة، هل سيستجيب عقله الباطن، ويعرّفه بهذه المسالك، رغم هذه الهزّات؟

من الّذي ينسيه ذاك الحلم الّذي رآه؟ ومن هو ذاك الطّفل الصّغير؟

مسدّسه تحت ملابسه، وبعض الطّعّام والماء على ظهره، يصعد المرتفعات وينزل المنحدرات بنفس الطّاقة، وبنفس النّشاط، نبضات قلبه

تخبره بالكثير رغم الوجع الّذي تُحدثه الأفكار المعقّدة في دماغه، يحاول تذكّر شيء.

شمس الصّباح كانت تلمع من هناك، وبالقرب منها اقترب أكثر، ليرى فتاة شقراء تطلّ من شرفة وحيدة بعيدة، خلف هذا البيت منظر يشبه الجنّة، واد ...وادي مينا.

استفاق وقد أشرقت شمس أخرى حقيقيّة، اقترب منه مجموعة من الأولاد كانوا يجمعون الدّوم، نهض بسرعة يبحث عن مكان يختبئ داخله.

أيّام مرّت على مسيرة شائكة صعبة، لا أثر للذّكريات مع الجنود، أو العائلة أو حتّى الأصدقاء، الشّيء الوحيد الّذي تبقّى في ذاكرة هذا الرّجل، هو حلم مزعج لطفل أعلى الشّجرة، وشمس خلف فتاة شقراء في قرية بعيدة.

أشياء جديدة تعلّمها مؤخّرا، كالحرب والثّورة والسّلاح، الخاوة، المراكز، وقائد الكتيبة، وصديق مخلص يدعى منصور.

عليك أن تحيا أيّها الرّجل، وتقاتل هذا الخواء الّذي بداخلك، إن كنت مخلصا كما يقولون، إن كنت شجاعا، وطنيّا... عليك أن تكمل للأخير، ومهما كانت ظروف حياتك الأخرى الّتي تجهلها، ستجعلهم يفخرون بك لاحقا، وستعرف بالتّفصيل كلّ شيء حين يأذن الله بذلك.

الرّعاة لهم دور في الثّورة، فمنهم الخونة، ومنهم الّذين حملوا الأمانة وصانوا الوطن، بفضلهم دخلت جبل غزالة، ومع أحد الفدائيّين وصلت الكتيبة.

استقبلتك الحراسة بنفس العناق الّذي كان، فهل عرفت منهم أحدا؟ كلّا... منصور مرّة أخرى، يحضنك ويطمئنك، وهو يضرب كفّه على كفّك.

- وصلت؟ كنت واثقا أنّك ستلحق بنا...

وكان الصّمت المرير الّذي تكرّر في الونشريس، وذاك السّؤال المبهم من أنا؟

ورغم ذلك استقبلوك معهم ورحت تستمع إليهم فقط، وتحاول التقاط المزيد من الأسماء، كلّ الأسماء الّتي تسمعها لأوّل مرّة تتمسّك بها ذاكرتك قد تحتاجها لاحقا، خلوتَ بمنصور:

- منصور أنا أنا ....

- أعرف يا صديقي، لمّا تستعدْ ذاكرتك بعد، لكنّك حتما استعدتَ كلّ قوّتك، الجزائر تحتاج إليك، كن إلى جانبي فقط وسنتعاون في استرجاع ما يعيدك إلينا،

المعركة حاسمة، غدا سيهجم العدوّ على ولاد الميمون، ونحن سنعترض طريقهم، فرصتنا للحصول على المزيد من الأسلحة.

على فكرة يا جلّول ولاد الميمون هو الدّوّار الّذي ولدتَ فيه، أنت وعمّتك الضّاوية.

حمل سلاحه على ظهره وطلب منه الانضمام للمجموعة من جديد، كلمات جديدة ومهمّة أضيفت لرصيده الجديد، ولاد الميمون، العمّة الضّاوية.

ارتخت عضلاته، ارتاح قليلا، شرع ينظّف سلاحه، يحاول مجاراة الجنود في كلّ شيء.

مع ساعات الفجر، بانت أضواء قادمة من جهة الغرب، وأخرى من جهة الشّمال، صارت المناطق المحيطة بواد مينا مركزا لعمليّات العدوّ، فقد

تكثّفت في المدّة الأخيرة، واشتدّ الخناق على الأهالي، في هذه المعركة سيكون الدّرس قاسيّا لفرنسا عدوّة الإنسانيّة.

سينتقم قائد الكتيبة لتلك الأرواح الّتي احترقت ظلما في أعالي الجبل بالنّبالم المحرّمة دوليّا، وذاك الكوموندوس الّذي قضت عليه قوّات بيجار المنحرف.

التّاريخ لن ينسى ذلك.

تمركز الجنود في أماكنهم، وقد نصبت الرّشّاشات في زوايا خبيئة لا يراها العسكر، والخطّة الأذكى، أنّ ولاد الميمون أُفرغت من الأهالي، وما بداخلها جنود جيش التّحرير فقط.

- جلّول ارفع رأسك عاليا وكن بطلا اللّيلة، ألستَ من توعّد بالانتقام لأمّ المجاهدين سُكَينَة؟

اغتصبوها أمام أولادها، بصراخها الّذي أوجع طيور مينا، قطعوا ثديها، ثمّ جرّوها لكلابهم تنهش جسدها، والقلب تفور دماؤه وتتلاشى نبضاته،

وسط هلع الجميع، الأطفال الّذين تمسّكوا بعباءات الكبار يشدّونها ذعرا،

والشّبّان الّذين حلفوا أن ينضمّوا لجيش التّحرير، والشّيوخ الّذين فتحوا بيوتهم ك مراكزَ لنا.

وصل جنود الكتيبة ليلا، بعد أن غادر بيجار وعساكره، والحركى الّذين اختلطت مشاعرهم.

وصل جلّول والخاوة يعزّون العائلة في هذه الجريمة، وهنا توعّدوا أن ينتقموا لها أشدّ الانتقام، ألم تكن أمّ الجميع؟

ألم تعجن بيديها خبزا لهم؟

ألم تحمهم ذات يوم؟ حين اجتمع قادة المنطقة في بيتها، ولمّا أقبل جيش العدوّ غطّتهم بأكوام التّبن ولم ترتبك، بل واصلت عملها كأن لا شيء هناك، ثمّ حملت كيسا واتّجهت نحوهم، لمّا سألوها:

- هل زارك الفلّاقة؟

أجابت بثقة:

- الفلّاقة لو يصلون هنا يقتلونني، أو ليس أخي ضابطا في الجيش معكم؟

أسكتتهم بسؤال آخر، لقد كان امحمّد أخوها فعلا ضابطا معهم، ولكن يعمل سرّا مع جيش التّحرير، يا لها من امرأة شجاعة!

الدّفن ليس هو ما يكرم الشّهداء، ما يكرمهم هو الانتقام لهم من الأيادي الوسخة... الشّهداء يسعدون حين يحمل المجاهدون السّلاح بعدهم، ويُسقطون قوى الشّرّ، يطحنون رؤوس الأفاعي الّتي تكاثرت على الأرض.

لقّنه منصور الحكاية، وتركه يسبح في خيالات الطّفولة، لا شيء غير طفل فوق الشّجرة، وشمس أخرى غيرها، علّقت جدائلها خلف الشّرفة البعيدة، في أولاد الميمون.

ورغم الذّاكرة الخفيفة الّتي لا تحمل الكثير، تضاعف الحماس أكثر، والدّرس محفوظ في القلب الّذي لم تُصبه الشّظية.

ولاد الميمون يا منصور، هكذا كانت تقول العيون رغم تصدّع الذّكريات، وعدم بروز منها سوى فتاة شقراء في شرفة بعيدة، وطفل سيسقط من أعلى الشّجرة، ولكن ليست هنا على هذه الأرض.

بان الفجر واقتربت الشّاحنات من ولاد الميمون، جهة سدّ بخدّة كانت الرّشّاشات في الأعلى تنتظر ساعة الهجوم بنظرة ثاقبة من هناك.

لم ترتجف يداه، فالجسد تدرّب طويلا وما نسي كيف يدافع عن الوطن، ما تراجعت رجلاه إلى الخلف، فالخذلان لا تحتفظ به ذاكرة الأبطال، ولا يعنيها،

ولم يتردّد للحظة أنّ المعركة بالنّسبة إليه حاسمة.

صرخ القائد: "الله أكبر... الله أكبر"

فاشتعلت النّيران تتوحّد، كوهج سهم في اتّجاه الشّاحنات العسكريّة، الدّهشة والذّعر واختلاط الصّراخ بالتّكبير، بصوت الرّصاص، كلّ هذه الصّور اجتمعت لترسم مشهدا واحدا، هو هروب العساكر إلى داخل الدّوّار.

جلّول يترصّد من بعيد برشّاش زوّدوه به، إذ لا أحد غيره يحسن التّصويب بين الزّوايا، كلّ الرّصاص محسوب، وعليه أن يُسقط حسب كلّ جسد يتحرّك هناك، أفلته رصاص الجبل، أصابه سكّين من كان بالدّاخل.

وتوالت الجثث تسقط بعد أن تؤدّي رقصة الموت، إلى أن انتهى آخر عسكريّ في آخر شاحنة.

دامت المعركة طيلة ساعات الصّباح، نادى القائد بحمل الأسلحة، كلّ الجنود يحملون ما يستطيعون ويغادرون، يخلون الدّوّار فورا قبل وصول الدّعم من مدينة تيارت الّتي تبعد بحوالي 35 كم.

نزل جلّول مسرعا، قلب عسكريّا على بطنه، أخذ منه السّلاح والذّخيرة ثمّ رفع رأسه عاليّا، إلى سماء ولاد الميمون، لم يتعرّف على شيء، كلّ المنازل الطّينيّة كانت متشابهة، أشجار اللّوز والزّيتون متفرّدة في أماكن متباعدة،

نظر جهة وادي مينا، هناك... نعم هناك في تلك الجهة رأى الشّمس الحقيقيّة في شرفة بعيدة.

ظهرت خصلات شعرها وبياض يشبه الأحلام استقرّ بروحه، وربطه بتلك الشّرفة وطريق الأشجار العاليّة المؤدّي إليها.

جلّول جلّول ... هيّا أسرع

ودّع شمسه، وانطلق مع إخوته يتلاشى في جبل غزالة، في اتّجاه جبل الشّرفة، ومن ثمّ إلى أكبر مركز في وادي الأبطال.

سعيــد

لم يعد لبيته، ولا أخبر كارولين أين هو؟ ولا حتّى ذهب لعمله في اليوم الموالي، المنطق الّذي فرض عليه أن يكون إلى جانبها، سندها الوحيد بعد جلّول، هكذا وقعت هذه الكلمات على روحه فأنعشتها.

تاه يومين، واستقرّ على رأي واحد، مكانه إلى جانبها، ويكفي ما مرّ من الأحزان بقلبه الفتيّ.

استقلّ القطار من تيارت مرورا بمشرع الصّفاء، إلى الرّحويّة، لم يسأل أحدا عن الدّوّار، فكلّ ما وصفته له كان واضحا، الطّريق التّرابيّ، والصّخور المتراكمة على جانبيه، أشجار الزّيتون الفتيّة، وأكواخ طينيّة نُصبت هنا وهناك.

كانت فرحته تسبقه، بعض الأكواخ يتصاعد منها دخّان يرسم أشكالا مميّزة، في سماء تكاد تكون رماديّة.

كلاب ودجاج، منتشر يلتقط رزقه، وبعض الرّعاة يرمقونه بنظرة بائسة، رغم ملامحه العربيّة، فإنّ ملابسه لا توحي بذلك، عجيب أمر هذا الزّمان، بالأمس كان يأسرهم، يعذّبهم، ويعتصر الحقيقة منهم اعتصارا، أحيانا يرى مشاهد لا إنسانيّة، ولا يتكلّم، فقط لأنّه درس هذا وحفظه جيّدا، الغزاة يحملون فكرا مغايرا، يستعلي على من رضعوا التّمرّد على كلّ شيء حتّى على أنفسهم، لا يعرف من العربيّة إلاّ القليل، سأل أحدهم بلكنة ركيكة:

- أين يسكن جلّول الغريب؟ الاسم بحدّ ذاته يذكّره برجل اعتقله ودوّخته تفاصيل وجهه وبراعته في إخفاء كلّ شيء.

أجاب شابّ بنظرات حاقدة، وابتسامة النّصر الخفيّ، إذ لا أحد هناك في الكوخ، على جهة اليمين بالقرب منه شجرة زيتون متفرّعة.

سار تلك الخطوات ورجلاه ترتعشان، سيقابل خاله وزوجته، والضّاوية.

صار يحضّر بعض الكلمات المناسبة لهذا اللّقاء.

ماذا سيقول مثلا؟

وكيف سيستقبله خاله؟ هل هو ذاك الّذي عذّبه في الأشهر الماضيّة؟ الاسم نفسه، يشبهه في كلّ شيء، إلّا الوطنيّة، ومن قال أنّني لا أحبّ هذه الأرض؟

من قال أنّهم استطاعوا صقلي، على شكل هذا الحركيّ الّذي أنا عليه الآن؟

لست لويس، أنا سعيد.

اقترب من الكوخ الذّي كان بابه يروح ويجيء، ولا أثر لمخلوق هنا.

كان الدّجاج يبتعد عن طريقه مرعوبا، وبعض الأطفال يرمقونه من بعيد، ولا أحد اقترب منه خوفا من شكله الفرنسيّ، والكوخ موحش يجيب عن كلّ الأسئلة المؤجّلة، أيقن أنّها لعبة الجيش الّتي كان يتقنها جيّدا، أحد دروس الحرب وخططها الجهنّمية، حتّى الضّابط لا يسلم من المراقبة، وهذان الجنديان سمعا كلّ شيء، وتتبّعت الاستخبارات طريق الضّاوية.

هل قُبض عليها؟ وأين خالي جلّول وزوجته إذن؟

غادر مسرعا، لم يستطع التّحدّث لأحد، فلغة الحوار ركيكة ولا يأمن الطّرفين،

لا جيش التّحرير ولا جيش فرنسا.

أسرع بخطواته، يخرج من الدّوّار، وكلّ العيون تراقبه من بعيد، إلى أن وصل الطّريق العام، وهناك تذكّر الوصيّة الثّانية للضّاوية "إذا لم تجدني في البيت، اخرج للطّريق العام، تجد مسلكا يؤدّي إلى دوّار في مرتفع يظهر من بعيد اقصد مركز لالة الباتول وهي ستتكلّف بكلّ شيء".

سار تقوده نصائح الضّاوية، المسلك وعر، لكنّه مريح وكأنّها مناظر من بلاد أخرى، الحرّية، الأهل، الانتماء.

نسائم باردة، لكنّها مختلفة عن تلك الّتي تعوّد عليها في المدينة الكئيبة، أشجار عشوائيّة، هنا وهناك، آثار لحواجز صخريّة من طرف الأهالي، كم من المرّات وجد مع فرقته مثل هذه الحواجز، كانت بمثابة الفخاخ الملغّمة، قبل أيّ دوّار تضطرّ قافلة الجيش للتّوقّف وإزاحة تلك الصّخور من الطّريق، وعلى حين غفلة وبجرأة كبيرة يهجم الجنود عليهم وتحدث المعركة المشتهاة.

نظرات الهلع والرّعب صارت هدفا لجيش التّحرير، بل صاروا يتفنّنون في الكمائن، توغّل أكثر وأكثر، حتّى لاحت له من بعيد بيوت قديمة متصدّعة، لكنّها متقاربة جدّا بطريقة غير منتظمة.

سأل أوّل راعٍ كان يجلس على صخرة عاليّة، يقابل غنمه، وكأنّه أيضا يراقب كلّ مداخل الدّوّار من كلّ الاتّجاهات.

بكلمات ركيكة نطق كلمة: باتول" أشار عليه الرّاعي أن ينتظر قليلا ريثما يعود.

أسرع وهو يلتفت إليه مرّات عديدة، حتّى غاب تماما، ثمّ عاد مع امرأة ملتحفة:

- أنا باتول من أنت يا ولدي؟

- أنا ابن الضّاوية، سعيد. قالها بالفرنسيّة.

نظرت لكلّ الاتّجاهات ثمّ عرّت وجهها والسّعادة بادية عليها، اقتربت منه، حضنته وهي تبكي، يبدو يوما للقاء الأحبّة.

ها هي الضّاوية تجلس هناك تنتظر القادم، قلبها أخبرها أنّه هو حين وصلهم الرّاعي.

ارتمى في حضنها لا يبرحه والدّموع تجفّ، ثمّ تنهمر من جديد لأيّ ذكرى تعيدها الضّاوية على مسامعهم.

- والآن؟ ماذا نفعل؟

كان سؤال الباتول منطقيّا حازما، ماذا سيفعلون أمام هذا الوضع؟

فالدّوّار لا يأمن غدر العسكر، والدّوريات كلّ يوم أو يومين للتّفتيش، وهما الآن مطلوبان، نظر إليها سعيد:

- أوّلا أحتاج لملابس أخرى، جلّابة إذا أمكن، ثانيّا نلتحق بخالي جلّول في جبل غزالة، السّلاح معي، وحبّ وطني في قلبي فماذا أنتظر؟

كانا يتكلّمان الفرنسيّة، بينما الباتول تفهم القليل منها فقط.

قضوا ليلتهم يتشاورون ويتسامرون أمام الكانون، وسعيد كأنّما وُلد من جديد.

- من هي زوجة خالي المحظوظة؟ اعتقدت أنّه لا يتزوّج أبدا فعائلتنا تكاد تنقرض، ويضحكان.

لكنّ الضّاوية فاجأته بالجواب:

- وقع في غرام روز ابنة جاك، وهربا معا إلى الرّحوية، هههه خالك عاشق وغد، وله طفل منها سمّاه على والده الّذي هو خالك الحقيقيّ هههه بن عمر...

استرسلت في الحديث، بينما سعيد ابتلع ريقه وتوقّف عند اسم روز منذ لحظات:

- روز؟ قلتِ روز؟ روز؟ ابنة جاك؟ معناها ابنة خالي، تعرفين كارولين أخته؟ هي أمّي الّتي أخبرتك عنها هي من ربّتني.

وساد الصّمت والحيرة والدّهشة والخوف من صدمات أخرى، صمتا لبرهة ولو تعرّت القلوب لوجدناها تتصارع لتنبض وتعيش.

الحياة هنا ستسير ببطء كلّ كلمة لها وقع كالنّار في حقول القمح الجاهزة للحصاد.

- ماذا ماذا ماذا؟ كنتَ عند كارولين؟ كارولين زوجة ذاك الوغد؟

- نعم كارولين الحقيقة يا أمّي أحبّتني كثيرا ربّتني أنا وأخي شارل، تربية رائعة، تعلّمنا الفروسيّة، الصّيد، السّباحة، كلّ شيء.

وقفت الضّاوية، طلبت من سعيد بعض الوقت للخروج.

في الكانون النّار لا تتوقّف والدّفء حاضر لا يغيب، بينما الباتول تغزل بعض الصّوف هناك على نور شمعة، تسمع الحكايات فتبتسم حينا وتبكي معهما حينا آخر.

تأخّرت الضّاوية في الخارج، لم تشعر بالبرد، ولا بالظّلام الّذي يحيط الأكواخ، لا شيء سوى كلمات سعيد.

عاش الأخوان معا، في بيت واحد، دون أن يعلما بذلك، كيف تتصرّف الآن؟

وهل تخبر الباتول؟

دخلت باكية مرّة أخرى، تغيّرت ملامحها وحتّى جسدها صار مرتعشا خوفا وقهرا وبردا أيضا.

خلدوا لنوم خفيف، إلى أن يظهر نور الفجر ويحين وقت المغادرة.

جلّول

ابتعدت الكتيبة كثيرا عن جبل غزالة، ستطول الرّحلة هذه المرّة، خاصّة وأنّ العمليّة الأخيرة شاعت أخبارها.

سكّان ولاد الميمون تفرّقوا على الدّواوير، وخلا المكان تماما، ما عادت هناك سوى الذّكريات.

لا يأبه لشيء فهو خالٍ من الماضي الّذي يحمله زملاؤه، وحمله هو طويلا وأتعبه، لا يذكر شيئا، وبالتّالي ارتاح من ثقل الهموم والأحزان، لا ماضي له غير الآتي، يفكّر معهم في مستقبل هذه الأرض.

خفيف جدّا، هكذا يشعر، لكنّ الحلم لا يغادره، الأحلام اللّعينة تفقس في الدّماغ وتتكاثر، طفل فوق الشّجرة وفتاة شقراء تمثّل دور الشّمس الباردة.

سمع من منصور العديد من الحكايات عنه، وعن عائلته، سمع عن طفله وعن روز، وعن عمّته، تبدو الأحلام تشبه حكايات منصور ولكن...

في مركز قرب ولاد بلّيل، وصل مسؤول الاتّصال، أخبر قائد الكتيبة الجديد أنّ هناك أخبارا لجلّول، فكيف نخبره وهو لا يذكر شيئا؟

- دع الأمر لي ردّ القائد.

- جلّول كانت زوجتك مريضة هذه الأيّام، أعتقد هي في المستشفى.

وتراءت له صورتها من جديد، صورة الشّقراء الّتي تتساوى مع الشّمس، تشير بيديها النّاعمتين إليه، أن تعالَ...

- مريضة؟ أين؟ يدّعي بعض الجدّية وأنّه يذكرها.

- وخبر آخر سارّ، المفروض يكون هو الأوّل، عمّتك وجدت ابنها الضّائع منذ مدّة، وهما في طريقهما إلى جبل غزالة، لم يقل شيئا، فهو لم يتذكّرهما.

- الضّاوية عمّتك وسعيد ابنها هل .....

صمت يخفي تأثّره وحزنه أنّه لا يذكر عائلته.

- عليك إذن بملاقاتهما في جبل غزالة، وزيارة زوجتك في المستشفى إذا أردت.

نظر إليه ففهم أنّه يحتاج لشخص معه يساعده على التّعرّف على المراكز والأشخاص وربّما يسبقه ينظّم لقاءهم.

في جبل غزالة توقّفت الضّاوية وسعيد.

مازالت شاردة تفكّر في صغيرها الثّاني، تفكّر في صدفة جمعت طفلها، ولا تدري هل هي صدفة سعيدة أم هو الحظّ السّيّئ.

كانا ينظران لولاد الميمون، أشارت بيدها للمكان الّذي شهد ولادتهم جميعا.

- انظر يا سعيد، هناك كوخنا، بيتنا الّذي جمعنا، بيت والدك وبيت والدي والجيران...

- ألا تذكر كيف اختفيت؟ من أخذك؟

- لا أبدا، ولا ذكرى أحملها عن يوم اختفائي، كلّ ما أذكره أنّني بكيت حينما خفت، ونمت حتّى تتجاوزني الذّئاب ولا تراني، بعدها وجدتني في بيت كارولين

- ما رأيك نذهب لهناك؟

العسكر لا يخرجون ليلا، أنت أدرى، ويضحكان.

الأكواخ فارغة إلاّ من الأواني الثّقيلة، الّتي لم يستطع حملها الأهالي، أمّا أفران الطّين فباقية في مكانها، وقد حفرت عليها الأمطار خطوطا للتّصدّع الخفيف.

مرابط الحيوانات، والصّخور الّتي استعملوها للجلوس قبالة وادي مينا، كلّها شاهدة أنّهم كانوا هنا وسيعودون يوما.

دخلا بيت الجدّة، هي تتراقص دموعها بينما، هو يردّد اسم زينب فقط.

اشتدّ الظّلام، فناما هناك.

ومع الفجر قامت مسرعة، توقظه، ويسرعان نحو براج بخدّة، عائدان لجبل غزالة، ينتظران ردّا من كتيبة جلّول.

أعلى الجبل وفي خندق ضيّق، مكثا ينتظران، فينزلان دوّارا قريبا لقضاء تلك اللّيلة، مع ترقّب وصول جلّول في أيّ لحظة.

ومع الفجر بان النّوران، نور جلّول ونور الصّباح، نزل من على الدّابّة، وقف متصلّبا، بينما أسرعت الضّاوية نحوه تمسك سعيد من يده.

- انظر... انظر هههه ها هو سعيد صار ضابطا، وسينفعنا في الكتيبة، هذا كان حلمي، انظر...

لكنّ جلّول تسمّر في مكانه، ولم يقل كلمة واحدة، ولم يذكر شيئا عنهما.

قال المرافق:

- تعرّض لقذيفة كما تعلمين لم يستعد عافيّته بعد.

أسرعت تعانقه وتبكي، يا حسرتي عليك يا ولدي، يا روح عمّتك، يا حسرتي عليك يا زينة رجال ولاد الميمون.

بكى وهي تردّد هذه الكلمات، وراح سعيد يحضنه ويعتذر إليه:

- سامحني..... سامحني .. بلغة ركيكة

تعرفين يا أمّي أنا اعتقلته، وأمرت بتعذيبه منذ مدّة، رغم أنّني احترت في أمره كيف يشبهني هكذا؟

سلّمهم المرافق الدّابّة لتصعد الضّاوية، وغادروا الدّوّار نحو جبل غزالة، النّهار بالنّسبة إليه فاضح خبيث، سيحاولون الاختباء إلى المغيب، ينطلقون في اتّجاه الرّحوية.

المسير صعب، والطّريق إلى هذه المدينة شائك ومتعب، فهي عارية تقريبا من الغابات، والوصول عبر مجموعة خطر كبير.

لذا تفرّقوا، الضّاوية سترافق جلّول والمرافق سيأخذ سعيد إلى قائد المنطقة السّابعة، المتواجد في النّاحية الأولى، ليلتحق بجيش التّحرير، والقادة هم من سيعيّنونه في الكتيبة المناسبة.

افترقوا وصارت الضّاوية مع جلّول، وأسلحتهما تحتهما تحسّبا لأيّ طارئ.

تركا الدّابة في مدخل المدينة ودخلا كأيّ مدنيّين، يسيران بخطوات واثقة غير مريبة.

- عمّتي! أودّ رؤية بن عمر.
- لكن أخشى دوريات العسكر، ربّما تكون خالتك مراقبة.
- أرجوك عمّتي أودّ رؤيته، أراه في أحلامي كثيرا.

لم تقتنع، لكنّها أشفقت عليه، وهي أعلم بهذه المشاعر، حسنا بسرعة، ضع يدك على سلاحك في أيّ لحظة قد نجدهم أمامنا.

دقّات الباب لم تكن قويّة، لكنّ الخالة سمعتها بقلبها، أسرعت وفتحت:

- يا الله... أحبّائي .....وعانقتهم دفعة واحدة

كان جلّول ينظر إليها فاستغربت الأمر، نطقت الضّاوية:

- أين بن عمر يا خالة؟ سنراه بسرعة ونرحل، لا نريد توريطك، أكثر.
- دقيقة أحضر لكما طعاما.

خرج بن عمر من المطبخ يحمل قطعة خبز في يده، لمّا رآهما أسرع يجري ويضحك، وارتمى في حضن جلّول الّذي سبقته الدّموع، قبل أن تسبقه يداه في ضمّه بقوّة، همست الضّاوية للخالة:

- جلّول فقد ذاكرته...

وقبل أن تنطق الخالة، راح جلّول يمسح دموعه ويوصيها به، قبّلته الضّاوية وهي تحمله عاليّا، ثمّ وضعته على الأرض:

- لا تتعب الخالة، تفاهمنا؟

نطق الطّفل بعد أن زالت عن وجهه ابتسامته:

- أين ماما مينا؟ ذهبت لتحضر لي قميصا ولم تعد.

ساد الصّمت الحزين، البائس، التفت جلّول إلى الجدار وغطّى وجهه ودموعه.

سيظلّ هذا السّؤال مجروحا إلى الأبد. أين مينا؟

خرجا مسرعين إلى المستشفى، وقد غطّت وجهها "بالعجار" وهو يغطّي رأسه بالكنبوش.

الطّريق إلى المستشفى مليء بالعساكر، كانا يحملان قفّة فيها بعض الخبز والبيض وقنّينة حليب، الحاجز الأوّل للسّيّارات، والثّاني للمشاة، تسلّلا مع المارّين إلى الدّاخل وتنفّسا بعمق.

قسم طبّ النّساء هناك، غرفة بغرفة، كانا يلهثان، خائفين جدّا من تلك العيون المراقبة خلسة.

جلّول يستحضر وجهها المشرق، من هناك خلف الشّمس، غرفتها هي الأخيرة، دخلا معا، التقت النّظرات بالنّظرات، استوت في جلستها وهي تتأمّله ولا تنطق بكلمة واحدة، تذكّرت يوم زارها في المستشفى منذ سنوات، كانت ترقد في مستشفى تيارت، بالقرب منها والدها وهو، يده في يدها يمدّها الكثير من الحبّ.

تراجعت الضّاوية إلى الخلف، ربّما تريد حراسته وتأمين وجوده معها.

أقبل نحوها، مدّ يده يودّ لمسها، يتمنّى لو يستعيد لقطة واحدة من ماضيه ليعرفها جيّدا، لكن لا شيء سوى تلك الصّور السّريعة في دماغه، شرفة بعيدة وشمس آدميّة تصهر روحه حبّا.

- جلّول... جلّول...

نادته روز بتعب، وقد تغيّر لون وجهها وشُلّت حركاتها، جحظت عيناها الخضروتان، وراحت تحاول إخراج كلمة واحدة من حلقها لكن....

ثلاث طلقات اخترقت جسده من الخلف، استقام وعيناه ترفرفان.

رووووز رووووز لقد تذكّرها، الشّمس الباردة الّتي تشير من هناك هي شمسه، آيات قرآنية تلاحقت في ذهنه، وتلك الدّروس في ولاد الميمون، لا يريد أن يسقط الآن، فالطّفل في أعلى الشّجرة كان خائفا ومذعورا، وتلك الغربان تحوم حوله.

كون راجل يا جلّول كن رجلا... قرآنه والشّمس الّتي وعدته، وطفله يعدو نحوه يحتمي به.

لكنّه هوى فجأة، وصراخ روز ملأ أذنيه، لا يريد أن يغادر بهذا الحزن، لا يريد أن يسمع غير الزّغاريد، وفهمت الضّاوية الّتي راقبت استشهاده بألم وحسرة.

زغردت، زغردت... وأطلقت كلّ الرّصاص الّذي كان في جعبتها، ليسقطا معا ويستضيء الكون بعد ذلك.

عاد الأهالي لولاد الميمون، كلّ السّكّان تمسّكوا بتلك الأكواخ البدائيّة الّتي تعبق بعطر الثّورة والجهاد.

بدت الحياة هادئة وجميلة، والأخوان يجلسان على حواف مينا، يسردان ذكرياتهما في بيت كارولين:

- لا أصدّق أنّها فارقتنا، كانت تحبّنا بحنان كلّ الأمّهات.
- الموت أسرع ممّا نتصوّر.

- كنت أشكّ في كلّ شيء إلّا أن تكون أخي.

أقبلت روز تمسك بن عمر من يده اليسرى، وهو يحاول الإفلات منها.

- ما رأيكما لو نجتمع في بيت واحد، في بيت والدي، وتعيش معنا الخالة أمّ العلوّ

ومعها كريمة، فقد بقيتا وحيدتين منذ وفاة زوجها رهمه الله، تقصد رحمه الله.

اقتراح روز كان مثاليّا، أرادا الحديث معا، لكنّهم جميعا صمتوا مندهشين، حين ظهر من بعيد رجل تجاوز السّتّين ينادي:

- سعيد... سعيد...سعيد...